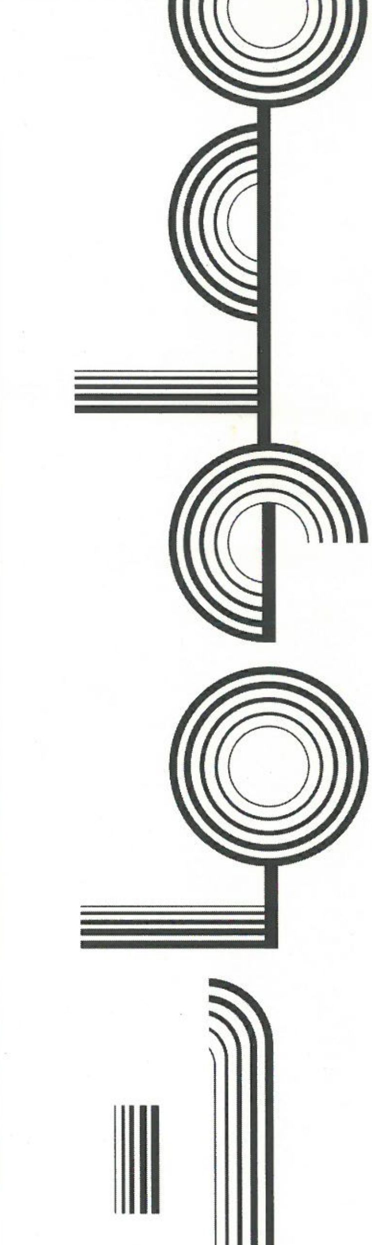


بَيروتُ شرفةُ الدُّنيا

□ الأحداث والوثائق

□ بوابة البحر
□ بيروت المحروسة
□ منارة الثقافة والصحافة
□ رئة العرب
□ أسوار بيروت
□ أرض الثبات والتجريب

□ الدراسات

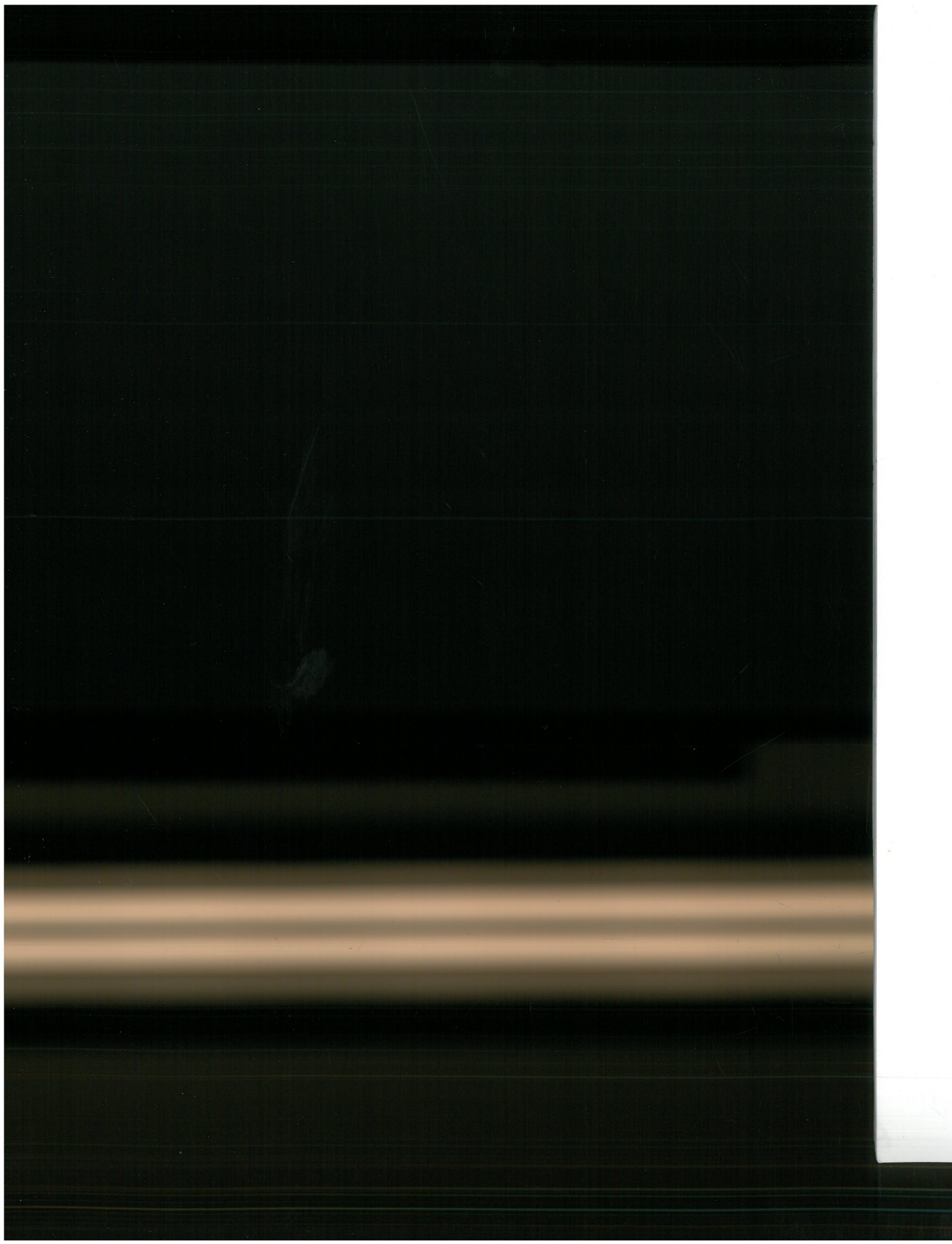
- بيروت في الأسطورة والتاريخ .... رجا حوراني
- المدينة ذات السّاحتين .... جاد تابت
- المثقفون العرب ومدينة بيروت .... صقر أبو فخر
- المدينة الوسيطة .... سمير قصير
- شارع بيروت الوطني .... منح الصلح
- ثلاثون عاماً من الصحافة: الثابت والمتحوّل .... طلال سلمان



يصدرها المركز العربي للمعلومات ش.م.م

والأربعون

كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٧



معلومات

مجلة تعنى بقضية كل شهر
يصدرها «المركز العربي للمعلومات» بالتعاون مع جريدة «السفير»

العدد التاسع والأربعون كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٧

إعداد وإشراف:
بادية حيدر

إخراج وتنفيذ:
أحمد رياض سلمان

Maaloumat

A Monthly Periodical Journal
Published by The Arab Documentation Center & Assafir Newspaper

No. 49 December 2007

المدير المسؤول:
أحمد طلال سلمان

المركز العربي للمعلومات

بيروت الحمراء نزلة السارولا
هاتف: ٠١/٣٥٠٠٨٠ـ ٠١/٧٤٣٦٠١
ص.ب. ٨٢٨ / ١٣٥ بيروت لبنان

e.mail: maaloumat@arabdocuments.info

لشراء النسخة الالكترونية:
www.arabicebook.com

Issn: 1993-8084

المحتويات

○ تقديم: عن المدينة التي تختزل مدناً وعوالم وعصوراً:
بيروت ٢٠٠٧ التي تتغيّر ولا تبدل تبديلا .... هنادي سلمان ٧

الترتيب الزمني للوثائق والأحداث

☐ بيروت من البحر خلابة ١١
☐ سور مدينة بيروت ١٣
☐ بيروت قلبها وعاطفتها كانا دوماً مع العروبة والعرب ١٦
☐ التاريخ السياسي والاقتصادي لولاية بيروت ١٨٨٧ ـ ١٩١٤ .... ١٩
☐ الحياة الثقافية في بيروت في العهد العثماني ٢٠
☐ بيروت في القرن التاسع عشر ٢٣
☐ البيت البيروتي انطوى نحو داخله ٢٦
☐ بيروت وأسواقها التسعة ٢٨
☐ ترميم الوسط الديني في بيروت ٣٢
☐ منارة بيروت وقفت ١٥٠ عاماً في وجه البحر ٣٤
☐ رحلة في ذاكرة بيروت
السمكة الأولى تشدّ الصياد فيدمن ٣٥
☐ ثلاثينيات بيروت في ذاكرة عماد الصلح
ترامويات وسينما واضرابات ٣٧
☐ رحلة مع مصطفى كريدية في عالم بيروت الماضي ٤٢
☐ القبضايات وجه ظريف من الماضي ٤٤
☐ بيروت تضيق بناسها ٤٥
☐ الحانات والخانات في بيروت
مقاهي المدينة مصاطب القرية ٤٧
☐ مطعم «فيصل» المقهى السياسي ـ الفكري بامتياز ٥٥
☐ «المودكا»: غواصة تغرق في ذاكرة الحمراء ٥٧
☐ الويمبي ٥٧
☐ فندق «سان جورج» في بيروت أثر فني مهدد بالإعدام ٥٨
☐ «قهوة القزاز» ـ الجميزة في استعادة لأيام زمان ٥٩

- التياترو الكبير.. من أعرق المسارح إلى أحدث المطاعم ٦٠
- قصر الأونيسكو ذاكرتنا الثقافية ..
  هنا وقف طه حسين وأم كلثوم وأقيم أول معرض كتاب ٦١
- طريق جديدة شقت الرمل ورأت كل شيء.. .... ٦٣
- صحافة بيروت ومطابعها في ظل القوانين العثمانية ٦٧
- معرض بيروت العربي الدولي للكتاب: أبو المعارض العربية ٦٩
- شهداء الصحافة اللبنانية ٧٠
- بيروت مدرسة الثقافة العربية ٧٢
- نزار قباني: بيروت حرية لا تشيخ.. .... ٧٥
- محمود درويش:
  أحب بيروت وأرى فيها ما أريد ٧٧
- وجه في وجوه عديدة
  سيرة ذاتية لمثقف لبناني ٧٨
- المسرح بين التجريبية والكلاسيكية والحداثة ٨١
- لبنان يستعيد جانباً من دوره الثقافي والفني المميز في عام التحرير ٨٣
- ساحات بيروت ٨٧

الدراسات

- بيروت في الأسطورة والتاريخ .... رجا حوراني ٩٣
- المدينة ذات السّاحتين .... جاد تابت ١٠٢
- مثيلة روما بعد سقوط القسطنطينية
  المثقفون العرب ومدينة بيروت .... صقر أبو فخر ١٠٩
- من عصر الذهب إلى عصر الرصاص
  المدينة الوسيطة .... سمير قصير ١١٣
- شارع بيروت الوطني
  ودولة المشاركة والمساءلة والدور القومي .... منح الصلح ١١٦
- ثلاثون عاماً من الصحافة: الثابت والمتحوّل .... طلال سلمان ١٢١

تقديم

عن المدينة التي تختزل مدناً وعوالم وعصوراً: بيروت ٢٠٠٧ التي تتغيّر ولا تبدل تبديلا

هي بيروت. الأميرة، الشعة من الخليج إلى المحيط. مأوى المنفيين، مفكرين وكتاباً وشعراء وفنانين. مشرعة أبوابها على البحر ونسمات الفكر والاختلاط والاختلاف. بيروت الثابت والمتغير، العراقة وما بعد الحداثة.

تودع أبناءها ولا تنضب، تستقبل زوارها ولا تضيق.

موضع اعتزاز المنتمين إليها بالنسب أو بالنشأة أو بطلب الانتساب. مقصد الأغنياء الطامحين إلى الثروة أو إلى الرخاء، ومأوى الفقراء أيضاً هي. ملاذ الساعين وراء القُوت، كما الساعون إلى الحرية؛ الساعين إلى البروز فيها حتى يلامسوا حدود السماء كما الساعون إلى الذوبان فيها حد الاختفاء.

وبيروت أكبر من اسمها وحجمها، بيروت فكرة وواقع. بيروت نابضة ومستكينة، عاقلة ومجنونة، أرض للثبات وللتجريب، محافظة وليبرالية، شيوعية ورأسمالية، باهتة وصاخبة، فقيرة وثرية، متمردة ومتدينة، جميلة وقبيحة، محسنة وقاسية.

ليس مثل بيروت شيء. وبعض بيروت هو نقيض بعضها الآخر. وهي كما هي، لا تشبه سوى نفسها. لا تتغير ولا تستكين على حال.

حاضنة الفقراء هي، أهل الأرياف. أهل القرى وأياديهم الشققة، مدرسة أبنائهم وجامعتهم، مستشفى لبنان، ومكتبته، مطبعته ومقهاه، فرصة العمل والارتقاء، صحيفة الوطن وسوقه.

صحيفة العرب، وسوقهم. مقصدهم بحثاً عن فسحة من الحرية. منفى طوعي، جنة المتع والأفكار، موضع حسدهم وحبيبتهم في آن.

عربية في الخمسينيات، وبيروت الخمسينيات متحالفة مع الغرب. بيروت مقر المعارضين العرب في الستينيات، ومقر كل جواسيس الأرض في آن. بيروت كرة نار في السبعينيات، وقبلة الراغبين في التغيير من سائر الدول العربية. بيروت الفلسطينية في السبعينيات، والانعزالية أيضاً. بيروت المقاومة في الثمانينيات تحترق ولا ترفع الأعلام البيضاء، وبيروت الثمانينيات تتعامل مع إسرائيل. بيروت السورية في التسعينيات، وبيروت الألفين ترفض الوجود السوري.

بيروت المدينة التي تطحن الوافد الفقير، وبيروت الرحيمة التي تحتضن أحلام الوافد الفقير وتصنع غده.

بيروت الرأسمالية تنثر الورد على جنازة الأمين العام السابق للحزب الشيوعي جورج حاوي، وبيروت المقاومة تضيق بحلفائها من الجيش الأحمر والثوار الأكراد.

بيروت التي لا تتورع عن شيء وليس من يجرؤ على محاسبتها.

لكن هل منا من يعرف بيروت فعلاً؟

تلك المدينة الساحلية التي تحولت في عقود من تلال رملية وبساتين حمضيات إلى المدينة التي تختزل مدناً وعوالم وعصوراً، من يسكنها؟

تلك التي كانت أكبر من كل من فيها وأكثر اتساعاً من حدودها، كيف بات هناك اليوم من يطالبها بالانغلاق على نفسها والانزواء كالمكسورة؟

من ذا الذي يسعى إلى حجب النور عن مدينة الضياء؟

كيف يمكن تحويل المهرة الجامحة إلى كتلة جليد؟

كيف يمكن تفتيت هذه المدينة العالم، وصبغها بلون واحد وهي المهرجان الدائم للعقائد والافكار وإقفالها على الذين أعطوها نور العيون وعرق الجباه؟

قلب لبنان هي، رئة العرب ونافذتهم. من ذا الذي يعمل على تقطيع الأوردة؟

بيروت تبدو كمن يعيش أزمة مع ذاتها، ويعيش أهلها أزمة مع محاولات تشويهها، إما بادعاء ملكيتها حصراً وإما بتحويلها إلى شارع سائب...

بيروت ٢٠٠٧ تكاد تنكر نفسها، تكافح لاستنقاذ روحها من حروب الغرائز والعواطف وتشوهات التطرف والانحياز.

هنادي سلمان

الترتيب الزمني للوثائق والأحداث

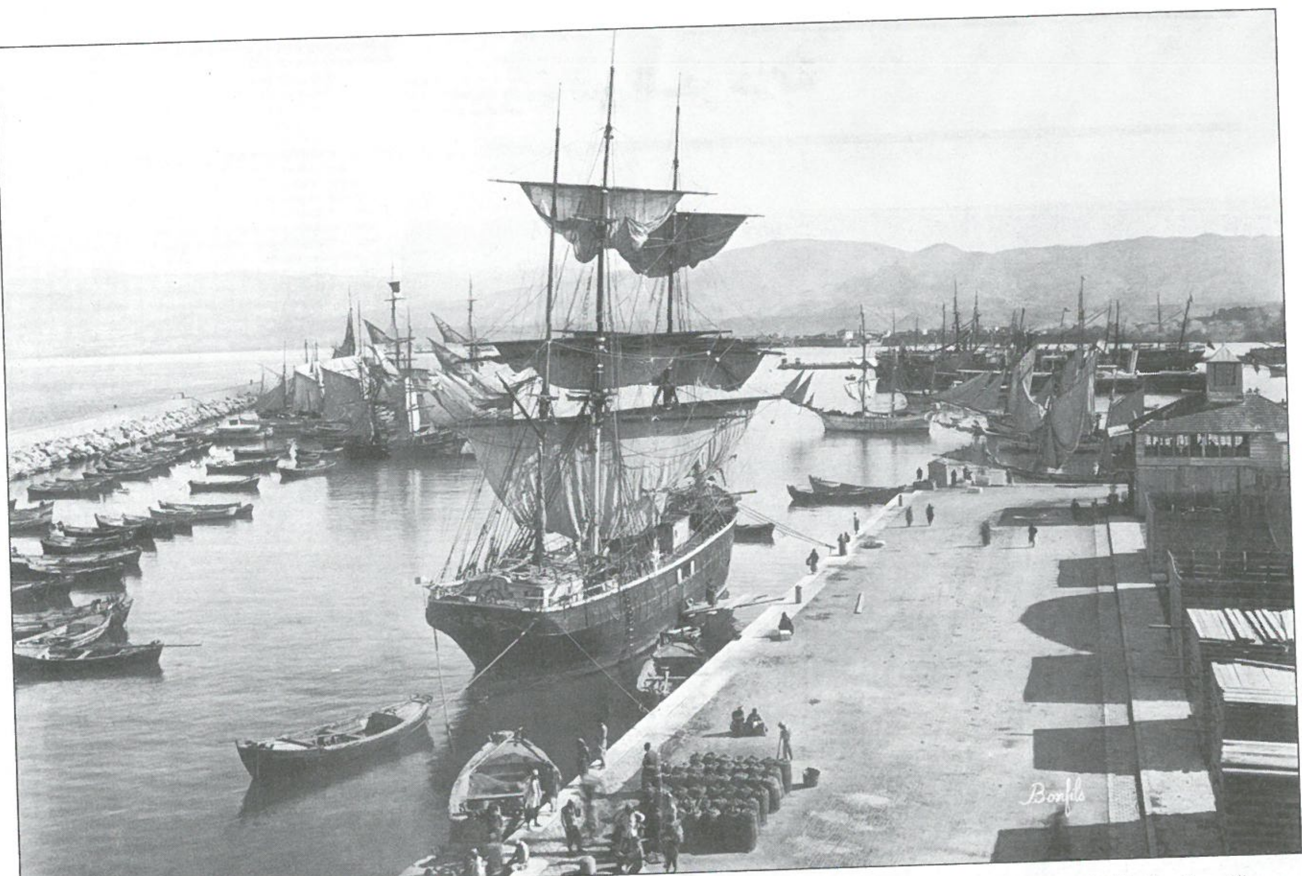
بيروت من البحر خلابة



عين المريسة والنورماندي في الستينات.

بيروت، المدينة الواقعة على الشاطئ الشرقي من المتوسط، والتي عرفت منذ أقدم العصور باسم «Beryte» جزءٌ هام من هذا الشرق الذي حظي عبر العصور باهتمام الرحالة الأوروبيين بعامة- وبخاصة الفرنسيون منهم- إذ جذبهم سحره سعياً وراء أهداف متنوعة: دينية، وأدبية، وجمالية، وثقافية، وتجارية، وسياسية. يقول هنري بوردو: «إن رائد الحشد الكبير من الرحالة حجّاجاً، وعسكريين، وتجاراً، وعلماء آثار، أم كتاباً كباراً وشعراء أم هواة هو سائح مجهول الاسم من مدينة بوردو الفرنسية، عبر أوروبا وآسيا عام ٣٣٣ وصولاً إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة»، وترك كتيّباً بعنوان **رحلة من بوردو إلى أورشليم** دليلاً يذكر فيه مراحل ومحطات لرحلته، كتيباً نشر سنة ١٥٨٩ فساهم في ترويج فكرة زيارة الأماكن المقدسة التي هي في أساس كل ما نشر من نصوص وروايات وذكريات وانطباعات ومشاهدات حول الشرق.

وفي القرن الثاني عشر يستوقفنا الرحالة الإسباني بنجامان دو توديل، صاحب كتاب *Itinerarium*. وفي نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر تدفق الرحالة إلى بيروت، منهم على المثال: Sylvertre de St Aignan, Jean de la Roque, le Chevalier Laurent d'arvieux، Paul Lucas, Henri Maundrell, Richard Pocoeke وكلهم ضمّنوا مشاهداتهم ملاحظات قيمة حول نمط الحياة في بلادنا. وهنا نذكر الدور المهم لوزير الخزانة الفرنسية Colbert في القرن السابع عشر، وخدمة لطموحاته التجارية والاقتصادية في الشرق تشجع الرحالة على المجيء إليه، كما ساهم بأموال الخزينة في نشر انطباعاتهم حوله، وكذلك عمل على تعيين ممثلين دبلوماسيين دائمين لبلاده في الشرق. وأول سفير علامة منهم دوّن ونشر انطباعاته كان Marquis de Nointel . وعني Colbert بتعليم اللغة العربية في الكوليج دو فرانس، وأرسل طلاباً فرنسيين إلى الشرق لتعلم اللغة العربية وإتقانها منهم Petit de la Croix، Antoine Gallaud الذي ترجم إلى الفرنسية ابتداء من ١٧٠٤ كتاب **ألف ليلة وليلة**. وكان لنشر هذا الكتاب أكبر الأثر بإضافته سحر الشرق على المجتمع الفرنسي. كما ساهم فولني (Volney) في القرن الثامن عشر بمؤلفه رحلة



بيروت القديمة منطقة الميناء عام ١٨٨٠.

إلى مصر وسوريا في تزايد الاستشراق.

ونأتي إلى القرن التاسع عشر، إذ عرفت بيروت خلال هذا القرن حشداً لا مثيل له من الرحالة، أحصيت منهم مئة وخمسين رحالة فرنسيين عدا الرحالة الروس، والألمان، والإنكليز، والإيطاليين وآخرين تهافتوا عبر بيروت إلى الشرق «وطن الآلهة والشمس والجمال»، **أوليست بيروت نقطة الاتصال بين آسيا وأوروبا صلة الوصل بين الشرق والغرب؟**

مئة وخمسون ممن دونوا ونشروا مشاهدات زخرت طياتها بالكثير الكثير عن بيروت الماضي البعيد، تلك الغارقة في القدم، والتي ما زالت تبعث تساؤلات المؤرخين وعلماء الآثار. وبيروت القرن التاسع عشر التي عرفوها خلال رحلاتهم خصوصاً بأجمل الصفحات حيث تتقارب وتتقاطع معلومات جغرافية واثنية وانتروبولوجية وتاريخية واجتماعية. ولا عجب في ذلك، فأدب الرحلات كما يعرف به بول هازار: «نوع أدبي غير محدد المعالم طيع سهل يتسع لمختلف الموضوعات». وهكذا جاءت مشاهداتهم كأهم مرجع للتعرف إلى بيروت في تلك الحقبة..

أول ما استوقف الرحالة موقع بيروت وجمال ضواحيها، فأخذوا في تصويرها، حيث لا يمكن الفصل بين بيروت وجبل لبنان، لأن من قصد الجبل في رحلة إلى الشرق لا بد من أن يرى بيروت، ومن مر في بيروت إلى الشرق لا شك أنه رأى الجبل. **فبيروت والجبل متلاصقان متلاحمان طبيعة ومصالح، وإن افترقا إدارياً إلى حين. لذا بدت بيروت للقادم إليها من البحر لوحة رائعة في إطار بانورامي ساحر يشمل مدارج نضرة ضاحكة وقرى مشرورة على مدى سفوح تكلل الثلوج الناصعة هامات جبالها الشوامخ..**

(تريز الدويهي حاتم، «النهار»، ٢٦/١/١٩٩٤)

سور مدينة بيروت



بيروت القديمة .. ميناء الصيد عام ١٨٨٠.

في داخل نطاق السور كانت المدينة المربعة أو بيروت القديمة، أما خارج السور فكانت البرية التي لم تعرف العمران إلا بعد أن كاد ينتصف القرن الماضي، أما قبل ذلك فإن هذه البرية كانت المكان المفضل لاستراحة الموتى من عناء الحياة. ففي الجهة الشرقية باتجاه الشمال كانت تتناثر مقابر المسلمين.

١ ـ **مقبرة باب المصلى:** قريباً من سوق سرسق اليوم (في مكانه كانت سراي الأمير منصور عساف التركماني).

٢ ـ **مقبرة الغرباء:** مكان سوق الخضار بالجملة وبناية بيبلوس الحالية.

٣ ـ **مقبرة المغاربة:** مكان سينما ريفولي الحالية (ملك جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت).

٤ ـ **مقبرة السنطية:** كانت لا تزال موجودة في مكانها المعروف على سيف البحر قبل أن تدرسها قذائف الحرب الأهلية عام ١٩٧٦.

٥ ـ **مقبرة الباشورة:** ما زالت في مكانها بين البسطة التحتا وساحة رياض الصلح (ساحة السور سابقاً).

وفي أقصى المدينة كانت تقوم مقابر النصارى على اختلاف مللهم ونحلهم، وما زالت في المحلة المعروفة برأس النبع، ومعها مقبرة اليهود، كما أن للنصارى أيضاً مقابر اللاتين الموجودة منذ تلك الأيام في محلة ميناء الحصن..

وإن منطقة البرية التي نتحدث عنها كانت الميدان الذي يستريح في رحابه القادمون إلى بيروت قبل أن يؤذن لهم بدخول المدينة. وكانت فيها بعض الخانات المعدة لاستقبالهم. وهذه الخانات كانت تقوم مقام فنادق هذا العصر وتزيد على هذه الفنادق بأنها كانت تأوي مع بني آدم ركوبهم من الجياد والجمال والحمير والبغال.

ويبدو أن هذا السور رافق المدينة منذ تأسيسها على رأي بعض المؤرخين الذي يرجعون به إلى عهد الكنعانيين والحثيين، ويقولون بأن ارتفاعه كان في ذلك العهد ٥ أمتار وإن سماكته ٤ أمتار ويؤكد هؤلاء قولهم هذا بأن الحفريات التي تناولت ساحة السور أثناء تخطيط الشوارع المحيطة بها كشفت عن بقايا هذا السور الكنعاني ـ الحلي التي جعلتها التطورات الجيولوجية تغيب تحت سطح الأرض.

السور الكنعاني كما وصفه شفيق طبارة: ولا يوجد في الوقت الحاضر أي مرجع جدي يصور لنا هذا السور أو يصفه إلا أن الأستاذ شفيق طبارة قدم لنا في هذا الصدد صورة قلمية حددت معالمه وطرازه الهندسي، وعلى الرغم من أنه لم يوثق كلامه بأي مرجع

فإننا ننقل هذا الكلام هنا على عهدة صاحبه، قال رحمه اللـه: «كان سور بيروت، على شكل هندسي أتبعه الكنعانيون والحثيون في بناء الاسوار حول مدنهم. ويختلف عما ألفه المصريون القدماء، إذ كان يعلوه أبراج متقاربة واجهاتها من الحجر، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن عهده يعود إلى عهد الكنعانيين والحثيين. وكانت جدرانه عالية وسميكة وخالية من الثقوب والفجوات، ويبلغ ارتفاعها نحو خمسة أمتار، وهو ارتفاع كاف لحماية البلد والحامية من تسلق أسوار المدينة، فقد كان كل ما يملك الأعداء المغيرون يومئذ من الوسائل للاستيلاء على البلد هو حصارها أو فتح أبوابها أو تسلق أسوارها أو نقب جدران هذه الأسوار لكي تحرق أو تهدم. وأصبح من المقرر لدى الباحثين أن سمك جدران سور بيروت كان يناهز أربعة أمتار عند القاعدة ثم يقل ارتفاع الجدران حتى تنقص إلى ثلاثة أمتار. وقد لجأ الأقدمون، لحماية قواعد هذه الجدران من النبش أو الهدم إلى إقامة أبراج فوق السور يلجأ إليها جنود الحامية ومنها كانوا يصبون قذائفهم على المقتحمين...»..

في العهدين الروماني والبيزنطي: ليس لدينا أي نبأ عن السور في العهد الروماني لبيروت، لان الرومان كانوا، على ما يظهر، منصرفين إلى إنشاء المؤسسات العامة وبناء الساحات والملاعب والمعابد الضخمة، فلم يلتفتوا إلى المنشآت العسكرية من قلاع وأبراج وحصون وأسوار. وفي جميع المراجع التي تتحدث عن بيروت الرومانية لم ترد إشارة إلى أنهم أقاموا في هذه المدينة أبنية تحمل الطابع العسكري..

في العهد العربي الاول: عندما انسحب الروم (البيزنطيون) من بيروت أمام الموجة العربية الدافقة بقيت نفوسهم تتلهف للعودة إليها، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى أعادوا الكرة على ما بأيدي المسلمين من السواحل واستعادوها فعلاً. على أن عودة الروم إلى سابق ممتلكاتهم على سواحل الشام لم تطل، إذ وضع معاوية لها حداً نهائياً في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي اللـه عنه عندما قصد إليهم واستخلصها ثانية من أيديهم. ويقول البلاذري في **فتوح البلدان** عن هذه المساجلة بين الفريقين، العرب والروم: «ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل (بيروت وما حولها) في خلافة عثمان بن عفان، فقصد إليهم معاوية حتى فتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة».

ونستطيع أن نفهم من كلمة: «رمها» التي استعملها البلاذري أن معاوية قد حصن المدن التي استعادها من الأعداء، وبيروت بطبيعة الحال من جملتها، وانه جعل في حصونها جنداً محترفاً يقيمون فيها بصورة دائمة، ليس لهم من عمل إلا الدفاع عنها ضد من تحدثه نفسه بالعدوان عليها، وأعطاهم القطائع مكافأة لهم وتشجيعاً.

إذن، فإن بيروت كان لها في عهدها العربي الأول سور، وكان المسلمون يتقربون إلى اللـه بالمرابطة فيها، هذا ما جعل مؤرخي ذلك العصر يطلقون عليها لقب «مرابط أهل الشام»..

وعلى الرغم من أن بيروت لم تلعب في العهد العربي من تاريخها دوراً بارزاً في تقرير مصير بلاد الشام، إلا أنها بقيت على الدوام ثغر دمشق وفرضتها، وإليها يفزع المجاهدون لدرء الخطر الخارجي الذي يستهدفهم قبل استفحاله وثبات أقدامه في ترابهم. وفي ذلك يقول ابن حوقل في كتابه **صورة الأرض**: «مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم.. بها يرابط أهل دمشق وسائر جندها وينفرون إليها عند استنفارهم.. وبيروت هذه..حصينة خصيبة متينة السور...».

كان هذا حال السور في بيروت زمن ابن حوقل وهو من أبناء القرن العاشر للميلاد أي في حوالى نهاية القرن الثالث للهجرة أو أوائل القرن الرابع. وليس من شك في أن سور بيروت يومئذ كان على حالته التي كانت في عهد حاكمها من قبل ماجور التركي سنة ٢٥٧ (٨٧٢م) الأمير النعمان بن عامر الارسلاني الذي «بنى فيها داراً عظيمة وحصن سور المدينة وقلعتها ثم حارب مردة لبنان فجرى بينه وبينهم قتال عظيم على نهر بيروت سنة ٨٧٥، في خلافة المتوكل العباسي».

ونحن لا نستطيع أن نطيل الكلام عن سور بيروت في الفترة التي سبقت دخولها في حوزة الصليبيين لان هذه الفترة التي عاشتها المدينة تميزت بالاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الاوضاع السياسية التي كانت تهيمن على حكامها العبيديين، لذلك نكتفي بالإشارة إلى قول المقدسي المؤرخ في وصفها «مدينة محصنة عتيقة السور».

سور بيروت في عهدها الصليبي: عندما طما سيل الصليبيين باتجاه بلاد المشرق العربي في أوائل القرن السادس الهجري وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، قصد بغدوين بيروت ليفتحها بعد أن تملك القدس الشريف سنة ٤٧٥ (١١٠٢م) إلا أنها امتنعت عليه وتحصن أهلها داخل أسوارهم حتى ألجأوا القائد الصليبي للرحيل عن البلد يائساً من أخذها.

إلا أن بغدوين أعاد الكرة على المدينة في سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) مع الكونت برتران دي صنجيل ونزل على ثغرها براً وبحراً وعاونهما جوسلين صاحب تل باشر فعملوا أولاً برجاً من الخشب من صنوبر بيروت. ونصبوه على سور المدينة فكسره المسلمون بحجارة المنجنيق.. فأرسل الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من أهل جنوا فأمده هؤلاء بأربعين مركباً مشحونة بالمحاربين، فزحف الجميع على بيروت في نيسان سنة ١١١٠ ميلادية ونصبوا الأبراج على أسوار المدينة التي سقطت تحت وطأة هذا الزحف الهائل يوم الجمعة في ٢٨ من شوال سنة ٥٠٣ هجرية فأعمل الصليبيون السيف في أهلها من الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا منها أمثولة روعت باقي المدن فاستسلمت إلى قواتها حتى لا يكون حظها من هذه القوات حظ بيروت المنكودة..

وصف السور كما بناه الصليبيون: في سنة ١٢١٢ كانت بيروت ما تزال رهينة الاحتلال الصليبي، وقد مر بها في هذه الأثناء أحد الرحالة الالمان وهو السائح ولبريد اولدنبرغ، فكتب يصفها. وبصورة خاصة سورها الذي بناه حاكمها جان ديبلين بعد أن كان صلاح الدين أمر بهدمه حتى لا يستفيد منه الصليبيون إذا عادوا إليها. قال أولدنبرغ المذكور:

«**يمنع البحر ثغر بيروت من جهتها السفلى مع ما هنالك من الصخور العالية. وتحميها من الجهة الأخرى خنادق مبلطة تحت حراسة سورين متينين فيهما عدة أبراج غاية في الشدة** تبطل كل ضربات العدو. وكانت هذه الاستحكامات استوجبت أشغالاً طويلة ولاسيما أن نقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والاتقان».

ولقد وصل إلينا وصف بيروت على لسان الشريف الادريسي في كتابه المعروف **نزهة المشتاق في أخبار الآفاق** بقوله: «إن عليها (أي بيروت) سوراً من حجارة كبيرة واسعة» وكان ذلك حينما زارها سنة ١١٨٠م وهي إمارة صليبية.

في عهد صلاح الدين الأيوبي: لم يطل عهد الحرية ببيروت إلا المدة التي عاشها السلطان صلاح الدين الأيوبي، فلما انتقل إلى جوار ربه بدمشق سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤م) وانتقل الملك إلى أولاده، استغل الصليبيون ما ثار بين هؤلاء الاولاد من خلاف على السلطة وهاجموا المدينة ثم دخلوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة كما يقول ابن الاثير في كتابه **الكامل في التاريخ** عن حوادث سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧م). على أن بيروت شهدت دخول صلاح الدين ولها سور تعلوه أبراج وحصون، ثم عادت فشهدت رجوع الصليبيين إليها وهي غير ذات سور ولا أبراج ولا حصون..

تدمير الحصون والقلاع: في دخول صلاح الدين إلى بيروت وما حصل من الصليبيين فيها أثناء ذلك يقول ابن الاثير «.. وأما بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها، فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد، وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه. وزحف إليهم المسلمون المرة بعد المرة، فبينما الفرنج يقاتلون، إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة، فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة (٥٨٣هـ)».

في العهد الثاني للصليبيين في بيروت: على أن سور بيروت الصليبي لم يلبث أن قام مكانه سورها الإسلامي الذي لم تكد تجف لحمة لبناته وحجارته حتى نقضه من جديد «جمع من العسكر بقيادة الملك العادل في أيلول ١١٩٧م حتى لا يفيد منه العدو، الذي قدر له أن يستعيد المدينة بواسطة الجيش الألماني بقيادة الملك أموري في نفس تلك السنة الموافقة لسنة ٥٩٣ هجرية.

وأن الملك أموري لم يشأ أن يتفرد بحكم جميع المناطق التي استرجعها من المسلمين فراح يوزع المدن التي تهاوت تحت ضرباته القاتلة بين أفراد عائلته لاسيما أولئك الذين يمتون إلى زوجة أحد أمرائه المدعو كونراد ده مونترات التي كانت تدعى ايزابيلا. وهكذا كانت بيروت من نصيب شقيق هذه المرأة وهو جان ديبلين الذي سبقت الإشارة إليه عند إيراد وصف الرحالة أولدنبرغ لسور بيروت سنة ١٢١٢.

إن جان ديبلين هذا، كان أول ما بادر إليه بعد توليه الحكم، تحصين المدينة وإقامة سورها ودعمه بالابراج، حتى يجعل من مملكته الصغيرة أحرز مدن الشام وأمنعها في وجه العدو».

وبالفعل، فإن الصليبيين أفادوا من مناعة سور ديبلين وتحملوا كثيراً من هجمات المسلمين عليها بفضل قوته وإحكام حصونه وأبراجه، ولقد بقي هذا السور حجر عثرة وعقبة كأداء في وجه المسلمين إلى أن تمكن هؤلاء من تحديه واقتحامه إلى صميم المدينة التي استقبلتهم كفاتحين ومحررين على عهد الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي الذي تسلم المدينة على يد أحد قواده العظام، علم الدين سنجر الشجاعي سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م وكان أول شيء فعله هذا القائد المنتصر هو نقض سور المدينة ودك قلعتها الحصينة.

السور في أيام المماليك: في سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) قدمت جيوش المسلمين إلى بيروت تحت رايات النصر التي كانت تظللها في كل معركة خاضتها ضد الصليبيين، ولم تلبث أن دخلتها بقيادة سنجر الشجاعي الذي بادر إلى هدم سورها وقلعتها وجعلهما في مستوى الارض ليقطع أمل العدو في الرجوع إليهما والتحكم من جديد في الثغر الذي تحكموا به سابقاً ما يقارب المئتين من السنين وجعلوا فيه أعزة أهله أذلة، وقد كان السور الصليبي عظيماً فأحالته معاول المسلمين زميماً.

لقد تخلى الصليبيون عن بيروت مرغمين غير مختارين وذلك بعد أن ظهر عليهم المماليك بقوة السلاح، فكان من الطبيعي أن تساورهم نفوسهم بالعودة إليها كلما آنسوا في عدوهم غرة أو ضعفاً..

قال صاحب **تاريخ بيروت** نقلاً عن النويري في **تاريخه**: «في العشر الأخير من شعبان سنة ٦٩٨ هـ (آب سنة ١٢٩٩م) وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبطس للإفرنج، فيها جماعة من المقاتلين يقال إن عددها كان يبلغ ثلاثين بطسة (المركب الحربي) في كل بطسة منها نحو سبعماية مقاتل، وقصدوا أن ينطلقوا من مراكبهم إلى البر ويشنوا الغارة على بلاد الساحل (ساحل بيروت). فلما قربوا البر أرسل اللـه عليهم ريحاً شديدة، فغرقت بعض السفن وتكسر بعضها. ورجع من سلم منهم على أسوأ حال، وكفى اللـه المسلمين شرهم».

(الشيخ طه الولي، «الديار»، ١٩٩٥/٥/٣٠)

بيروت قلبها وعاطفتها كانا دوماً مع العروبة والعرب

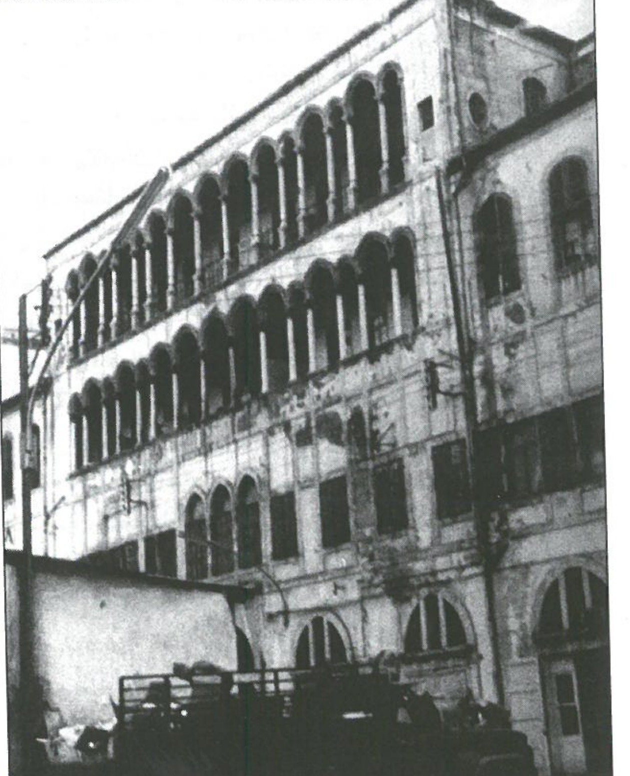
..يبدو أن الغرب الصليبي أزعجته هوية بيروت وبيت المقدس وسائر المدن العربية، فحاول زعزعة هذه الهوية وإزالة معالمها، فشهدت بيروت الصراع بينه وبين الشرق العربي، كما شهدت إقامة مملكة صليبية فوق أرضها. وحاول الصليبيون منذ بداية الاحتلال الذي استمر من سنة ١١١٠ إلى سنة ١٢٩١م نزع الطابع العربي عن بيروت، لكن اللغة العربية لغة القرآن الكريم كانت عقبة كبيرة حالت دون التمازج الاجتماعي والثقافي بين البيروتي العربي والأوروبي الصليبي.

وقد استطاع الناصر صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في حطين أن يسترد بيروت لمدة عشر سنوات من سنة ١١٨٧ إلى سنة ١١٩٧م، ويغرس فيها وفي سائر المدن بذور الوحدة العربية بعدما جمع شمل مصر وسوريا، فكسبت العروبة عاصمة جديدة لها هي القاهرة بعد دمشق بغداد، وتجلت الوحدة العربية بأحلى صورها لتنزل الهزيمة بالمستعمر الأوروبي المتستر وراء الصليب، فمهد بذلك الطريق لتطهير بيروت نهائياً من الصليبيين مع سقوط مملكة بيت القدس سنة ١٢٩١م.

وانتهت الخلافة العربية فعلياً أمام الغزو المغولي الذي أسقط بغداد سنة ١٢٥٨م، وبقيت هذه الخلافة نظرياً وبصورة مزيفة في ظل حكم المماليك الذي عاشته بيروت بين ١٢٩١ و١٥١٦م والذي تميز بخليفة عباسي عربي بالاسم فقط، ومع الأتراك العثمانيين بين ١٥١٦ و١٩١٨م حين تحولت الخلافة العربية إلى خلافة عثمانية لم يعهد العرب مثلها من قبل، ونامت العروبة في سبات عميق بعدما سلبها الأتراك حقها في الخلافة. وعلى رغم حكم المماليك ثم الأتراك العثمانيين، وهم جميعاً من غير العرب، ودون أن ننكر دورهم في إعلاء راية الإسلام، فإن الأحداث المتعاقبة لم تستطع أن تسحق هوية بيروت العربية، هذه الهوية التي جعلتها منفتحة على محيطها الكبير فهي المحور والمركز والعاصمة. وقد شهدت خلال القرون الأربعة من حكم الأتراك العثمانيين أحداثاً تاريخية ترتبط جميعها بالقومية العربية التي ظهرت بشكل أو بآخر للتخلص من الحكم التركي غير العربي.

أحداث مميزة عرفتها بيروت

الحدث الأول: زمن الأمير فخر الدين المعني الثاني العربي، الذي جعل بيروت عاصمة له سنة ١٦٣٢م، فعرفت عصرها الذهبي يزينها قصره الكبير في منطقة البرج التي لا تزال تعرف بهذا الاسم منذ أن بنى فخر الدين برج الكشاف الشهير لمراقبة السفن الآتية من البحر. وكان قصره أشبه بقصر روماني يحتوي على حديقة الوحوش وحديقة البرتقال وحمام خاص به. أما غابة الصنوبر في ضاحية بيروت جنوباً، فقد جدد فخر الدين زرعها



خان انطون بك

لتقي المدينة من تيار الرمل. ولكن حركة الأمير فخر الدين لإقامة دولة عربية تشمل أجزاء من سوريا ولبنان وفلسطين والاردن بمفهومنا الحاضر، ومستقلة عن الدولة العثمانية، منيت بالفشل بعد هزيمته سنة ١٦٣٣م، وكانت الدولة العثمانية في عز قوتها وجبروتها، ومن هنا أهمية هذه الحركة التحررية العربية والتي سبقت الحركات القومية التي عرفتها أوروبا بحوالى قرنين من الزمان.

الحدث الثاني: عاشته بيروت في ظل وحدة عربية استمرت عشر سنوات من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٤٠م، عهد والي مصر محمد علي باشا الذي كان يحلم بإقامة دولة كبرى منفصلة عن الدولة العثمانية. ورغم أنه لم يكن عربياً، لكنه فهم جيداً الطبقة السياسية داخل مصر وخارجها أي في محيطها العربي، فاستغل العنصر العربي في سبيل تحقيق مآربه السياسية. وما يهمنا أن مجرد تحرك الفكرة العربية جعل ابنه ابراهيم باشا يضم سوريا إلى مصر، كما فعل صلاح الدين الأيوبي، ويدخل بيروت من باب الدركاه نحو السرايا القديمة (التي بناها فخر الدين) في موكب فخم تظلله أقواس النصر ومعالم الزينة

سنة ١٨٣١م. كما أن هذه الفكرة العربية كانت وحدها كافية للقضاء على الدولة العثمانية بعد أن جمعت مصر والسودان وفلسطين وسوريا وهددت الآستانة في عقر دارها لولا تدخل الدول الأوروبية بزعامة إنكلترا التي قادت التحالف الأوروبي العثماني ضد الوحدة العربية، وتعرضت بيروت سنة ١٨٤٠م لقصف الأسطول الإنكليزي الذي هدم سورها ودمر أحسن الأبنية القائمة على أطرافها.

أما الحدث الثالث، فيتمثل بولادة مدينة بيروت الحديثة التي أخذت تمتد خارج السور المتهدم سنة ١٨٤٠م. فشرعت أبوابها لتضم أحياء جديدة كانت بالأمس ضواحي لها مثل زقاق البلاط والباشوراء وحوض الولاية والمصيطبة وبرج أبي حيدر والبسطة ورأس النبع ومارمتر والأشرفية والمدور. أما الاحياء التي عمرت على بعد كيلومتر أو أكثر فاعتبرت الضواحي الجديدة لبيروت. واتسعت بيروت لتشمل منطقة الزيتونة ثم ميناء الحصن وعين المريسة والقنطاري وحاووز الساعاتية وهي الصنائع وغيرها. وخرج البيروتيون ليقيموا في هذه الاحياء الجديدة ولتتحول بيروت القديمة إلى مركز تجاري يستمد أهميته من الرفا والأسواق والخانات.

أسواق بيروت وخاناتها: كانت أسواق بيروت، كجميع أسواق مدن الشرق صغيرة ومتداخلة تتجمع كل منها حسب التجارة أو المهنة مثل سوق القزاز وسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق النحاسين وسوق المنجدين وسوق النرابيج وسوق الصرامي وسوق الجوهرجية وسوق الخياطين وسوق القطايف وسوق اللحامين وسوق الخضرة وسوق البازركان وسوق الفشخة وسوق الفرنج. أما الأسواق التي تهتم ببيع الأقمشة والملابس فحملت أسماء عائلات بعض التجار مثل سوق اياس وسوق الطويلة وسوق سرسق وسوق الجميل.

أما الخانات وتعني الفنادق للتجار والمسافرين مثل خان فخري بك وخان النورية وخان البربير وخان السيد وخان البيض وخان حمزة **وأشهرها جميعاً خان انطون بك** الذي بنى سنة ١٨٦٠م.

وتحول كثير من الخانات إلى دور للسينما فكانت الأمبير مكان خان العريس والروكسي مكان خان أبو علي واشتهرت سينما رويال التي هدمت سنة ١٩٥٠.

وأما الفنادق السياحية فقد انتشرت في منطقة الزيتونة المطلة على البحر. فكانت لوكاندة أنطونيو بيانكي سنة ١٨٤٣م وأوتيل أوروبا سنة ١٨٤٩م.(نزل فيه الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير) وأوتيل بول وأوتيل كونتيننتال الذي تحول مع الزمن إلى أوتيل نورماندي وعرفت المنطقة التي يقع فيها باسمه. وأوتيل فيكتوريا الكبير.

وأصبحت منطقة الفنادق مقصداً للسواح والأهالي لكثرة ما فيها من الفنادق والملاهي والمقاهي والحمامات البحرية، ففيها قصر الحمراء والبحري والحاج داود والبحرين إضافة إلى سينما الكورسال.

مقاهي بيروت ومسارحها: وبعد الحرب العالمية الأولى شيد الفرنسيون مبنى ضم مقهى كوكب الشرق وقد سقط هذا المقهى سنة ١٩٣٥، أما مسرح فاروق الذي احترق نهائياً بعد اندلاع الحرب سنة ١٩٧٥ فكان يعرف باسم المرصد. واشتهر أيضاً التياترو الكبير، ومقهى الفردوس الذي حوله الإنكليز إلى ناد لجنودهم ١٩٤٢، وقهوة القزاز.

وكان يوجد في بيروت عدة حمامات أشهرها الحمام الكبير وحمام السفير وحمام الدركاه وحمام زهرة سوريا الجديدة وحمام الزاهرية (يقع مكان مبنى البريد والبرق) وحمام البركة وحمام البسطة (مقابل الجامع) وحمام النزهة القديم في الباشوراء وقد افتتح ١٩٢٠م ثم انتقل إلى زقاق البلاط وأصبح يعرف بحمام النزهة الجديد والحمامات الشعبية هذه ليست ظاهرة بيروتية، بل هي ميزة مملوكية ـ تركية. وكان الحمام مخصصاً للرجال بعد الظهر ومساء وللنساء أثناء النهار. وكانت العروس البيروتية تقصد الحمام يوم زفافها كما تقام فيه حفلات الولادة (لاسيما إذا كان المولود ذكرا).

معالم جديدة في القرن التاسع عشر: وبنى الفرنسيون «المنارة» وعلوها ٣٨ متراً والطريق المعبد في بيروت ـ دمشق سنة ١٨٦٣م، ونفذت شركة إنكليزية مشروع مد أنابيب لجر مياه نهر الكلب إلى بيروت ١٨٧٥م، ومدت إحدى الشركات البلجيكية خط الترامواي الكهربائي سنة ١٨٩٨م وكان يمر من نهر بيروت إلى المنارة ومن فرن الشباك والبسطة إلى جهة البحر في حين بنى الأتراك السراي الكبير (١٨٥٣ ـ ١٨٦١) والسراي الصغير سنة ١٨٨٤م، وكانت قد تأسست بلدية بيروت من ١٨٦٧م. ثم المدرسة العسكرية (ثانوية حوض الولاية). وسنة ١٩٠٠ بني سبيل الحميدية في ساحة السور وافتتحت مخازن أوروزدي بك وسنة ١٩٠٦ تم بناء البنك العثماني بهندسة معمارية أوروبية وعرف فيما بعد باسم بنك سوريا ولبنان، وفي سنة ١٩٠٧ أنشئت مدرسة وحديقة الصنائع التي تتوسطها بركة ماء.

مساجد بيروت وزواياها: ونشط البيروتيون في بناء الجوامع والزوايا العديدة، إضافة إلى الجوامع والزوايا التي كانت موجودة لقرون خلت في بيروت القديمة وأشهرها الجامع العمري الكبير وجامع شمس الدين وجامع الأمير عساف وجامع النوفرة وجامع الدباغة وجامع المجيدية وجامع الحميدية وجامع الدركاه (هدم ١٩١٥) وجامع بوابة يعقوب، وجامع رجال الاربعين عند درج خان البيض والجامع المعلق في سوق النورية (وكان يصعد إليه على درج خلافاً لسائر جوامع بيروت وقد اندثر ١٩٢٢) وفي الأحياء الجديدة شيد جامع الباشوراء أو البسطة التحتا وجامع البسطة الفوقا وجامع زقاق البلاط وجامع رأس النبع ١٨٨٢، وجامع برج أبي حيدر وجامع المصيطبة ١٨٨٤م وجامع عين المريسة ١٨٨٨م وجامع الأشرفية ١٨٩٤م وجامع الحرج وجامع



الحرب ومنطقة الأسواق القديمة، وتبدو سينما الامبير.

القنطاري وجامع المنارة وجامع الصنائع وغيرها.

أما الزوايا (والزاوية تسمى أيضاً تكية) يجتمع فيها شيخ الزاوية للصلاة وتلاوة الذكر وتدريس الصبيان كما كانت ملجأ لأصحاب العاهات ومأوى لأبناء السبيل وأشهرها: زاوية الشيخ محمد العراقي، زاوية الحمراء.

ومع ذلك تمسكت بيروت بهويتها وهي تتطور بسرعة نحو بيروت الحديثة التي امتدت خارج أبوابها وسورها لتضم أحياء جديدة كانت بالأمس ضواحي لها. ومع ذلك لم يكن البيروتي منطوياً على ذاته ولا متزمتاً أو متعصباً، هويته لا تعرف الحدود الضيقة، فرغم الجوامع الكثيرة والزوايا المختلفة في هذه الأحياء الجديدة كما في بيروت القديمة التي تحولت إلى مركز تجاري، فقد شرعت بيروت هذه الأحياء لبناء الكنائس لتقرع فيها الأجراس مع صوت المؤذن «الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله».

وعندما زار الرحالة محمد بيرم التونسي بيروت سنة ١٨٨٠م أوضح الألفة والمحبة والتسامح بين البيروتيين الذين «وإن كانوا مقسمين مسلمين ونصارى لكنهم جميعاً في غاية الألفة بعضهم مع بعض، وعوائدهم جميعاً واحدة، حتى في محاسن أخلاقهم».

بيروت عاصمة لبنان الكبير: وفي ظل الانتداب الفرنسي، والوفاق الدولي بين فرنسا وإنكلترا، كان التحدي الفرنسي بإعلان دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠م وعاصمته بيروت. ورغم تكريم بيروت بهذا الموقع فإنها استجابت للتحدي ولم تقتنع بالانفصال عن عروبتها، عن تاريخها وتراثها، وحذت حذوها سائر المدن التي ضمت إلى هذه الدولة الجديدة لتطالب جميعاً وبأغلبية ساحقة بالوحدة مع سوريا بشكل خاص وبالوحدة العربية بشكل عام.

لكن الانتداب الفرنسي حاول القضاء على آمال الوحدة فغرس بذور الاختلاف الطائفي والمذهبي وشاركه الإنكليزي ثم الأميركي هذا الأمر خلال الأحداث التي شهدتها بيروت والمنطقة التي تحيط بها في السنوات ١٩٤٣ و١٩٤٨ و١٩٥٢ و١٩٥٨ و١٩٦١ و١٩٦٧.. والتي بلغت ذروتها منذ سنة ١٩٧٥ بعد أن وجد البيروتي نفسه مذهولاً من هول الصدمة عندما دمرت الحرب القذرة المنطقة التجارية التي كانت تقوم عليها مدينة بيروت القديمة داخل سورها وقلعتها وأبوابها وأبراجها، وأتى الخراب على أسواقها ومظاهر الحياة فيها. وكان الهدف الحقيقي هو القضاء على تاريخ هذه المدينة وتراثها الوطني القومي.

ومع ذلك بقيت بيروت وستبقى بإذن الله تعالى عاصمة للقرارات والمواقف الوطنية والقومية.

(عصام شبارو، «اللواء»، ١٥/٣/١٩٩١)

التاريخ السياسي والاقتصادي لولاية بيروت ١٨٨٧-١٩١٤

على الصعيد الاقتصادي، يعتبر تاريخ «ولاية بيروت» جزءاً صغيراً من التاريخ الإقليمي والدولي، وجزءاً مهماً من تاريخ سورية المحلي. والمقصود بسورية في هذه الفترة:

- ولايات بيروت، سورية (دمشق) وحلب.
- ومتصرفيات: جبل لبنان، القدس ودير الزور.

لقد ارتكز تاريخ «ولاية بيروت» في المجال الاقتصادي، على عدد من القطاعات، ويأتي في مقدمتها:

في القطاع الزراعي: وكان يعتمد على إنتاجه السواد الأعظم من أبناء هذه البلاد ولذلك، فمنذ بداية الحكم العثماني، أدركت السلطنة أهميته في فرض سلطتها وهيبتها عليهم، وفي تأمين موارد خزانتها. وفي هذا المجال، فقد أولت الأرض وما تنتجه اهتماماً خاصاً.

فعلى مستوى الأرض، جرى تقسيمها إلى قسمين:

١- الأراضي المملوكة تمليكاً صحيحاً. وقد فرضت على هذا القسم «الضرائب العشرية والخراجية».

٢- الأراضي غير المملوكة، وقسمتها إلى أربعة أنواع:

- «أراضي بيت المال».
- «الأراضي العشرية والخراجية غير المملوكة».
- «الأراضي المحمية».
- «الأراضي الموات».

وعلى أساس هذا التقسيم للأراضي، اعتمدت نظاماً للحكم، جمعت فيه بين مسألة الدفاع عن سيطرتها وسلامتها وبين التأمين على مستلزمات الحياة واستمراريتها. وقد عرف هذا النظام الاداري، «بنظام الايالة» أو «الباشوية»، وعلى رأسها باشا برتبة أمير الأمراء، فوضت إليه أمر تدبير شؤون ايالته في وقت السلم وقيادة عساكره والذهاب معهم إلى الحرب عندما وحيثما تدعو حاجة السلطنة.

إن هذه الوحدة الإدارية الكبيرة نسبياً، كانت مقسمة إلى إقطاعات عسكرية صغيرة من نوع «التيمار»، ومتوسطة من نوع «الزعامت».

وليس بالوسع هنا أن تدخل في تفصيلات هذا «النظام الأميري» العسكري، الذي استمر العمل به فترة امتدت من ٨٨١-١٢٥٥ هجرية ١٤٧٦-١٨٣٩ ميلادية. وقد دخلت إليه خلال هذه المدة الطويلة شوائب كثيرة أدت إلى تحولات هامة فيه أفسدته. ولكن أقل ما يقال فيه، إنه فتح نافذة لاستيلاء «الأمراء» الكبار والمتوسطين على «الأراضي الأميرية» التي بحوزتهم، وإلى تبديد الرصيد الثابت «لبيت المال» المتمثل بالأرض، وإلى السير خطوة باتجاه تحويلها إلى ملكية خاصة.

إن فساد هذا النظام قد دفع بالسلطنة إلى التخلي عنه، وإلى اعتماد «نظام الولاية». لكنها قبل أن تعتمد هذا النظام، أصدرت عام ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م «أحكام قانون الأراضي»، الذي جاء لتنظيم الأوضاع التي استجدت على الأراضي خلال الفترة الماضية والإحاطة بها. وبذلك تكون أحكام هذا القانون قد أعطت مسوغات امتلاك «الأراضي العشرية والخراجية غير المملوكة». وسمحت لمتسلمي «التيمار» و«الزعامت» و«الخاص»، أن يمتلكوا رقبة أراضي الإقطاعات التي كانت بحوزتهم وتحت تصرفهم. كما عملت على إزالة الحواجز التي كانت - حتى ذلك الوقت - تحول دون تبديد المتبقي من «أراضي بيت المال» وتحويلها إلى ملكية خاصة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى. فقد وضعت هذه الأحكام حلولاً للمساحات الشاسعة الفائضة عن حاجات أهالي القرى التابعة لها، حين وضعت الزائد منها بالمزاد العلني وأحالته للطالبين المحليين والمجاورين وبموجب هذه الأحكام أيضاً، أصبحت «الأراضي الموات» هدفاً لإحيائها من قبل الطامحين والطامعين من أجل تحويلها إلى ملكية خاصة، مستفيدين في ذلك من الخطوات البسيطة التي حددتها هذه الأحكام.

وهكذا تكون ولاية بيروت قد شهدت على هذا المستوى أمرين:

الأول، تحول مساحات شاسعة من الأراضي غير المملوكة إلى ملكية خاصة قابلة التصرف بها. واستفادت من هذا الوضع الجديد قوى دولية كثيرة، من خلال رعاياها الذين كانوا ينتشرون بكثرة في هذه الولاية.

الثاني، هو أن عمليات إحياء «الأراضي الموات»، قد فتحت الباب لبروز متنفذين محليين جدد في القرى التي لم يكن فيها وجود لمثل هؤلاء.

إن تحول مساحات شاسعة من الأراضي الأميرية والعشرية والخراجية غير المملوكة، إلى ملكية خاصة قد أدى إلى نتائج اجتماعية مهمة. **ومن أهم هذه النتائج:**

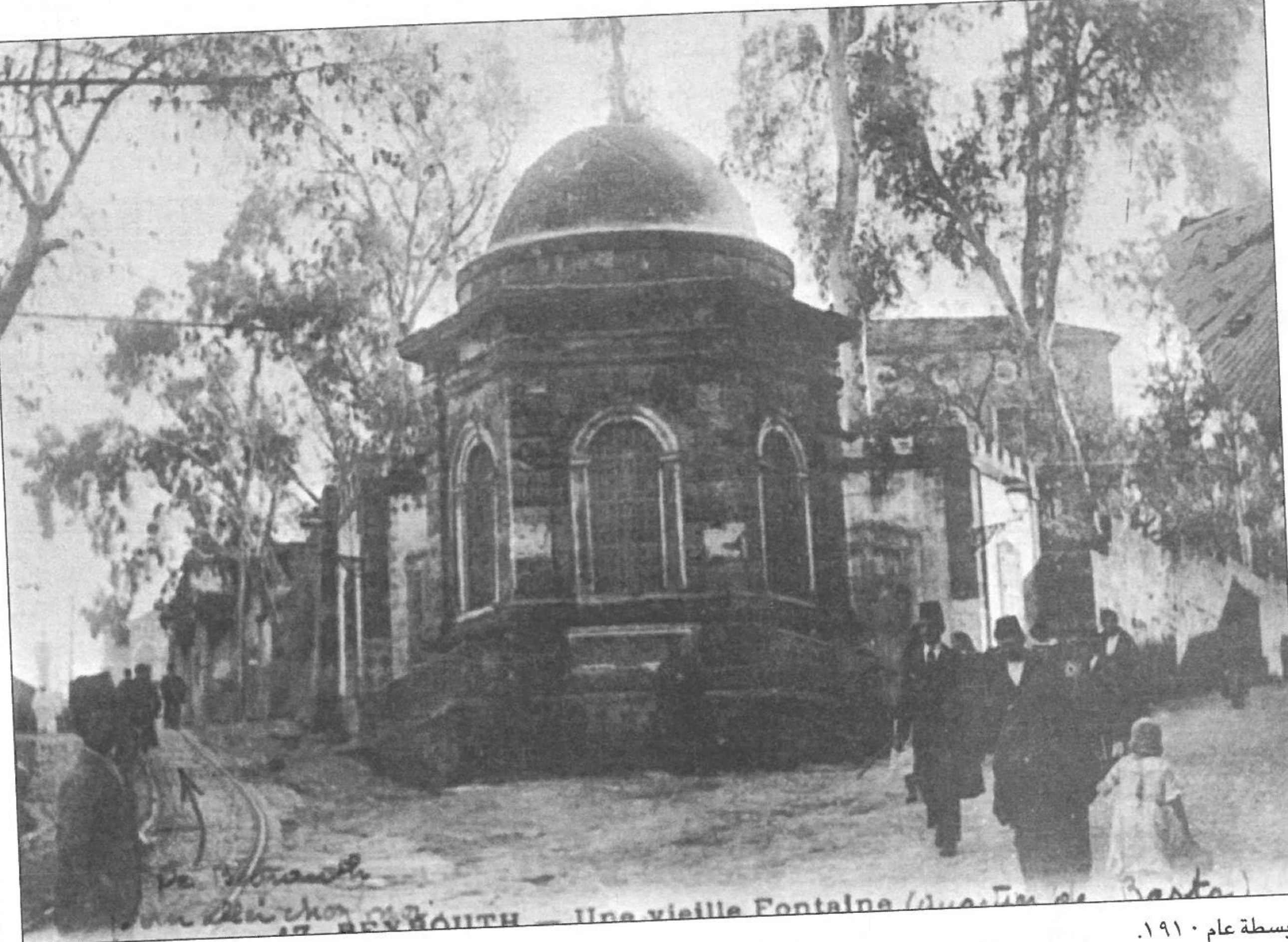
١- تحول «الأمراء» إلى «ملاكين كبار» وتحول «الفرسان» المحاربين إلى فلاحين وعمال زراعيين.

٢- تحولت الأرض إلى سلعة، ودخلت ميدان السوق التجاري، فباتت تباع وتشترى وترهن..

٣- إن السماح بتحول ملكية «الأراضي الأميرية المحمية» إلى ملكية خاصة وإعارتها بإحياء «الأراضي الموات» تمهيداً لامتلاكها، قد أدى إلى نشوء علاقات اجتماعية جديدة: كالشركة، القسمة، المهاياة، المزارعة، المغارسة، المساقاة، الإعارة والإجارة، وهي علاقات اجتماعية أكثر حرية من العلاقات السابقة، وكانت في الوقت نفسه لصالح «كبار الملاكين»، لأنها مكنتهم من الاحتفاظ بملكياتهم الواسعة..

(الياس جريج، «الديار»، ١١/١٠/١٩٩٩)

الحياة الثقافية في بيروت في العهد العثماني



البسطة عام ١٩١٠م.

من الخطأ الاعتقاد بأن بيروت العثمانية كانت تفتقر إلى حياة ثقافية وأدبية وعلمية. ومن الخطأ الاعتقاد بأن بيروت كانت تحيا حياة الركود والانحطاط العلمي. بل الثابت أن بيروت شهدت حركة علمية وثقافية وأدبية متنوعة، ولاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، علماً أن الجذور الثقافية كانت قد وجدت قبل ذلك بقرون عديدة.

ولقد تميزت بيروت بملامح ثقافية عديدة، تمثلت بمعاهد وكليات ومدارس وجمعيات وصحافة ومؤلفات ومطبوعات وأساتذة وأطباء ومهنيين. كما شهدت بيروت يقظة سياسية، كانت تهدف إلى إصطلاحات سياسية في الدولة العثمانية.

ومن بين تلك الملامح الثقافية إنشاء عدد كبير من الصحف البيروتية منها على سبيل المثال:

- **حديقة الأخبار**، لخليل جبرائيل الخوري عام ١٨٥٨م، وهي تعتبر أول صحيفة بيروتية.
- **نفير سوريا**، لمؤسسها بطرس البستاني عام ١٨٦٠م.
- **مجموعة العلوم**، التي أسستها الجمعية العلمية السورية عام ١٨٦٨م.
- **ثمرات الفنون**، لمؤسسها الشيخ عبد القادر القباني عام ١٨٧٥م.
- **لسان الحال**، لمؤسسها خليل سركيس عام ١٨٧٧م.
- **سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات**، لمؤسسها نخلة قلفاط عام ١٨٨٤م.
- **بيروت**، لمؤسسها محمد رشيد الدنا عام ١٨٨٦م.
- **بيروت الرسمية**، الصادرة عن ولاية بيروت في عهد الوالي علي باشا عام ١٨٨٨م.
- **المشرق**، للأب لويس شيخو عام ١٨٩٨م.
- **روضة المعارف**، لسليم الأنسي وشاكر أبو ناضر عام ١٨٩٩م.

- **الكنانة**، الصادرة عن الكلية السورية الانجيلية عام ١٩٠٠م.
- **العصر الحميدي**، لمؤسسها محسن عسيران عام ١٩٠١م.
- **الإقبال**، لمؤسسها الشيخ عبد الباسط الأنسي عام ١٩٠٢م.
- **الدائرة**، لمؤسسها مصطفى سعادة وضياء البغدادي عام ١٩٠٤
- **الاتحاد اللبناني**، للشيخ أحمد حسن طبارة وخليل عورا عام ١٩٠٨م.
- **النبراس**، لمؤسسها الشيخ مصطفى الغلاييني عام ١٩٠٩م.
- **المفيد**، لمؤسسها عبد الغني العريسي عام ١٩٠٩م.
- **الحقيقة**، لمؤسسها الشيخ أحمد عباس الأزهري عام ١٩٠٩م.
- **الرأي العام**، لمؤسسها طه المدور عام ١٩١٠م.
- **الرشيد**، لمؤسسها الشيخ صالح الدهون اليافي عام ١٩١٠م.
- **القلم العريض**، لمؤسسها الشيخ عبد الرحمن سلام عام ١٩١١م.
- **لسان العرب**، لعبد الغني العريسي وفؤاد حنتس عام ١٩١٢م.
- **المصور**، لعبد الوهاب التنير عام ١٩١٢م.
- **الإصلاح**، للشيخ أحمد حسن طبارة عام ١٩١٤م.
- **بيروت**، الصادرة عن إدارة حكومة بيروت عالم ١٩١٨م.

وسواها من صحف ومجلات ودوريات صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهناك العديد من الصحف والمجلات والنشرات والدوريات البيروتية الصادرة في العهد العثماني مما لا يتسع المجال لذكرها جميعها، كما أن البعض منها توقف عن الصدور عام ١٩٠٨م، وبعضها توقف بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى.

ومن يطلع على إحصاء الصحف والمجلات والدوريات الصادرة بين أعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٧٥م يدرك استمرار بيروت ولبنان نقطة أساسية في الثقافة والأدب والعلم والسياسة. وقد ارتبطت الدوريات والصحف سواء الصادرة في العهد العثماني أو عهود الانتداب والاستقلال بحركة طباعة نشطة وبوجود مطابع متطورة، فضلاً عن طباعة الكتاب بكافة أنواعه سواء الصادرة في لبنان أو المطبوع للدول العربية.

ومن ملامح الحياة الثقافية في بيروت العثمانية، وجود الجمعيات العلمية والاجتماعية والأدبية ومنها: الجمعية العلمية السورية وهي أول جمعية تأسست في بيروت عام ١٨٥٨م، وقد توقف نشاطها عام ١٨٦٠م بسبب الحرب الأهلية في جبل لبنان. ثم باشرت نشاطها عام ١٨٦٨م، وقد انضم إليها ١٨٠ عضواً من مختلف الطوائف.. ومن المعروف عن هذه الجمعية أنها ساهمت في الحياة السياسية البيروتية، وقد وزعت مناشير في بيروت بين العامين ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م، تدعو فيها إلى الوطن السوري الموحد، انتهت المناشير بأبيات إبراهيم اليازجي الشعرية القائلة: (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب).

ومن الجمعيات العلمية والثقافية والاجتماعية في بيروت:

- جمعية زهرة الإحسان.
- جمعية شمس البر.
- جمعية زهرة الآداب.
- جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية.
- جمعية الفنون وهي التي سعت إلى إنشاء صحيفة (ثمرات الفنون) وكان رئيسها الحاج سعد حمادة.
- جمعية ثمرة الإحسان.
- جمعية ثمرة الإحسان الإسلامية، التي كان يرأسها الشيخ مصطفى نجا عام ١٨٩٩
- جمعية لجنة التعليم الإسلامية.
- جمعية اللجنة الخيرية الإسلامية.
- جمعية بيروت الإصلاحية.

وسواها من الجمعيات.

وعرفت بيروت في العهد العثماني الكثير من المؤسسات التربوية الخاصة والعامة، كما عرفت بيروت في القرن التاسع عشر تأسيس كليتين أو جامعتين وهما:

- الكلية السورية الانجيلية.
- جامعة القديس يوسف.

وبعض المؤسسات الأجنبية والوطنية.

وقد انتشرت المدارس العثمانية في مختلف مناطق بيروت .. كانت المدارس العثمانية تنقسم إلى ثلاث مراحل وهي:

- الابتدائية.
- الرشدية.
- العالية.

ومن بين مدارسها:

- المكتب الإعدادي.
- المكتب الرشدي العسكري.
- مكتب الصنائع والتجارة الحميدي.

وكانت الدولة العثمانية تنوي إنشاء كلية طب في بيروت، غير أن وجود مثل هذه الكلية في الكلية السورية الانجيلية أدى

إلى نقل المشروع إلى دمشق التي كانت تفتقر إلى مثل هذه الكلية. علماً أن الحكومة العثمانية أسست في العام ١٩١٣م في بيروت معهد الحقوق، ثم ما لبثت أن نقلته إلى دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى.

ولقد باشرت بعض الجمعيات الإسلامية ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بتأسيس عدد كبير من المدارس إلى جانب المدارس والمكاتب العثمانية الموجودة في بيروت.

ومن بين هذه المدارس:

- مدارس جمعية المقاصد الإسلامية.
- المدرسة الإسلامية الحديثة.
- مدرسة الشيخ عبد الباسط الأنسي.
- المدرسة الرشيدية.
- مدرسة زاوية الشهداء.
- مدرسة الشيخ علي الملا.
- مدرسة الشيخ محمد المجذوب.
- المدرسة العثمانية، ثم الإسلامية لمؤسسها الشيخ أحمد عباس الازهري.
- المدرسة السورية الإسلامية لمؤسسها الشيخ سليم محمد المغربل.
- المدرسة القادرية.
- المدرسة الوطنية.
- مدرسة الإخلاص.
- المدرسة الحميدية الأهلية.
- المدرسة الأدبية لمؤسسها الشيخ مصباح شبقلو.
- المدرسة التوفيقية الإسلامية لمؤسسها الشيخ محمد توفيق خالد.
- المدرسة العلمية لمؤسسها الشيخ عبد الرحمن سلام.

وسوى ذلك من مدارس علمية متعددة.

ومن الأهمية بمكان القول إن بيروت والكثير من بيوت البيارتة لا تزال تزخر إلى اليوم بالمئات من المخطوطات والمؤلفات العلمية والأدبية والتاريخية والفقهية والدينية، التي سبق أن ألفت في العهد العثماني، والتي لم ينشر الكثير منها إلى الآن. ولقد طمست بعض الدراسات اللبنانية رواد الحركة الثقافية في بيروت ولبنان، ولم تسلط الأضواء عليهم ولا على نتاجهم الفكري، ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر:

- الشيخ إبراهيم الأحدب، الذي ترك أكثر من ثمانين مقامة يضاهي فيها مقامات الحريري.
- الشيخ محمد سعيد أياس.
- الشيخ أحمد عباس الأزهري.
- الشيخ يوسف الأسير.
- الشيخ عبد الباسط الأنسي.
- الشيخ أحمد بدران.
- الشيخ محمد البربير.
- الشيخ الحاج حسين بيهم.
- العلامة محمد جميل بيهم.
- الشيخ حسن الحبال.
- الشيخ عبد الرحمن الحوت.
- الشيخ محمد الحوت.
- الشيخ عبد الله خالد.
- محمد رشيد الدنا.
- الشيخ عبد الرحمن سلام.
- الشيخ أحمد طبارة.
- عبد الغني العريسي.
- الشيخ مصطفى غلاييني.
- الشيخ عبد الباسط الفاخوري.
- الشيخ عبد اللطيف فتح الله.
- الشيخ عبد القادر القباني.
- الشيخ محمد الكستي.
- الشيخ إبراهيم المجذوب.
- الشيخ محمد المجذوب.
- الشيخ أحمد الحمصاني.
- الشيخ حسن المدور.
- الشيخ مصطفى نجا.
- الشيخ عبد الكريم أبو النصر اليافي.

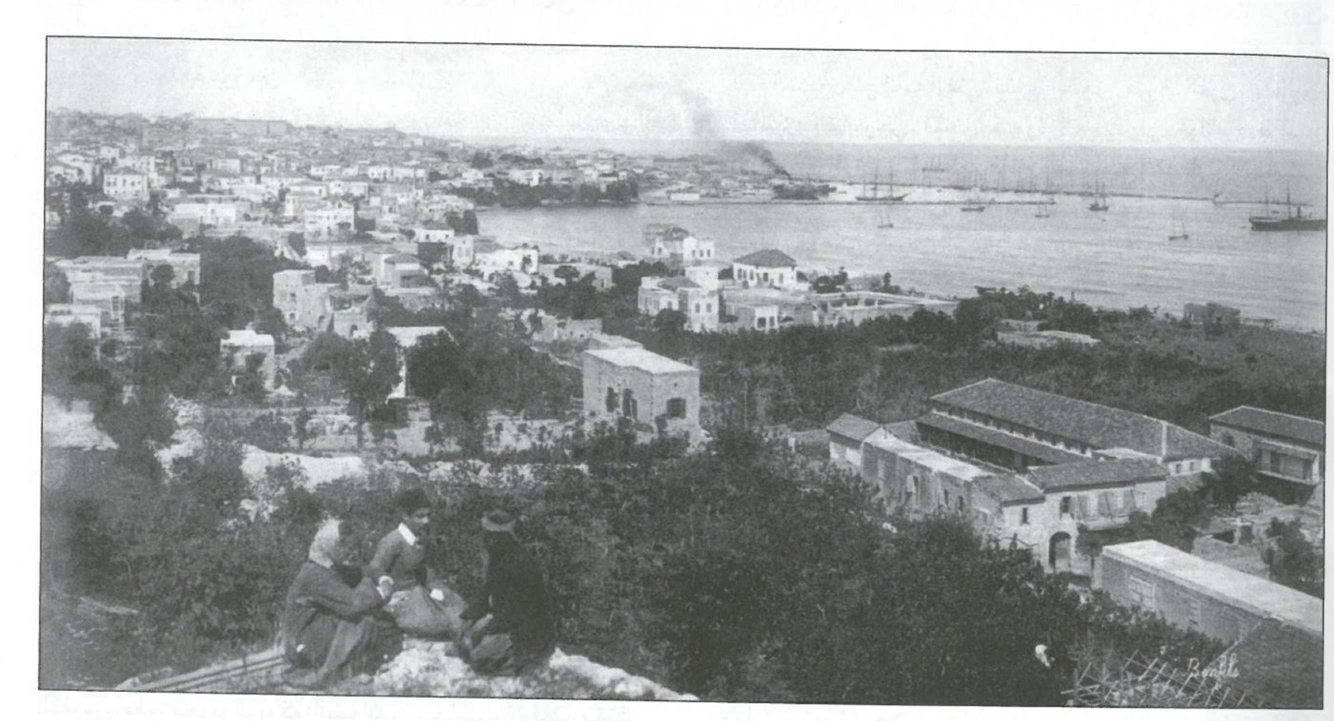
ومن علماء بيروت أيضاً في العهد العثماني:

- الشيخ محيي الدين الخياط.
- الشيخ محمد الحلواني.
- الشيخ سليم البابا.
- الشيخ محمد علي الأنسي.
- الشيخ محمد توفيق الهبري.
- الشيخ يوسف علايا.
- الشيخ عبد القادر النحاس.
- الشيخ قاسم الكستي.
- الشيخ محمد سوبرة.
- الشيخ أحمد ابن الشيخ علي عساف.

وسواهم الكثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم..

(عن موقع «يا بيروت»)

بيروت في القرن التاسع عشر



منطقة المدور قبل مائة عام.

الموقع والملامح العامة في بيروت العثمانية: تقع بيروت على الشاطئ الشرقي من البحر المتوسط، يحدها غرباً البحر، وجنوباً منطقة خلدة امتداداً إلى صيدا وجوارها، وشرقاً جبال لبنان، وشمالاً البحر وبعض المناطق - الضواحي الشمالية. وتقع بيروت في اقليم معتدل يتميز بجودة الطقس واعتدال في المناخ وجمال في المنظر.

وكانت بيروت العثمانية يسيجها سور بناه وحسنه ونظمه أحمد باشا الجزار في أواخر القرن الثامن عشر، يوم طمح إلى الاستقلال والخروج على مولاه الامير يوسف الشهابي. **وكان يتخلل سور بيروت - أو كما يسميه العامة «الصور» - ثمانية أبواب وبعض الابراج.** أما الأبواب فهي: باب أبو النصر، باب الدباغة، باب الدركة، باب السرايا (السراي)، باب السمطية، باب السلسلة، باب المصلى، باب يعقوب، أما الابراج فيه: برج الامير جمال الذي سبق أن بني عام ١٦٧١م، وبرج الفنار، وبرج السلسلة، وبرج البعلبكية، وبرج الكشاف، **أما البرج الشهير المعروف باسم البرج او برج المدفع فقد كان موقعه خارج السور. وكان طول سور بيروت حوالى ٥٧٠ متراً، ولا يزيد عرضه على كيلومترين. اما ارتفاع الجدران فتقارب خمسة أمتار، بينما سماكتها فهي حوالى اربعة امتار.**

ومن ملامح بيروت العمرانية الأخرى بعض الأسواق المتخصصة ومنها: سوق أبو النصر، سوق الأساكفة، سوق الأمير يونس، سوق البازركان، سوق البوابجية، سوق بوابة يعقوب، سوق البياطرة، سوق الحدادين، سوق الخضرية، سوق الخمامير، سوق زاوية ومسجد التوبة، سوق الزبيبة، سوق الساحة، سوق ساحة الخبز، سوق سرسق، سوق الشبقجية، سوق الشعارين، سوق الصاغة، سوق الطويلة، سوق العطارين، سوق القزاز، سوق القطن، سوق القهوة، سوق اللحامين، سوق المنجدين، سوق النجارين. وهناك الآلاف من الاوقاف وبعض البساتين والجنائن والمزارع والافران، كما وجد في بيروت بعض الثكن العسكرية، بالإضافة إلى الجبانات والمقابر الواقعة حكماً خارج سور مدينة بيروت. وضمت المدينة الجوامع والزوايا الدينية والاديرة والكنائس، والحارات والشوارع والمناطق والحمامات والخانات والزواريب والساحات والقناطر والقيساريات (الأسواق المقفلة) والمدارس والمعاصر والمقاهي والموانئ، **وكان أهمها ميناء بيروت الذي ضم إلى جانبه موانئ متخصصة مثال: ميناء الأرز، ميناء الخشب، ميناء القمح، ميناء البصل، ميناء البطيخ..** والحقيقة فإن التطور الاقتصادي الذي أصاب المدينة لفت الانظار إليها وخولها أن تكون المقر الرسمي لولاية جديدة عرفت باسم «ولاية بيروت». قد أعلنت ولاية بيروت في عام ١٨٨٧ - ١٨٨٨م، وكانت تمتد جنوباً إلى نابلس في فلسطين، بينما امتدت شمالاً إلى اللاذقية. وقد ألحق بولاية بيروت إلى جانب صيدا وصور ومرجعيون، ومتصرفيات (ألوية) طرابلس الشام واللاذقية وعكا ونابلس، حتى نهر الشريعة وحدود لواء القدس الشريف.

وبذلك يمكن القول بأن ولاية بيروت في العهد العثماني كان يحدها شمالاً ولاية حلب وشرقاً ولايتا حلب وسورية، وجنوباً لواء القدس الشريف، وغرباً البحر المتوسط. وكان عدد سكان لواء بيروت (أقضية بيروت، صيدا، صور، مرجعيون) قبيل الحرب العالمية الاولى (٦٣٩ و ٢٧٦) ألف نسمة حسبما ورد في سجلات النفوس الرسمية موزعين على النحو التالي:

قضاء بيروت (١٥٠٠٠٠)، قضاء صور (٢٤٠٤١)، قضاء صيدا (٥٤٢٨٤) قضاء مرجعيون (٣١١١٥).

وكانت الدولة العثمانية تعين والي ولاية بيروت من الجنسية التركية، ويكون مقره مدينة بيروت، وكان يعاونه في إدارة الولاية والاقضية: المفتي، مجلس إدارة الولاية، مامورو الولاية، المحكمة الشرعية وقضاتها وكتبتها، هيئة التخمين، محكمة استئناف الحقوق، محكمة استئناف الجزاء، محكمة بداية الحقوق، محكمة بداية الجزاء، المدعي العام ومعاونه، مأمور دائرة الإجراء، دائرة الاستنطاق، محرر المقاولات، محكمة التجارة، مأمورو إدارة المعارف، دائرة الأوقاف ولجنة الاوقاف، لجنة الطرق والمعابر، إدارة البنك الزراعي، دائرة الشرطة. وكانت هذه الدوائر او بعضها يضم بعض الموظفين مثال: الدفتردار، المكتوبجي، المحاسبجي، التذكرجي، اليوزباشي، القومندان، رئيس المحكمة، مدير البوليس، رئيس البلدية، نقيب الإشراف، مدير البرق والبريد، مدير المعارف، مفتش الصحة، مدير الامور الأجنبية، رئيس مهندسي النافعة، ناظر النفوس، مدير تحرير الويركو (الضرائب)، محاسب الأوقاف، مفتش الاحراج، مأمور السجل السلطاني، مأمور المعية، مفتش الزراعة...

ومن بين ولاة بيروت الذين تبوأوا منصب الوالي: مدحت باشا، ادهم باشا، بكر سامي بك، حازم بك، حمدي باشا، خليل باشا، رشيد باشا، ناظم باشا، عزمي بك، علي منيف بك، اسماعيل حقي.

اما رؤساء بلدية بيروت فقد كانوا من ابناء بيروت ومنهم: محيي الدين حمادة، الشيخ عبد القادر قباني، عبد القادر الدنا، محمد اياس، سليم علي سلام، عمر الداعوق، أما العائلات البيروتية في العهد العثماني فهي بأكثريتها من الطائفة الإسلامية وهناك عائلات مسيحية جلها من الروم الأرثوذكس، **أما أهم العائلات البيروتية الإسلامية فهي على سبيل المثال لا الحصر:** الأزهري، الاسطة، الأسير، الاحدب، الانسي، ادريس، اياس، بالوظة، قليلات، بدران، البراج، البربير، بكداش، (ومكداشي وبكداشي)، بكار، بنداق، بلوز مشاقو (مشاقة)، بليق، بواب، بولاد الحوت، بيضون، بيهم، تنير، جبر، الجبيلي، الحسامي، جلول، الجمال، الجندي، جارودي، حاسبيني، حبوب، حبال، حمد، الحص، حطب، حلاق، الحلواني، حمادة، حمزة، حنتس، الحوت، دريان، درويش، دعبول، دمشقية، الدنا، دندن، دوغان، دياب، دية، الراعي، حوري، خالد، خرما، خضر، خطاب، الخياط، الداعوق، دبوس، الرافعي، الرفاعي، رمضان، زعني، زغلول، زنتوت، سبليني، سراج، سروجي، سحمراني، سعادة، السعقان (السجعان)، سلطاني، سلام، سنتينا، سنو، سوبرة، شبارو، شاتيلا، شاكر، شانوحة، شبقلو، شعار، شدياق، شهاب، الشيخ، صعب، صفصفوف، الصلح، الصيداني، طبارة، الطبش، الطبيلي، الطرابلسي، طرببه، الطيارة، العالية، عبلا، العجم، العجوز، العريس، العريسي، عز الدين، عساف، العشي، عفرة، العلماوي، علم الدين، علوان، علايا، عمران، العويني، العيتاني، الغالي، الغر (الاغر) غزاوي، غزيري، الغلاييني، غندور، الغول، الفاخوري، فانوس، فايد، فتح اللـه، فتح اللـه الشيخ، فتح اللـه المفتي، فتوح، الفحل، فروخ، الفيل، القاروط، القاضي، القاطرجي، قباني، قدورة، القرا بدران، قراقيرة، قرانوح، القرقوطي، قرنفل، قريطم، قزاز، القصاب، القصار، القضماني، القطان، قواص، القوتلي، قمورية، الكبي اللحام، كريدية، الكستي، كشلي، الكعكي، كنيعو، الكوسا، الكوش، اللبان، الداعوق، لبابيدي، اللادقي، المبسوط، المبيض، المجذوب، المحب، محرم، المحمصاني، محيو، المدور، ميرزا (مرزي)، مرعي، مشاقة، مغربل، مغربي، مكاري، مكاوي، مخزومي، مكداشي، مكوك، مكي، منجد، منقارة، منيمنة، مورلي، ميقاتي، الناطور، نجا، النحاس، النحيلي، النصولي، نعماني، النقاش، النقيب، النويري، الهبري، الهواري، وهبه، الوزان، ياسين، اليافي، يموت...

ومن العائلات الدرزية البيروتية على سبيل المثال عائلات: جابر، حلبي، حمندي، حمد، معقصة، ديك، ربح، رباح، رضوان، وتوات، روضة، الزهيري، علاء الدين، زيتون، السواح، سليت، سنتوف، سري الدين، ضروب، عاقل، عبد الخالق، العريضي، عساف، عود، غاوي، الفر، غضبان، غزارة، قمند، مروش، منذر، مياسي، نعمان، هشي، يونس.

ومن العائلات المسيحية البيروتية على سبيل المثال عائلات: الأرقش، اليان، بسول، برباري، بسترس، تابت، تيان، تويني، داغر، دهان، رزق اللـه، زهار، سابا، سرسق، السلموني، السيقلي، الصباغ، طاسو، طراد، طرببه، العم، قسطه، مطر، الهاني، يارد، يمين، فرعون، مجدلاني...

الواقع الاجتماعي في بيروت العثمانية: كانت العائلات البيروتية تكون المجتمع البيروتي الذي شهد موجات من الوافدين الاتراك والاوروبيين وموجات أخرى وافدة من الولايات الإسلامية والعربية. وعبر الحقب التاريخية تمت حركة التشابه في العادات والتقاليد والممارسات مع ما تتميز به العائلات البيروتية من بعض التباين بسبب المعتقدات الدينية. وبشكل عام فقد كان المجتمع البيروتي مجتمعاً متشابهاً في كثير من مظاهره، **وقد كانت المسلمات والمسيحيات محتجبات خاصة إلى حد كبير، كما أن المسلمين والمسيحيين من الرجال كانوا يلبسون ثياباً موحدة كالسروال العثماني (الشروال) والقمباز والصدرية الكشمير واللاستيك (الجزمة) خاصة الأغنياء منهم، ويعتمرون الطربوش،** مع العلم أن الفئات المثقفة من مختلف الطوائف قد بدأت تتفرنج بلباسها وعاداتها وتقاليدها منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومما يجمع العائلات البيروتية محكمة بيروت الشرعية التي كانت تبحث أمور مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية واليهودية أيضاً. فمعاملات الإرث والأوقاف والديون والدعاوي والشكاوي وتعيين علماء الدين، كانت كلها تسجل في سجلات المحكمة الشرعية للدولة العلية في



سوق اللحامين

مدينة بيروت المحروسة.

هذا وتصور لنا بعض الأبحاث ومذكرات الرحالة أوضاع بيروت الاجتماعية في القرن التاسع عشر. ومما يذكره د. أسد رستم عن واقع بيروت في عهد ابراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا ما يفيدنا في بعض الجوانب الاجتماعية كقوله: «لو أتيح لك أن تدخل مساكن هؤلاء الأغنياء لوجدتها خالية من قسم كبير من الأثاث الذي نعده اليوم ضرورياً لراحتنا، فلا ترى فيها الأسرة الأوروبية التي نراها اليوم ولا الخزانات لحفظ الثياب. فإن البيروتي سنة ١٨٣١ كان لا يزال مصراً على استعمال المصابيح الفخارية والمعدنية...» ولما عين الأمير محمود نامي حاكماً على بيروت (١٨٣٣ ـ ١٨٤٠)م أنشأ نظام الشرطة الذي يفيدنا فيما يفيدنا به عن المميزات الاجتماعية في بيروت القبض على كل شخص لا يحمل ليلاً بيده مصباحاً. وكانت عادة الشرطة أن يوجهوا إلى كل من نظروه من أبناء السبيل في الليل سواء أكان مسلماً أم نصرانياً السؤال الآتي: من هذا؟ فيجيبهم: «ابن البلد» فيقول ابن السبيل «لا إله إلا اللـه». ومنذ العام ١٨٣٣ بدأت ملامح «التفرنج» على بيروت، وازدادت عمليات الاحتكاك بالأوروبيين، فتأثرت العمارة بالهندسة المعمارية الأوروبية، وشاع في بيروت استخدام الأثاث الإفرنجي، فابتاع البيروتيون الاسرة والخزانات والكراسي والطاولات، واقتنوا الصحاف والشوك والسكاكين والملاعق الإفرنجية. وقد تأثر الشعب بزي أفراد الجيش المصري، فالتعديلات التي طرأت على لباس الجيش سرت وتناولت لباس افراد الشعب، فخف لبس العمامة من لباس الراس، وقل الاقتصار على لبس الجبة والقنباز، وأدخلت الطرابيش المغربية والصداري وكبابيت التفتيك، وبعد أن كان البيروتي يميل إلى اقتناء الثياب ذات اللون الأحمر والبنفسجي، أخذ يهجرها شيئاً فشيئاً، ويتخذ الأسود والكحلي منها. وشاع أيضاً في هذه الفترة من تاريخ بيروت استخدام الكلسات (الجوارب)..

ومن عادة البيروتيين (المسلمين) في أعيادهم تقديم الحلوى للمعايدين. وكانت افران بيروت تعج في فترة الأعياد بالأواني (الصواني) التي كانت تخبز عادة في تلك الأفران. **وكانت أجرة الفران قطعاً يتناولها بعد انتهاء الخبز.**

وكان المسلمون في بيروت يصلون جميعاً في المسجد العمري الكبير (مسجد سيدنا يحيى) وهو مسجد البلد الكبير، وكان مفتي بيروت في مقدمة المصلين حيث يؤم فيهم الصلاة..

وأشار الأمير محمد علي باشا حفيد محمد علي الكبير الذي زار بيروت في العهد العثماني، وسجل انطباعاته عما رآه من أحوال اجتماعية ومما قاله: «كان سروري يتجدد كلما كنت أرى أولئك الناس متشبثين بالعوائد الشرقية ومتمسكين بالملابس القديمة والأزياء الفطرية...» أما عن التعليم في مدارس بيروت فقد أوضح محمد علي باشا «بأن التعليم في مدينة بيروت مما يسر أنصار العلم وعشاق المعارف ومحبّي التقدم والرقى. ولهذا كنت أرى معظم الأهالي يجيدون القراءة والكتابة، وقلما وجدت مدينة أهلها كذلك في كل بلاد الشام». أما عن اللغة السائدة في بيروت فهي اللغة العربية، وهناك لغات أخرى مستخدمة كاللغات التركية والفرنسية والإيطالية.

وتظهر ملامح الحياة الاجتماعية في بيروت العثمانية وأنماطها وحركتها عبر الأسواق التجارية والعلاقات الاقتصادية وأماكن ممارسة الحرف والصناعات والتجارة، وعبر المؤسسات الدينية كالجوامع والتكايا والزوايا والمؤسسات العسكرية كالثكن، كما تظهر الحياة الاجتماعية عبر المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة.

(حسان الحلاق، «اللواء»، ١٩٨٧/٣/٢٧)

البيت البيروتي انطوى نحو داخله



بيت بيروتي

من «سوق الخشب» الى «زواقيق» الرأس إلى «حاووز الساعاتية» و«بوابة يعقوب»... ماذا بقي غير الأسماء يتذكرونها بحنين، ويروون لك كأنهم آتون للتو من ذلك الزمن، فأبقت الذكريات ما كان ممهوراً بحنين الديار والمرابع.

يقولون «كان»، وكان الحكاية عندهم لا تعني زمناً راح، بل شيئاً ما زال في القلب منه الحرقة واللذة. وعندما يتحدثون عن هاتيك المرابع والديار، يحكون بدهشة الأطفال.

يقولون لك «البيروتي كالسمك، إذا طلع من الماء يموت».

ويتذكر **محمود المرعشلي**، الرائد المتقاعد في قوى الأمن، قائلاً: كان واحدنا إذا خرج من بيته ووصل إلى منطقة فرن الشباك يحلف «وحياة غربتي».

والبيت مساحة ود، وجزء من مكان، وبين البيت والإنسان علاقة رحم، لهذا انطوى فراغ البيت البيروتي بكامله نحو الداخل، وانعزل بجدرانه عما يدور في الخارج، وشكل الدار أو الصحن نواة البيت، تطوف به الغرف وتتصل بعضها ببعض من خلاله، بينما تظل معزولة واحدة عن الأخرى في التصميم.

ويتذكر **كمال ربيز** قائلاً: عندما كان يتزوج أحد أبناء العائلة يأخذ «اوضة» ويظل الدار و«المنتفعات» (المرافق الصحية) مشتركة، ويأكل الكل على «طبلية» أو طاولة واحدة، وهكذا تظل العائلة مجتمعة.

ولعب الدار أو الصحن وظيفة جمالية، فقد جلب البيروتي عناصر الطبيعة: الماء والسماء والنبات، إلى داخل البيت، بأن جعل داره فراغاً مفتوحاً نحو السماء التي تنعكس في أرضية الدار، حيث البركة المثمنة، وحولها عريشة الياسمين ودالية العنب.

وإذا لم تكن اليد «طايلة» فلا ياسمين يفوح ولا نافورة تبل هاجرة الظهر.

يقول **عارف مشاقة**: كان بيتنا في منطقة الظريف كالبيوت الأخرى هناك، جدرانه من الخشب ما عدا الحائط المواجه لجهة الجنوب فهو من الحجر. أما السقف فمن القرميد، والمنزل عبارة عن «اوضة» و«زاروبة» صغيرة ومطبخ، تقوم على مصطبة ترتفع قدر درجة عن سطح الأرض.

ـ ولماذا فقط الحائط الجنوبي من الحجارة؟

ـ الجهة التي تتعرض أكثر من غيرها للمطر، وكنا كما أذكر ندهن هذه الحيطان بالزيت.

ـ والأثاث؟

ـ بسيط، والأساس عدد من الفرش المطوية في زاوية الغرفة، ومدّ خشبي، فوقه طراريح محشوة بقش الارز، كنا نشتريه من المحلات التي تبيع صحون الصيني والاواني الزجاجية.

ـ ويتذكر **كامل القوتلي**: كان بيتنا يتالف من «اوضتين» ودار في الوسط، وما زلت أذكر في غرفة والدي «الشوفنييرا» المفصصة، وهي من شغل الشام، كما كانوا يذكرون أمامي. لها ستة جوارير، ومرآة طولها متران، وأذكر تخت الحديد ذا الاعمدة الأربعة، أما الغرفة الثانية فقد كانت تحتوي على عدد من الفرش «وطبلية» للأكل.

ـ وتمثل دار أسرة **وهيب الترك** نموذج البيت البيروتي لأسرة متوسطة الحال وميسورة.

تمر إليه عبر حديقة مزروعة بالتوت والجميز والمقساس والحنبليس والرمان والليمون والقراصيا.

المنطقة بوابة يعقوب، والتاريخ ١٩٢٤.

قبل أن تدخل، عليك أن تدق الباب بمطرقة على هيئة كف آدمي. تلج الدار، إلى اليمين علقت مرآة وتحتها مشجب للطرابيش والثياب، وتحت المشجب شبه صندوق لتركن فيه عصاك أو مظلتك.

حول الدار ثلاث غرف، أولاها لـ «المونة»، والثانية غرفة العائلة والسهرة، على جوانبها مد من خشب فوقه طراريح من قش، غطاؤها من قماش معرق بالورد، وعلى الشبابيك اسدلت ستائر من نفس القماش.

الأرض مغطاة بالسجاد، وفي زاوية من زوايا الغرفة «وجاق» (مدفأة) لأيام كوانين، حطبة من كسر الصنوبر و«الكنافش» (أكواد الصنوبر الفارغة).

والغرفة الثالثة، كما يتذكرها الترك، كانت مفروشة بطقم «كنابايات» (ارائك) مصنوعة من خشب محفور، ومغلفة بمخمل نبيذي، ومنجدة على الطريقة الإنكليزية، وكانت مساند اليدين فيها عريضة ومريحة.

ووسط الغرفة «اسكملة» اهليليجية الشكل، ارتفاعها نحو ٩٠ سنتيمتراً، خشبها محفور وسطها مفصص بالصدف، وأمام الآرائك أربع «اسكملات» أخرى بنفس المواصفات، لكنها أصغر حجماً.

أما الطابق الثاني فيتألف من غرفتي نوم يصعد إليهما بسلم خشبي من داخل الدار، يتألف أثاث كل غرفة من تختين عاليين، معدنهما من النحاس الأصفر اللماع، والأغطية شراشف من كتان الديما، وبمواجهتهما خزانة من خشب الجوز المحفور، لها بابان وجاروران، وبجانب أحد التختين «شوفنييرا» بأربعة جوارير، وعلى سطحها العلوي قطعة رخام تحمل مرآة مسنودة إلى الحائط، وأمامها «جاط» (إناء واسع الفوهة) في وسطه ابريق مصنوع من البورسلين المنقوش، وإلى يمين الشوفنييرا ويسارها كرسيان من خشب محفور.

ويتذكر الترك أن المرافق الصحية والملحقة بالطابق الأول، كانت تتالف من مطبخ يوصل إليه ممر يفصله عن الدار وكانت هناك غرفة عادية، في إحدى زواياها «مجلى» عبارة عن حوض صخري، يرتفع عن الارض حوالى خمسة عشر سنتيمتراً، تجلس إليه الام على «طبلية»، وفوقه حنفيتان من نحاس، و«مشك» خشبي مدهون، لوضع الصحون والكؤوس، وفي طرفه عمود صغير لتعليق زجاجة القنديل بعد غسلها، وفي زاوية أخرى «منقل» للفحم و«بابور» كاز.

وكان الحمام عبارة عن حوض صخري أيضاً، في وسطه ثقب لتصريف الماء، وبجانبه «خلقين» (إناء كبير من نحاس) وتحته موقد للنار، وهو يمتلى أتوماتيكياً من الخزان الرئيسي للمياه، وتغرف فيه المياه الساخنة غرفاً.

وقبل انتشار استعمال الخزائن في غرف النوم، كان البيروتيون يطوون ثيابهم في صناديق مربعة أو مستطيلة لها غطاء مقبب.

ويتذكر **محمد الحوت** صندوق جدته الكبير، والمصنوع من خشب الجوز، والملبس بالمخمل المحفور والنحاس. أما قطع الثياب الصغيرة او أدوات الزينة و«قرطميز» العطور، فتوضع في «بقجة» ملبسة بمخمل مقصب، كان حكراً على الأسر الميسورة كتخت السبيدران ذي الأعمدة النحاسية والمنتهية بتيجان.

ـ ويحكي **كمال ربيز**: في رأس بيروت كانت البيوت قبل موجة العمران هذه، تبنى من طابق واحد، من دون أساسات، وتعمر بالحجر الرملي، فكان البيت يظل بارداً في الصيف دافئاً في الشتاء.

ـ ومواد البناء الأخرى؟

ـ الملاط من كلس ورمل، والسقف ألواح من الخشب فوقها طبقة من هذا الملاط.

ويصف «الأوضة» البيروتية بأنها كانت ملعباً للخيال، فمساحتها تتجاوز الأربعين متراً مربعاً، وارتفاعها أكثر من خمسة أمتار أحياناً.

ـ ويتذكر **كامل القوتلي**: «سقوف بيوتنا كانت من الخشب «القطراني»، الذي لا «يدق» فيه السوس، ويقوم بتركيبها نجارون مشهود لهم بالقوة».

وجد القوتلي كان من هؤلاء ويروي عن والده أن جد العائلة كان يضع جسر البيت الخشبي على كتف، فيصعد السلم ويضع طرفه على أعلى الحائط، ثم يهبط ليرفع الطرف الآخر لوحده. وذات يوم مرّ به عدد من الجنود الاتراك، تعجبوا «قوتلي.. قوتلي»، وهكذا ظهرت عائلة القوتلي إلى الوجود، من خلال سقوف بيوت بيروت العالية.

منذ زمن رحل الأتراك، تركوا الأسماء حكايات، وعندما زحف الباطون حلت شركات محل الجد.

(اسماعيل الصغير، «السفير»، ١٩٩٠/٥/١٠)

بيروت وأسواقها التسعة



محطة بيروت لانطلاق عربات الديليجانس على طريق بيروت ـ شتورا المرصوفة سنة ١٨٦٠

تتوزع مدينة بيروت القديمة إلى تسعة أسواق تبدأ بما يسمى السوق القديم، القائم حول سوق سرسق ويليها السوق الانيق، (حول سوق الطويلة) ثم سوق التجارة بالجملة شمال شارع ويغان وشرق شارع اللنبي، ثم منطقة التجارة بالجملة ـ الحديثة ـ شمال شرقي ساحة البرج، ويليها سوق شارع ويغان ثم القطاع المبني أيام الفرنسيين حول ساحة النجمة (المعرض)، ثم منطقة اللهو جنوب شرقي ساحة البرج ثم شارع المصارف (غرب ساحة رياض الصلح) ثم الامتداد الجنوبي لطريق الشام مروراً بساحة الدباس.

السوق القديم حول سوق سرسق: كان هذا السوق ذا حجم كبير لكنه تقلص في آخر العهد العثماني عندما هدم القسم الاكبر منه ابان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). يحد هذا السوق من جهة الشرق ساحة البرج، ومن الشمال شارع ويغان، ومن الغرب ساحة النجمة، ومن الجنوب ساحة البرج أيضاً. أكثر المباني الموجودة في هذا السوق مؤلفة من طبقتين ذات نمط تركي، ولكن المباني في القسم الشرقي منه مؤلف من أربع طبقات (بالقرب من ساحة البرج) وهذا القسم بني بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤).

مركز السوق هو سوق سرسق، حيث باعة الأقمشة يتمركزون شمالاً، وفي الجنوب منه باعة الخضر والفاكهة الذين يبيعون بضائعهم على عربات خشبية ثابتة أو متحركة. وكان صراخ الباعة ينطلق مدوياً بشكل ألحان غنائية. هؤلاء الباعة لا يملكون دكاكين خاصة بهم بل يستعملون الشارع العام ويقيمون «بسطاتهم» الخشبية أمام الدكاكين وبين المحلات التجارية مقابل بعض الأجور البسيطة يدفعونها شهرياً. وفي محلات هذا السوق كان يعرض كل ما يطلبه الناس من اللحم إلى الأدوات المنزلية. وبين باعة الخضر والمحلات التجارية قطعان من الأولاد الذين يحملون على أكتافهم أكياس الترابة الفارغة يبيعونها للزبائن، هذه الأكياس كانت تصنع في محلة صبرا جنوب بيروت وتدرّ أرباحاً بسيطة. وكان هذا السوق مرصوفاً وفي وسطه مجاري المياه مكشوفة، وترتفع فوق أبواب المحلات التجارية الخيم لاتقاء الحر أو المطر..

وكانت الزواريب المتفرعة من هذا السوق تحتوي على دكاكين، ومن هذه الزواريب: سوق الذهب (الصاغة) وسوق الأحذية (الكندرجية) وسوق الأقمشة (سوق سرسق)..

في المدة الأخيرة (بعد الحرب الثانية) تغير وضع هذا السوق وانفصلت الدكاكين بعضها عن بعض (إلى حد ما): تاجر الاقمشة وبعيداً قليلاً من متجره الخياط، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصاغة وبائعي الأحذية.

سوق الصاغة (الجوهرجية) يعطينا مزيجاً لعناصر تقليدية

ومبان حديثة ارتفعت فيه بعد الحرب العالمية الثانية، وهي مؤلفة من طبقات عدة، في العليا نجد المصدرين والمستوردين، وفي السفلى الباعة بالمفرق. وحافظ سوق الذهب (الصاغة) على رونق واجهاته القديمة التي تقفل بواسطة ستائر معدنية محاطة ببلاط من الرخام..

السوق الأنيق (الجميل) حول سوق الطويلة: يحد هذا السوق من الشرق شارع ويغان، ومن الجنوب شارع الليمبي، ومن الغرب شارع البطريرك الحويك، ومن الشمال جادة الإفرنسيين.

تغير هذا السوق على نحو جوهري من سوق تقليدي قديم إلى سوق ذي طابع أنيق لاتصاله بالمرفأ والشركات الأوروبية، مما أدى إلى إغراقه بالبضائع والمنتوجات الأوروبية. أما شهرته فقائمة من القرن الماضي (التاسع عشر).

وبالنسبة إلى ما كانه هذا السوق حين كان تقليدياً، فإن أناقته الحدثة جعلته أكثر حيوية. فالأبنية فيه قامت بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وهي ذات واجهات مرتبة على الشوارع ومؤلفة من طبقات عدة، أما طرقاته فمستقيمة ومتوازية، ونتعرف من خلال شارع ويغان وشارع طرابلس وجادة الإفرنسيين في شمال السوق على الدور الذي كان يلعبه.

شيدت المحلات التجارية في أماكنها نظراً إلى حركة المواصلات التي تربط المرفأ في الشرق بمنطقة الفنادق في الغرب. ونجد في جادة الإفرنسيين شركات سفر ومحلات تحف تذكارية ومجوهرات وساعات، بالإضافة إلى تجارة الأدوات الكهربائية وصالات عرض السيارات.

أما شارع طرابلس فكان قديماً محطة لعربات الخيل المنتقلة بين بيروت وطرابلس، ومنذ القرن الماضي أصبح شارع المقاهي والمطاعم وحانات الشاي. ومع اختراع السيارة انتقلت محطة النقل إلى ساحة البرج التي هي أفضل لموقعها في وسط البلد. وهكذا قلت أهمية شارع طرابلس وأصبح يحتوي على بعض مكاتب الصحف، ولكنه لم يتحول مقراً للمؤسسات الصحافية.

شارع البطريرك الحويك: كان في شمالي هذا الشارع مبنى بورصة بيروت والبورصة القديمة، ويقع فيه مطعم فخم (لوكولوس) وتحولت هذه المنطقة إلى مركز لتجارة الأخشاب بالجملة وتجارة الورق والزجاج.

أما سوق الجميل فيقع في وسط المنطقة وهو مؤلف من طريق رئيسي وزواريب تتفرع منه. وعرفت هذه المنطقة تقدماً عمرانياً بعد الحرب العالمية الاولى. وكان سوق الجميل يحتوي على كل ما يختص بالمرأة من الطبقة البورجوازية، اي السكرتيرات ونساء الموظفين. ولذلك أطلق عليه اسم سوق الجميل عند عامة الناس. طابع هذا السوق أوروبي إلا أن بعده عن أحياء الأجانب السكنية جعله مركزاً للطبقة الوطنية من الأهالي البيروتيين، فعرف حركة تبادل ناشطة بين الساعتين الخامسة والسابعة مساء ولاسيما بعد انتهاء الموظفين من دوام عملهم الرسمي في دوائرهم الحكومية. والجدير بالذكر أن محلات هذا السوق تقفل كلياً بعكس واجهات المحلات الأوروبية التي كانت تبقى مضاءة طوال الليل.

أما شارع فخري بك، فهو يربط شارع طرابلس بشارع الليمبي وعرف بتجارة الأقمشة الرجالية، كما اشتهر بالخياطين الماهرين للبدلات الإفرنجية (**وهو المعروف باسم سوق الجوخ**)..

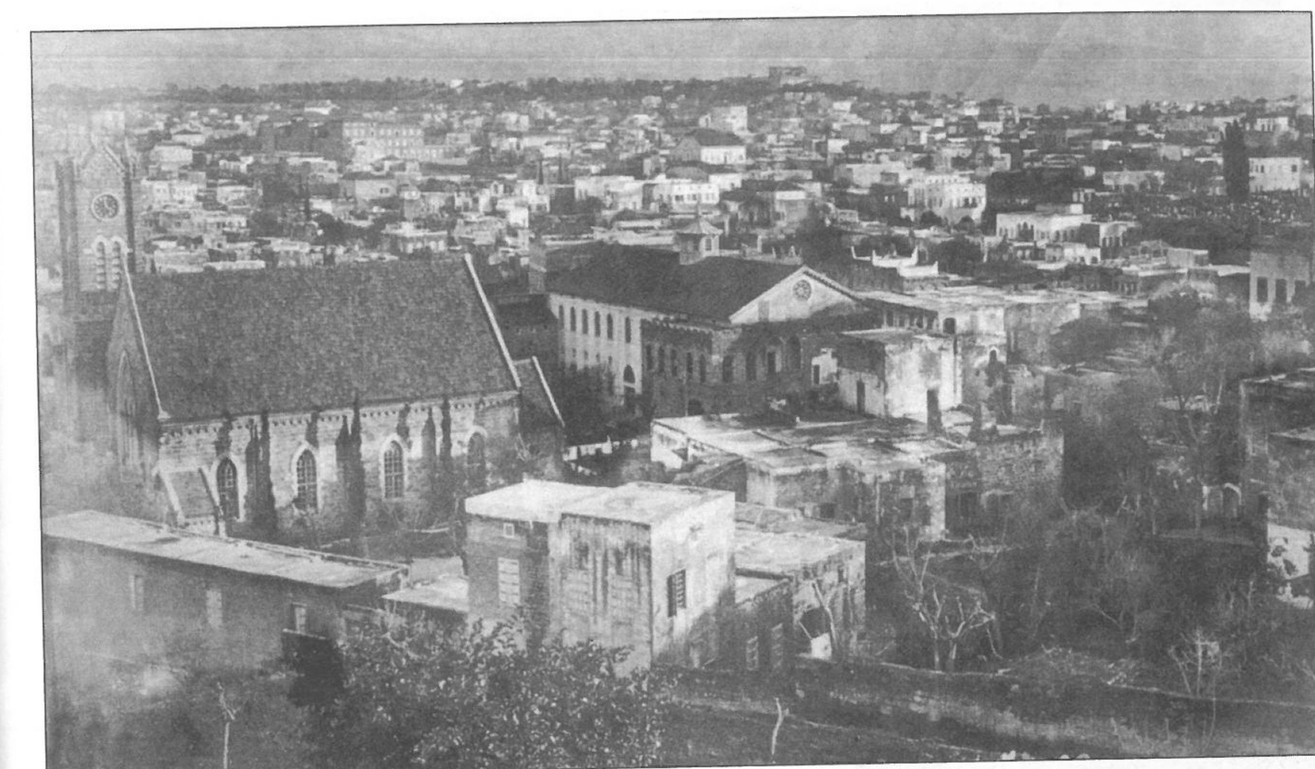
المباني القائمة في هذا السوق متكاملة في ما بينها وأكثرها مكسو بالأحجار الصخرية المشابهة لنوع الحجر الفرني، وتغلب على أبواب محلاتها القباب والقناطر. وهي مقصد الطبقة البورجوازية من تجار الأقمشة المعدة لثياب الرجال الخارجية (الكسوة الفرنسية). **في نهاية هذا السوق من طرفه الشمالي يقع خان أنطون بك** الذي كان مجمعاً من المكاتب الأرضية والعلوية (طابقان في أيام العثمانيين) تضم مكاتب قناصل الدول الأجنبية التي لها سفارات في اسطنبول. وكانت هذه المكاتب آنذاك في الطابق العلوي أما الحجرات السفلى فكانت تستعمل مزارب لعربات القناصل والدواب التي كانت تجر تلك العربات.

منطقة التجارة بالجملة: ويمكن تسمية هذه المنطقة بسوق التجارة بالجملة. يحدها شارع ويغان من الجنوب وشارع الليمبي من الغرب وشارع المرفأ من الشمال، وبناية بيبلوس من الشرق. أصابها ازدهار اقتصادي نتيجة اهتمام الفرنسيين بها بعد الحرب العالمية الأولى. وأزيلت منها الزواريب الضيقة وامتدت بدلاً منها شوارع مستقيمة. والمحوران اللذان يرتبطان بهذا السوق هما شارع الليمبي وشارع فوش اللذان يتأثران بحركة المرفأ لاتصالهما به. لذلك كان فيها شركات بواخر ومكاتب تأمين ومراكز مصارف (بنوك) خاصة، بالإضافة إلى شركات استيراد وتصدير (أهم الشركات البحرية الشركة الخديوية المصرية).

وإذا اتجهنا في هذا السوق من الشمال إلى الجنوب فإننا نجد ازدياداً في عدد مكاتب شركات البواخر والتأمين والاستيراد والتصدير ومستودعات تجارة الجملة. أما إذا اتجهنا شرقاً، أي باتجاه شارع فوش، فنجد تجارة الأقمشة النسائية والألعاب بالجملة. وفي القسم الأوسط تجارة الأدوات والأواني المصنوعة من البلاستيك والزجاج والأدوات المنزلية بالجملة. وفي القسم الأوسط منها أيضاً محلات تجارة المواد الغذائية بالجملة.

أما في شارع فوش نفسه فمركز تجارة المواد الغذائية بالجملة (مال القبان ـ حبوب وقطاني ـ وسمن وزيت وأرز وسكر وطحين) وكذلك محلات تجارة الدهانات والابواب مع لوازمها.

وفي شرق شارع فوش يوجد شارع لبيع الأقمشة (بالوزن)



بيروت عام ١٨٨٠

وكان يسمى سوق الجوب أو **سوق الأوقية** زبائنه من النساء اللواتي يجدن فيه حاجتهن من الأقمشة اللازمة لأثوابهن. وكان يتركز في السوق نفسه بعض المطاعم والمقاهي. وإلى الشرق من سوق الأوقية أيضاً محلات تجارة الفاكهة والخضار بالجملة مع وجود طبقة من الفقراء الذين يصنعون الأكياس والصناديق الخشبية اللازمة للتجار وزبائنهم..

منطقة التجارة بالجملة الحديثة: هذه المنطقة تقع شرق وشمال شرقي منطقة البرج قريباً من المرفأ في الطريق المؤدي إلى طرابلس. وعندما وسع الفرنسيون المرفأ سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٩ وأسسوا المنطقة الحرة سنة ١٩٣٣ ظهرت نتيجة لذلك مناطق جديدة للبضاعة الكبيرة الحجم، من الأخشاب والحديد والأدوات الصحية الكبيرة. وكانت تتواجد محلات الأدوية الطبية وغيرها في شارع الارز المتجه نحو قلب العاصمة (بيروت)، بالإضافة إلى الأفران الصغيرة وبعض المطاعم ومحلات المواد الغذائية. وأصحاب التجارة التقليدية بالجملة أكثرهم من اللبنانيين ويؤلفون وحدة اقتصادية متماسكة من الصعب على الغريب عنهم دخولها أو اختراقها.

لكن منطقة التجارة الحديثة كانت أكثر انفتاحاً وعلى اتصال مباشر بالمعامل والمصانع. والعاملون فيها كانوا في الغالب من الارمن. وكانت عملية تسليم البضاعة من تجار سوق الجملة إلى التجار بالمفرق تتم عن طريق السماسرة، أما البضائع الواردة من الخارج فكانت تسلم عن طريق المستوردين والوكلاء.

لكن هذا الوضع تغير فيما بعد في منطقة التجارة الحديثة عندما صار التجار يتسلمون بضائعهم بشكل مباشر من دون الحاجة إلى مستوردين أو سماسرة، كما أن ارتباطهم المالي كان يتم مباشرة مع بنوك شارع رياض الصلح (الحديث).

شارع ويغان (محوره الأساسي المركزي): هذا الشارع الذي شق إبان الانتداب الفرنسي هو ممر رئيسي داخل المدينة، يتجه من الشرق إلى الغرب ومنه تتفرع أربعة خطوط تؤدي إلى جميع الاتجاهات.

كانت لهذا الشارع أهمية كبرى، في أيام الرومان كان موجوداً ولو بغير شكله واتساعه الحاليين، آنذاك كان يسمى «داكومانوس ماكسيموس» ومعنى هذا الاسم بالعربية المحور الرئيسي من الشرق إلى الغرب. وكان قديماً ـ أيام الرومان ـ يتقاطع مع شارع آخر اسمه «كردوماكسيموس» وهو تقريباً حيث يمتد اليوم شارع اللييمبي الحالي الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب.

هذان الشارعان كانا يشكلان منطقة «الفوروم» الرومانية أي محكمة الشعب. وكانت هذه المحكمة آنذاك قائمة في المكان نفسه الذي يقوم عليه اليوم الجامع العمري الكبير الذي شيد على أنقاض كنيسة صليبية بنيت بدورها على أنقاض المحكمة الرومانية المذكورة، وهذه المحكمة بدورها بناها الرومان أيام فيليب العربي لتكون معبداً للشمس (أو جوبيتر).

وما لبث شارع ويغان أن احتل بين الحربين العالميتين مكانة

رئيسية من الناحية التجارية. وفيه شيد مبنى بلدية بيروت على الطراز العربي الإسلامي الشرقي. وهذا التطور أعطى محلة **باب ادريس** شهرتها كمركز رئيسي للتجارة بمحلاتها الموروثة عن أيام العثمانيين. ومن شارع ويغان انطلقت فروع متصلة بمنطقة باب ادريس في كل اتجاه تقريباً. واشتهرت هذه المنطقة الأخيرة **بسوق الخضر الذي حمل اسم «سوق الفرنج»** لأن زبائنه كانوا من الفرنج الساكنين بمحلة رأس بيروت وميناء الحصن والشوارع المتفرعة عنها. واشتهر في سوق الفرنج تجار الخضر وباعة الزهور والطيور الداجنة الذين كانوا يتأنقون في عرض ما يبيعونه إرضاء لأذواق زبائنهم الفرنج الذين كانوا يدفعون ثمن هذا التأنق عند شراء حاجياتهم بكل طيبة خاطر.

بعد الحرب العالمية الثانية، تراجعت المكانة التي يتمتع بها شارع ويغان عندما انتقلت البنوك (المصارف) منه إلى شارع جانبي ولاسيما بعد ظهور شارع الحمراء العام ١٩٥٢..

سوق اياس: حافظ هذا السوق على بنيته التقليدية التي شيد مبانيها الثري البيروتي الدمشقي الاصل الشيخ محمد سعيد اياس. **ومن طريف ما يروى عن هذا الثري المتدين أنه كان يطلب من العمال أن ينقلوا الحجارة من مكان إلى آخر (من دون هدف) مقابل أجر يقدمه لهم على سبيل الصدقة والمعونة والإحسان.** هذا السوق كان مخصصاً للمشاة فلم تدخله السيارات وكانت محلات التجار فيه مخصصة لبائعي الأقمشة والأغراض التي يحتاجها الخياطون من الرجال والخياطات من النساء. واشتهرت في وسط السوق «**بركة العنتبلي**» التي كانت تقدم لتجار السوق ورواده أطيب الحلويات العربية المصنوعة من الحليب والقشطة وما إلى ذلك من المرطبات المعروفة كالجلاب والليموناضة والسوس. وفي آخر هذه السوق لناحية الشمال، مقابل شارع طرابلس، كان يوجد **مطعم العجمي** الذي اشتهر بتقديم وجبة الصباح من الفول والفته والحمص.. ومن سوق اياس تتفرع مداخل إلى سوق الطويلة عن طريق سلالم حجرية، ومخارج إلى سوق الجوخ عن طريق سلالم حجرية أيضاً.

سوق الطويلة: هذا السوق عرف باسمه الحالي لأنه كان تقريباً أطول سوق في بيروت القديمة. وكان تجاره من العاملين في وكالات الشركات الاوروبية. بطرفه الشرقي كانت تقع **زاوية ابن عراق** التي بناها الصوفي ابن عراق في بداية العهد العثماني. وبطرفه الغربي تقع **زاوية الإمام الأوزاعي** التي بناها آل بيهم في القرن الماضي فوق المكان الذي يعتقد بأنه منزل الإمام الاوزاعي نفسه الذي عاش في القرن الثاني الهجري أيام العباسيين واشتهر بأنه إمام أهل الشام وشيخ الإسلام.

أكثر الابنية الموجودة في سوق الطويلة من الاوقاف التي وقفها أجداد آل عيتاني، وآل الداعوق وآل البنداق وغيرهم..

جادة الإفرنسيين: كانت هذه الجادة تمتد من باب السمطية



باب ادريس وبركة العنتبلي

حتى **مربع الكيت كات.** وكان فيها مستديرة من الحجر الفرني بداخلها حدائق زهرية وقوس تذكاري للجنود الفرنسيين الذين صرعوا في الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م). ومن أشهر المباني الموجودة في هذه الجادة أوتيل النورماندي، ومقهى الحمراء. وبالجهة الشمالية من الجادة تقع المقبرة الإسلامية المشهورة باسم **مقبرة السمطية** التي كانت مدفناً لمن يتوفاه اللـه من سكان رأس بيروت. **وفي هذا السوق كانت أول مدرسة للبنات أسستها جمعية المقاصد الخيرية.**

المجيدية: هو اسم للمسجد الإسلامي الذي كان في الأصل قلعة تحمي بيروت من جهة البحر. وكانت هذه القلعة هدفاً لقنابل الإنكليز والنمسويين والإيطاليين الذين تحالفوا مع الدولة العثمانية لإخراج ابراهيم باشا من البلاد السورية. وطلب أهل بيروت من السلطان عبد المجيد العثماني (١٨٤١) تحويل هذه القلعة إلى مسجد فاستجاب لطلبهم لأنهم حافظوا على ولائهم للدولة العثمانية في حربها مع ابراهيم باشا. ومنذ ذلك الحين حملت القلعة اسم السلطان المذكور وأصبحت تعرف باسم جامع المجيدية نسبة إليه. وبالجهة الشمالية من الجامع تقوم «مينة الخشب» أي الميناء الذي كان ينزل فيه تجار الخشب بضاعتهم عند استيرادها من البلاد الأوروبية..

(الشيخ طه الولي، «الحياة»، ٣/١٠/١٩٩٣)

ترميم الوسط الديني في بيروت

المساجد

١ ـ الجامع العمري الكبير في مقابل بلدية بيروت، ويعتبر أقدم مبنى من الحقبة الصليبية في بيروت، ويقوم على أنقاض كنيسة مار يوحنا المعمدان. وهو مصنف أثرياً منذ ٦٧ عاماً..

٢ ـ في محاذاته تماماً يقوم **مسجد الأمير عساف** الذي شيد عام ١٥٢٣ في القرن السادس عشر زمن الأمير منصور عساف التركماني الذي كان والياً على بيروت وكسروان أوائل العهد العثماني. وعرف أيضاً باسم جامع السرايا كونه سرايا الأمير عساف أو القصر الذي أنشأه الأمير فخر الدين المعني الثاني. بني على قطعة أرض كان عليها مبنى ودير وكنيسة المخلص للرهبان الأسيزيين (الفرنسيسكان) أقيمت في النصف الأول من القرن الثالث عشر. وهو أيضاً مصنف أثرياً، وتمّ ترميمه مرات عدة، آخرها وأكبرها بدأت في أيار عام ١٩٩٦ بتكلفة قدرت بمليون ونصف مليون دولار تبرّع بها الوزير نجيب ميقاتي وطه ميقاتي.

٣ ـ **جامع المنذر**: يقع في شارع المصارف ويعرف أيضاً بـ «جامع النوفرة» لأن نافورة مياه كانت موجودة في صحنه وتستعمل مياهها للوضوء. بناه الأمير منذر بن سليمان بن علم الدين التنوخي عام ١٦٣٣، وتبرز فيه فنون العمارة الإسلامية والشرقية، ويتميز بقببه الأربع عشرة وجدرانه التي تشبه جدران القلاع وتبلغ سماكتها نحو ١,٨٠ متر. كما دفن فيه بعض الأمراء والقادة من بينهم الأمير ملحم حيدر الشهابي وأخوه منصور وغيرهما. أعيد ترميمه وافتتاحه في حزيران ١٩٩١، وتبرّع بالقسم الأكبر من التكاليف في حينه جمعية المقاصد الإسلامية.

٤ ـ **جامع أبو بكر الصديق** في آخر شارع فوش، أنشئ عام ١٩٣٢ بدلاً من جامع الدباغة الذي كانت بلدية بيروت قد هدمته عند تأهيل الشوارع. وتمّ تأهيله وأعيد افتتاحه في نيسان عام ١٩٩٩، وتبرّع بتكاليفه محسن من آل طبارة.

٥ ـ **جامع المجيدية** في شارع المرفأ، وكان في الأصل قلعة بحرية تمّ تحويلها مسجداً عام ١٨٤٤ أيام السلطان عبد المجيد، فاكتسب تسميته منه. تعرض أثناء الحرب إلى أضرار بالغة جعلت مديرية الأوقاف تعيد بناءه مجدداً، وتبرع بالتكاليف محسن من آل الحيساوي.

٦ ـ **مسجد الأمين** في ساحة الشهداء، يعتبر الأغلى تكلفة بين دور العبادة إذ رصد له مبلغ عشرين مليون دولار، كونه يشهد أعمال إنشاء وليس مجرّد ترميم. وبعيد انتهائه سيكون من أكبر المساجد في منطقة الشرق الأوسط من حيث ضخامته وعدد مآذنه.. أشغال الإنشاء تتقدم فيه بسرعة لافتة، وتبرعت «مؤسسة الحريري» بتغطية التكاليف كاملة، ويقال أنها وضعت بتصرف مديرية الأوقاف ٢٠ مليون دولار لهذه الغاية.

الكنائس

ـ كنيسة جميع القديسين الأسقفية، أو الكنيسة الانغليكانية، كما هي معروفة، تقع قرب السان جورج، وهي من أولى الكنائس التي تم تأهيلها وإعادة ترميمها في منطقة الاسواق عام ١٩٩٢، بحلة بيضاء قشيبة أزالت عنها سواد الحرب. بنتها الجالية البريطانية، ووضع الحجر الأساس أسقف مدينة لندن وينغتون انغرام في ٢٤ آذار ١٩١٢. قدرت تكاليف ترميمها بـ ٢٥ ألف دولار قدمها أبناء الرعية ومجلس كنائس الشرق الأوسط، ومطرانية القدس والكنيسة الأسقفية في الشرق الأوسط.

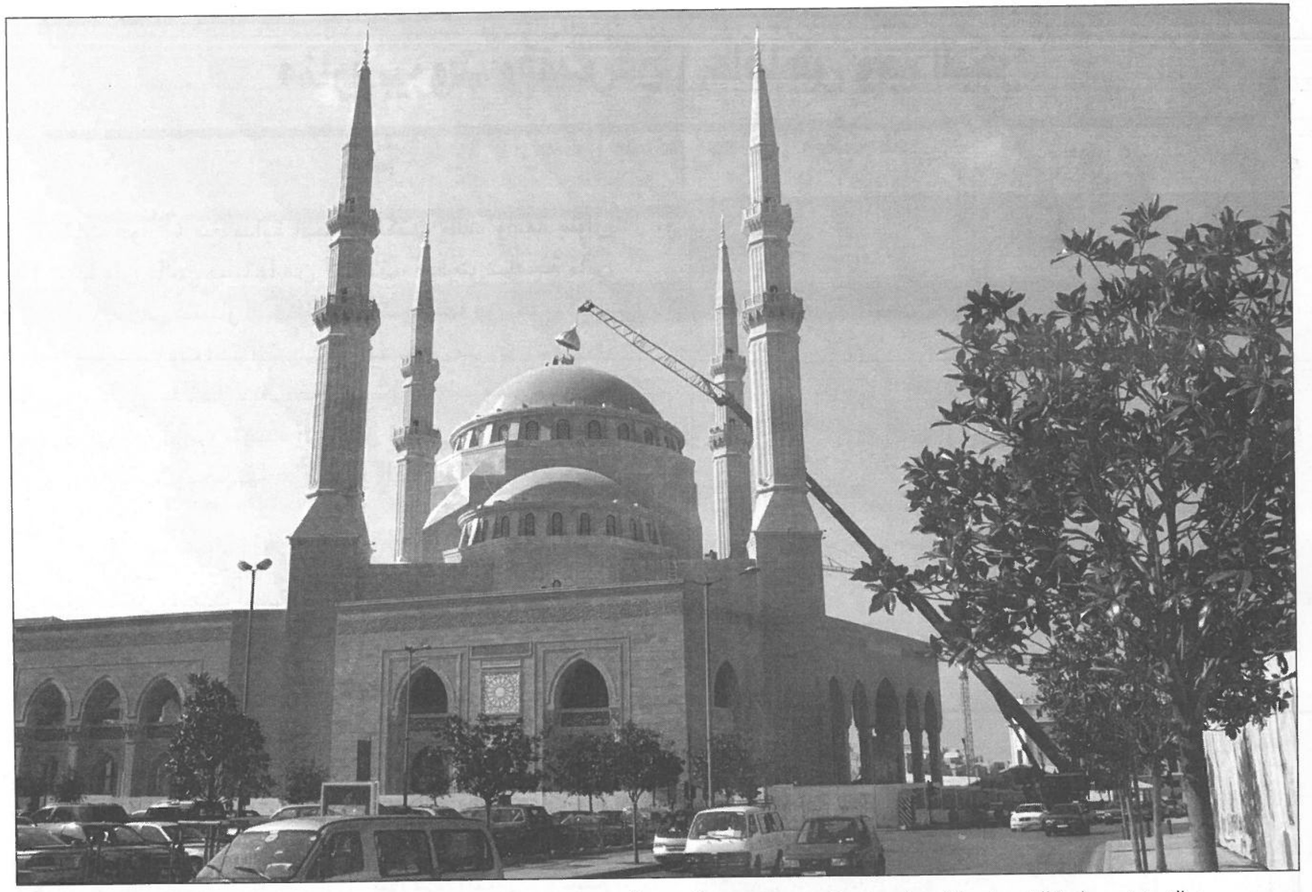
ـ الكنيسة الانجيلية الوطنية، تمّ افتتاحها في آذار ١٩٩٨ في الذكرى المئة والخمسين لتأسيس الرعية الانجيلية. وتتميز ببرجها الذي تزينه ساعة كبيرة، ويضم صندوقاً حديدياً يحوي مجموعة من الأشياء التي تعكس هوية الكنيسة الانجيلية وأهدافها، وهو الأثر الوحيد الباقي من الكنيسة الأصلية التي بنيت عام ١٨٦٩، وتعرضت خلال الحرب إلى الحريق والدمار. بلغت تكاليف إعادة البناء مليون و ٨٠٠ ألف دولار تبرعت بـ ٧٥٪ منها الكنيسة وأبناؤها والبقية من كنائس شقيقة في ألمانيا.

وللموارنة كنيستان في وسط بيروت: الأولى، كنيسة مار جرجس للموارنة في شارع المير بشير والتي عادت أجراسها تقرع في ٢٤ نيسان ٢٠٠٠ معلنة عودة الحياة إلى أحد أعرق الصروح الدينية وأقدمها في بيروت والتي يعود عمرها إلى ١١٨ سنة خلت. استوحي تصميمها من تصميم كنيسة «ماريا ماجوري» في روما، ودشنها المطران يوسف الدبس في ١٨ آذار ١٨٩٤. لم تنته أشغال الترميم وإعادة البناء كلياً بعد، علماً أنه يتم تجديد كل معالمها الداخلية والخارجية. والمشروع يضم طبقة سفلية يقام فيه متحف للتراث الماروني، ومتجر لبيع المنتجات الحرفية واليدوية، وصالة محاضرات. وتبلغ تكاليف الترميم الإجمالية نحو خمسة ملايين دولار يتبرع بها أبناء الرعية وأثرياء من الموارنة.

والثانية، كنيسة مار الياس في القنطاري التي بناها أيضاً المطران يوسف الدبس أوائل القرن الفائت على أنقاض كنيسة قديمة تعود إلى القرن السابع عشر. بعد الحرب أقيمت بعض أشغال التأهيل الضرورية مما سمح بعودة المؤمنين والصلاة في أرجائها.

ـ طائفة الروم الأرثوذكس تملك في ساحة النجمة كاتدرائية القديس جاورجيوس ومزار سيدة النورية (يقع في محاذاتها) الذي سرق واحترق ودمر كلياً وتجري حالياً إعادة بنائه، وهو مدرج في لائحة الجرد العام للمباني الأثرية.

تعتبر كاتدرائية القديس جاورجيوس «أم الكنائس» في



مسجد محمد الأمين في ساحة الشهداء، والذي بات يضم في حرمه ضريح الرئيس الشهيد رفيق الحريري.

بيروت. تم تدشينها عام ١٧٧٢، وتقوم على أنقاض ثلاث كنائس أقدمها من الحقبة البيزنطية. كانت تعد من أغنى كنائس الشرق الأوسط وأعظمها لما تحويه من تحف وأيقونات وجداريات رائعة وأيقونسطاس فريد من خشب الجوز حفرت عليه لفائف من الذهب. بدأت أعمال الترميم والتنقيب الأثري عام ١٩٩٤، وأقيمت الصلاة فيها للمرة الأولى في ٢٢ نيسان ٢٠٠١ يوم عيد شفيعها.. وتقدر تكاليف إعادة التأهيل بما يفوق الخمسة ملايين دولار يتبرع بها أيضاً أبناء الطائفة والمحسنون.

في محاذاتها تقوم **كاتدرائية مار الياس للروم الكاثوليك** التي تعود إلى عام ١٨٤٩، وقد شيدت على أنقاض كنيستين. قامت فيها إسبارات أثرية، وفكرة ترميمها موجودة لكن يبدو أنها تتعثر لأسباب مادية.

ـ طائفة اللاتين تملك في وسط العاصمة كنيستان: الأولى، كاتدرائية مار لويس للرهبنة الكبوشية في باب ادريس، التي أعيد افتتاحها في ٣ كانون الاول ٢٠٠٠ بعد أعمال ترميم دامت نحو سنتين. وكان قد وضع الحجر الأساس لها في ٢ آب ١٨٦٤، وتعتبر واحدة من أجمل كنائس بيروت، وقد خطب فيها الإمام موسى الصدر. جاوزت تكاليف ترميمها النصف مليون دولار ولم تنته بعد، وساهم فيها أفراد ومؤسسات وشركات من طوائف مختلفة.

والثانية، كنيسة اللعازارية التابعة لجمعية «مار منصور دي بول»، وتجري الآن التحضيرات والاستعدادات لإعادة بنائها، علماً أنه لم يبق من مبناها سوى بقايا من الهيكل الخارجي.

ـ للأرمن الكاثوليك أيضاً صرح ديني واحد هو كنيسة مار الياس القريبة من ساحة الدباس والتي لم تتعرض إلى أضرار بالغة رغم وجودها على خطوط التماس. أنشئت عام ١٩٥٠، بنيت بالحجر الأبيض، وتتمتع بهندسة مميزة قل مثيلها، مساحتها واسعة جداً، وتتميز بوجود تابلوهات كبيرة وضخمة.

وهناك أخيراً **كنيسة مار نيشان للأرمن الأرثوذكس** التي أنشئت عام ١٨٢٣ ورممت مرتين. لم تصبها الحرب أيضاً بأضرار بالغة لكن تجري حالياً أعمال لإعادة تأهيلها.

كنيس: كنيس اليهود المعروف في وادي أبو جميل لا يزال قائماً، لكنه مقفل ومهجور. فالخراب واضح على معالمه، وقرميده مهدم، والعشب البري ينتشر في أرجائه، إلا أن بعض كتابات عبرية لا تزال موجودة على بعض أجزائه. وهذا الكنيس الذي أنشأه الياهو ساسون عام ١٩٢٦ هو الوحيد الباقي من بين ما يزيد على ١٥ كنيساً صغيراً كانت موجودة في بيروت في غرف ملحقة بالمدارس والبيوت دمرت جميعها، بعدما غادر لبنان آخر حاخام للطائفة اليهودية عام ١٩٧٥.

(مي عبود أبي عقل، «النهار»، ٢٠٠٤/١/١٦)

منارة بيروت وقفت ١٥٠ عاماً في وجه البحر

انطفأت أنوارها مع بداية الحرب، لكنها ظلت واقفة طوال ١٧ عاماً وإن نالت حصتها من القذائف، وبقيت شامخة تأبى الانحناء ربما في انتظار اللحظة التي تشع فيها من جديد.

إنها منارة بيروت أحد الشواهد المتبقية من بيروت القديمة، والتي يساوي بقاؤها عند أهالي منطقة رأس بيروت بقاء صخرة الروشة. وهي مهددة الآن بأن تختفي وراء بناء يرتفع فوق مصابيحها ويحجبها عن البحر الذي تواجهه منذ ١٥٠ عاماً تقريباً.

هذه المنارة التي كان لها دور بارز في حركة الملاحة البحرية وإرشاد السفن، انست أيضاً الناس بنورها وأصبحت جزءاً من حياتهم اليومية.

قصة إنشاء المنارة رواها لنا مختار رأس بيروت محيي الدين شهاب فقال: «إنها بنيت عام ١٨٤٠ خلال الحكم التركي وكان ارتفاعها ٢٥ متراً، وذلك بعد ازدهار حركة مرفأ بيروت وتطورها في شكل تساوى مع تطور مرفأ حيفا في فلسطين، **وتلبية لرغبة الحكومة الفرنسية التي طلبت من الباب العالي إقامة منارات على طول سواحل لبنان وفلسطين وسوريا بغية توجيه السفن التجارية التي كان يعتمد ربابنتها على رؤية رؤوس اليابسة بالعين المجردة تجنباً لحصول اصطدام باليابسة. وهكذا حصل، ووافقت الحكومة التركية على إنشاء منارتين إحداهما في بيروت والأخرى في حيفا.**

وأضاف: «لهذه الغاية حضر إلى لبنان وفد من الخبراء الفرنسيين أشرف على بنائها فوق هضبة مرتفعة في رأس بيروت تشرف على المرفأ والبحر في آن معاً. وكانت المنارة التي وصل ارتفاع عمودها إلى ٢٥ متراً النقطة الأكثر ارتفاعاً في رأس بيروت تحوطها البساتين من كل الجهات. وكانت أدراجها ضيقة وصغيرة تم تشغيل نورها على الكاز ووضعت في برجها العالي رقاقات زجاجية تعكس النور. وعين الأتراك آنذاك مسؤولاً عن المنارة من آل الرجي أدارها ما بين عامي ١٨٤٠ و١٨٥٥ ثم تسلمها من بعده انطوان شبلي ثم ولده جوزف ويديرها اليوم حفيده فيكتور».

يسكن فيكتور شبلي مع عائلته في الطابق الأول من المنارة وهو المنزل الذي سكنه والده وجده من قبله. يخبر أن «المنارة» استمرت تعمل في شكل طبيعي ومنتظم حتى عام ١٩٥٢ موعد حصول حادثة غرق الباخرة الفرنسية شامبوليون التي أخطأت الباخرة بين منارة مطار بيروت الدولي وبين مرفأ بيروت فانحرفت عن خط سيرها واصطدمت بالصخور. حينها

منارة بيروت

تدخلت الدولة الفرنسية وقررت تسليم إدارة مصلحة النقل البحري والبري إلى الحكومة اللبنانية ومن ضمنها منارة بيروت. **بعد هذا الحادث قررت الحكومة اللبنانية هدم المنارة القديمة وإنشاء أخرى تعمل على الطراز الحديث. انتهى العمل في بنائها أواخر ١٩٥٧**، ووصل ارتفاعها إلى ٥٠ متراً واستقدمت معداتها من فرنسا، وهي تعمل على الكهرباء. وكان نورها يغطي ما مساحته ٣٣ ميلاً بحرياً من الضوء وهي مطلية باللونين الابيض والأسود المعترف بهما دولياً».

أضاف: «تسلمت إدارة المنارة عام ١٩٧٣، ومع نشوب الحرب توقفت عن العمل، فانطفأت أنوارها نهائياً وأثناء الاجتياح الإسرائيلي تعرضت أجزاء منها للقذائف التي شوهتها، وما لبثت وزارة الاشغال العامة أن رممتها..وفي عام ١٩٩٤ أعيد ترميم المنارة بتمويل فرنسي، وأصبحت تعمل بواسطة الكومبيوتر، فاستعادت الحياة، وهذا الحدث شكل محطة مهمة لسكان منطقة رأس بيروت الذين وجدوا في عودتها إحياء للزمان الغابر».

(ريما صوايا، «النهار»، ٣٠/١٠/١٩٩٩)

رحلة في ذاكرة بيروت
السمكة الأولى تشدّ الصياد فيدمن



مرفأ عين المريسة

بينهم وبين البحر «عشرة» عمر، تحدثوا عنه، فكان واحدهم قيس، والبحر ليلاه، منهم من جاور البحر منذ طفولته فصار البحر عالمته ورئتيه التي لا يستطيع التنفس من دونهما، وآخرون أتوه على كبر، فندموا على ما ضاع من العمر..إبراهيم شهاب وعبد الله عباس وحسن وهبي ثلاثة بحارة «تملحت» أقدامهم والزغب ما زال عليها، شبوا وشابوا وهم في حضن البحر..

يقول **حسن وهبي** «عندما يقول البحري إنه لا يستطيع العيش بعيداً عن البحر، فهو صحيح.. صحياً، لا بد لي من تنشق هواء البحر، وإلا فيجب علي تناول كمية محددة من اليود للتعويض».

قلت اسأل **إبراهيم شهاب** «ما الذي تغير في البحر عن أيام زمان»؟ قال «البحر لم يتغير، الناس تغيرت، قديماً كان السمك كثيراً، ولم يكن هناك ديناميت، نرجع من الصيد ونعبئ السمك بالسلال والكلغ بليرة، ولا يوجد من يشتري، كان السمك طعام الفقير، أما اليوم فكلغ اللقز بأكثر من اثني عشر ألف ليرة».

يقولون أن البحر غدار، فكم مرة خانك؟

«مرات، أذكر أنني كنت في الصيد فطلعت ريح و«هاش» البحر واستطعت أن أحتفظ بالمركب لأكثر من ساعة، لكن الموج غلبني وقلب المركب بي، وحملتني الأمواج حتى ميناء صيدا»..

كان شهر تموز، والقمر طالعاً، وكانت الساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل. يومها، كنت حديث العهد بالبحر، وكنت مع شريك لي، نبعد عن الشاطئ حوالى خمسة أو ستة كيلومترات، فجأة، انطلق صراخ كالنواح في البحر. «البحر شايفنا» لكن لا أحد على صفحة الماء، والحقيقة إننا فزعنا، وصرخ الذي معي وهو يشير بيده نحو رأس يرتفع فوق الموج ثم لا يلبث أن يغطس،

وكان الصراخ يأتي من هناك، لقد كان من المستبعد أن يكون إنساناً. هكذا قلنا، فتركنا الصيد، وصرنا نجذف إلى أن وصلنا إلى مراكب صيادين يضيئون قناديل، حكينا لهم، فقالوا هي فقمة ضلت الطريق».

وعبد الله عباس، من الذين ناداهم البحر باكراً، يقول «منذ طفولتي الباكرة، وأنا أذكر نفسي حافياً على البحر، عشت على شاطئ الكرنتينا بين «البحرية». قذف بنا أهلنا إلى البحر فتربينا فيه مثل «بزرة» السمك، وتعلمنا البحر لوحدنا، وصرنا نعمل «فلايك» وشبكت وننزل إلى الصيد». وأنت تسمع حديثهم عنه، يتراءى لك ذلك العالم المائي كنزاً مرصوداً، بل كائناً يعرف، النوايا، يحب ويكره، يقبل ويصد، يفيض ويبخل، فأبو ناجي الصياد العتيق، الذي تربى على الموجة، وأصبحت الأعماق بالنسبة إليه ككتاب مفتوح، يمد إليها بالخيط والصنارة وينتقي منها السمكة التي يريد فيصطادها، لأنه يعرف «أصلها وفصلها»، من «نقرة» الطعم.

هكذا، ببساطة ينتقي البحر عشاقه، يعطيهم من طرف لسانه حلاوة وبعدها تمتزج لقمة العيش بالعشق، والمرارة بالحلاوة، وهكذا بدأ أبو ناجي طريق الاحتراف «ضربت» معه السمكة الأولى، وعندما تضرب يقع المحظور، وليس لسحر البحر من راد أوفكاك..ويتحدث «أبو ناجي» كيف كان الصياد قبل انتشار أدوات للرصد الجوي يعتمد على نفسه وخبرته لمعرفة حال الطقس قبل الخروج إلى البحر، أو التنبؤ بالأحوال التي سيصير إليها وهو في الماء، ويصوغ كل ذلك بأمثال يسهل حفظها.

«إذا بالبر شلق بالبحر علق» (طقس عُبوق)، وهذا يعني أن حال البحر ستتغير في الليل إلى سيىء.

وداخل البحر؟ الأساس أن يتعرف الصياد إلى اتجاهات الريح والتغيرات التي تطرأ عليها، يصبح عنده بالخبرة ما يشبه الرادار، فهو يعرف أن ريح الشمال عندما تنفخ في الصباح ستهدأ و«تبيّت» عند المساء وتهدأ، والريح الغربية عندما تكون «ارماني» (تندف الموج كالقطن) فحال البحر لا تخيف الصياد، بعكس هبوبها من «القبلي» (الجنوب)، إذ تعقبها عاصفة.

وكيف يتم تحديد الاتجاه الذي تأتي منه الريح؟ يبلل الصياد رأس أصبعه بالماء، ويرفعها إلى ما فوق رأسه، والجهة التي تجف منها قبل غيرها ويشعر فيها ببرودة زائدة تكون هي جهة هبوب الريح.. والصيد له مواسمه، أكبرها وأغناها ذلك الذي يمتد من حزيران إلى أيلول، و«أنشفها» في كوانين وشباط، وعندما «تدقر» السمكة (يقل تواجدها) في مواسم «البخ» (وضع البيض) «فتشخرب» بين الصخور طلباً للأمن والامان.

ولانه لا يمكن لـ «برّي» أن يعلم «بحرياً»، فإنه من الصعب الجزم أين بدأت عادة «علف» الحيوان وتدجينه سمكة كان أم معزاة.

ومعلف البري حيز فيه حبوب وتبن، أما معلف البحر فسمك لسمك وكما يصفه أبو ناجي نقطة في بحر. يرمون عندها يومياً سمك السردين لمدة شهر، ويتم تعيين مكانها بواسطة «نيشان» عائم، يتدلى منه شريط فولاذي ينتهي بثقالة كي لا يغير الموج مكان النيشان، وإلى هذا المعلف يطلع البحارة فيصطادون عليه موسماً بكامله قد يستمر إلى ثلاثة أشهر.

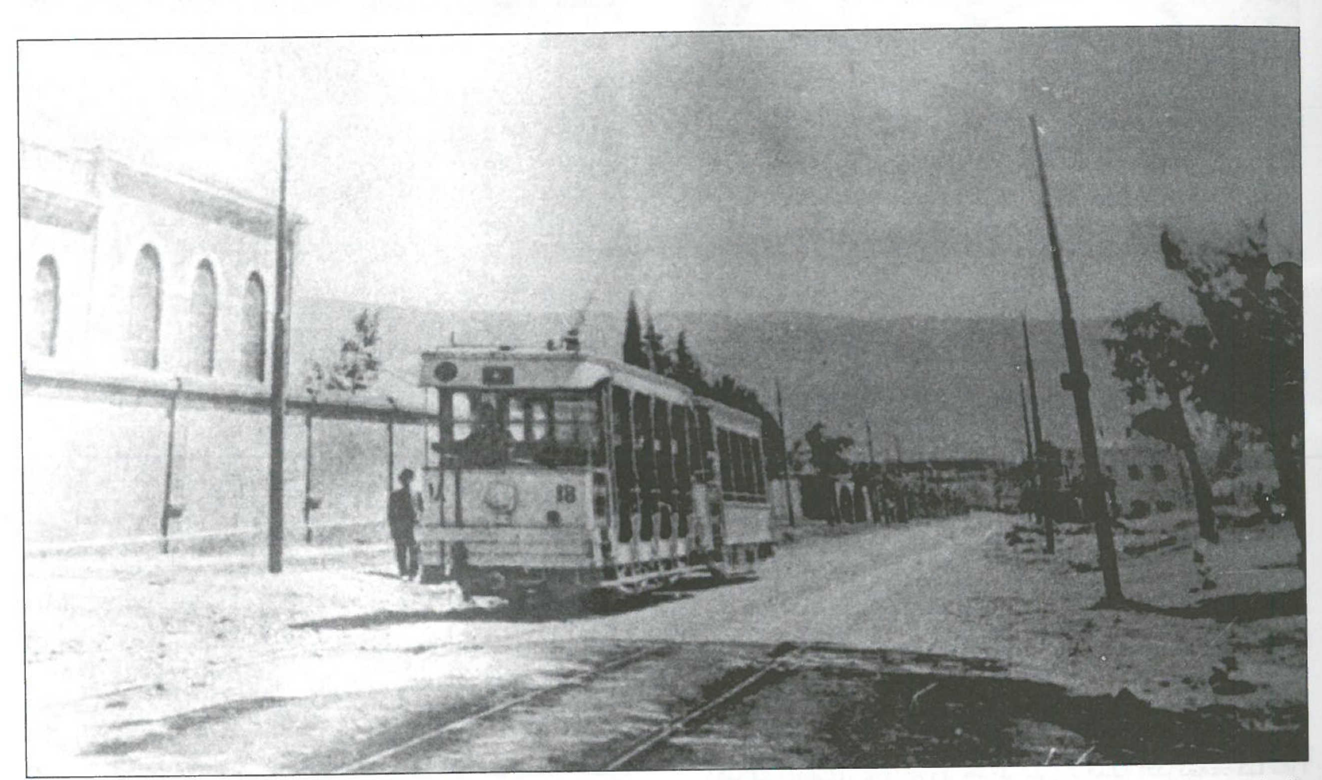
وإذا لم يغدر البحر والموج، فقد يغدر الأصحاب والخلان. ففلان يغار من معلف فلان، فيأتيه ويغير مكان «النيشان»، وبذلك يصبح حال صاحب المعلف، كجحا الذي علم مكان نقوده بغيمة كانت فوق رأسه..

عندما يطلعون إلى البحر يتوحدون معه، ويصفون كيف يصلهم حديث البر، فصوت البر «يودّي» أما البحر فيحتفظ بأشيائه، لا يبوح بأصواته إلا لهم، وعندما يبدأ الصيد تبدأ شراكة العمر. فـ «يوم جوعة ويوم شبعة»، وإذا بخل و«دقرت» السمكة ينتظرون عودة الطيبة إلى قلبه، فيرحلون إليه، ومع دغشة الفجر تنداح على الشاطئ «هيلا هيلا هيلا»... موتورة مشدودة..هذا الشاطئ باستطاعته أن يطعم عشرات الآلاف من الناس. ليتحاربوا فهذا شأنهم، ولكن ليدعوا السمك ينمو ويكبر كي يأكلوا ويتابعوا الحرب غير جياع، بحرنا صار صحراء.

حسن وهبي الصياد العتيق، عمره سبعون عاماً، ويومياً يجن في دمه حنين البحر، يناديه فيعود إليه، ولأنه جار لـ «فندق السمرلند» فقد خدمه الحظ فهناك، ومن دون لافتة «ممنوع تفجير الديناميت تحت طائلة المسؤولية»، يسرح السمك ويمرح، وعلى «جريرة الورد يشرب العليق».. ونيّال السمكة التي لها معلف قرب «السمرلند».

(اسماعيل الصغير، «السفير»، ١٨/٥/١٩٩٠)

ثلاثينيات بيروت في ذاكرة عماد الصلح
ترامويات وسينما واضرابات



ترامواي بيروت

طرابيش: كنا ونحن تلاميذ في المدرسة العلمانية الفرنسية (اللاييك) نضع طرابيش على رؤوسنا. وأظن أن تلاميذ اللاييك كانوا بين أول من خلع الطربوش، وبين أول من شرع يأتي إلى المدرسة من غير جاكيت. أنا كنت في الثانية عشرة حين خرجت مرة إلى الطريق من غير طربوش. انتبهت للأمر وشعرت كأنني حافي القدمين، فرجعت راكضاً إلى البيت. في أوائل الثلاثينات شاع التخلي عن لبس الطربوش فلبس بعض الناس قبعة قش على مثال المغني الفرنسي موريس شوفالييه. كذلك شاع التخلي عن لبس الجاكيت. كنا نعقد الكرافات أو البابيون من غير فرض، صيفاً وشتاء. **في بادئ الأمر أثار التخلي عن الطربوش والجاكيت استهجان كبار السن واستغرابهم.** في إحدى المرات كنت واقفاً عند محطة المدرسة فرآني ابن عم لي وصل لتوه من الشام وكنت حاسر الرأس، فسألني عن طربوشي وعرض علي، قبل أن يسمع جوابي، أن أستعير طربوشه، فلما أخبرته أنني لا ألبس طربوشاً نبهني إلى أنه علي، إذا أتيت الشام، أن أضع الطربوش على رأسي. كنا نكوي الطرابيش عند الحلاقين، وكان شكري السمن يكويها في محل مشهور قرب ساحة البرج. إلا أن الصنعة تراجعت مع ترك الطرابيش. **بدا ترك الطرابيش مظهراً من مظاهر الانتقال من حال إلى حال في كل المجالات. فالعمارة انتقلت من أبنية الطابقين والحجر الرملي والقرميد إلى بناء ثلاث طبقات أو خمس بالباطون.** دخلت التدفئة على عدد قليل من البيوت، ومع التدفئة المصعد. وقبل التدفئة كان أهل بيروت يتدفأون على مناقل فخمة. ولبست النساء ما كانت النساء الفرنسيات يلبسنه. وما كانت المجلات في محلات الخياطة تنقله من أزياء فرنسية. لكن النقل لم يكن تقليداً خالصاً، فكان الخياطون يبدلون في الألوان وفي علو الخصر وانخفاضه، وفي طول الفستان الذي كان ينبغي ألا يعلو الكاحل بأقل من شبر..

التليفونات: كانت قليلة ودليلاً على وجاهة لا يقدر عليها إلا أصحاب النفوذ. اقتصرت بادئ الأمر على المكاتب وبعض

البيوت، ولم تتخذ في البيوت وتنتشر إلا منذ الاستقلال. دهشنا في إحدى المرات حين أتت امرأة من حيفا وأخبرت أنها تلفتت إلى اللحام، فسألناها إذا كان عند اللحام تليفون.

وسيلة النقل الأولى كانت الترامواي، ثم أخذ السرفيس ينتشر شيئاً فشيئاً بعد مقاطعة شركة الترامواي. لم تنقرض العربات مع استعمال الترامواي والسرفيس. وبقي الطنبر وسيلة لنقل الحاجيات حتى الأربعينات. لم يحجم أحد من الأهالي عن ركوب الترامواي فركبه الوزير والزعيم والأديب وعامة الناس. ثم عمدت الشركة إلى الفصل بين درجتين من الركوب: البريمو، والدرجة الثانية. جلس الميسورون على مقاعد القش في البريمو من غير إقامة فاصل أو حاجز بين الدرجتين. كنت أستحي من أخذ تذكرة بريمو وأنا تلميذ صغير، وكان الراكبون يختلفون من خط لآخر. فيركب خط فرن الشباك موظفون أنيقون ونساء مهندمات ويسود صمت من غير ألفة بينهم. أما من ساحة البرج إلى البسطة فكان يركب الناس مع عوائلهم وهم لحامون وبائعو خضار وأصحاب مصالح في المدينة، ويأخذ بعضهم عشاءه معه بعد إغلاق محالهم باكراً بين الثالثة والرابعة بعد الظهر. سمة خط رأس بيروت الاختلاط الطائفي والجنسي. وكان يحرص جابي الترامواي على منع حاملي السلال الكبيرة من الصعود إليه. ساعات الازدحام بين السابعة والنصف والتاسعة صباحاً، وعند الظهر والمساء. كنا نقف عندما تكتظ الحافلتان بالركاب ونخلي مقاعدنا للنساء. **كان الركوب نزهة فيركب من غير وجهة معينة من لا يريد العودة إلى بيته، وخط النزهة المختار هو خط المنارة - فرن الشباك، جيئة وذهاباً.** ولم تلبث أن نشأت حول المحطات محلات تجارية، لاسيما حول محطة الناصرة ومحطة الديك.

لم يكن أكل **الفلافل** رائجاً بل اقتصر على محل صهيون في كركول الدروز. وحين نشأت محلات السندويش في ساحة البرج اقتصر الأكل منها على الساهرين وعلى من لا عائلة له. انتشرت المطاعم في ساحة البرج وأولها **مطعم أبو عفيف ومطعم عارف وقهوة النجار، وعرف مطعم طانيوس في باب ادريس والمطعم العربي عند الريفولي، لاحقاً، ومطعم العجمي في وادي أبو جميل.** وكانت محلات الفوالين في أحياء السكن وقد غلب أكل الفول على ترويقة أهل البلد. أما الآتي من خارج المدينة فكان الفول غداءه وعشاءه. ومعظم الوافدين من الجنوب أو الجبل أو زحلة حيث لا يعرفون الفول وطريقة إعداده. وكان سعر الفول معتدلاً. **وقد غنى عمر الزعني:**

بعشرة فول بخمسة زيت

كنت تعشي بيت..

سينما: لا أذكر متى بدأت السينما الناطقة، لكنني أذكر عدداً

عمر الزعني

من الصالات في شارع بشارة الخوري وفي مبنى هدمه سامي الصلح. **هذه الصالات هي: الأمبير، الأوبرا، الغراند تياتر، الرويال.** بقي الغراند تياتر على حاله، كذلك الأوبرا، تغيرت صالة الأمبير قليلاً، أما الرويال فهدم. دخلت مرة إلى السينما في ١٩٢٣ وذلك في صالة اسمها «الباتيه»، وكان الشريط صامتاً. ومن بين آخر الأفلام الصامتة التي شاهدتها، وهو أكبرها وأهمها، عنوانه «لا جديد على الجبهة الغربية». كنا نقرأ الإعلان عن الفيلم في الجرائد، فنختار تبعاً للممثل والممثلة في المرتبة الأولى، ثم تبعاً للغة الفيلم إذ لم تكن بدأت الترجمة بعد. أذكر من الممثلين الفرنسيين الممثل جان مورا والممثلة ماري بل التي أتت إلى السينما من مسرح الكوميدي فرانسيز، وهي ممثلة عظيمة.

أهم فيلم شاهدته في تلك الأيام هو «متروبوليس» الذي أخرجته بريجيت هيلم، وأذكر اسم المخرجة لأن هتلر وظف بريجيت هيلم مساعدة لغوبلز في وزارة الإعلام. وما كان يستوقفنا في الأفلام براعة الإخراج وطرفة الموضوع. فنحن من أبناء أواخر العهد الرومنطيقي وأثر الأغاني الرومنطيقية فينا عميق. أغاني أديث بياف مثلاً كانت عميقة التأثير فينا. وكنا نتبادل الرأي في الأفلام وتدور مناقشاتنا على مواضيعها. تعمد الفرنسيون أن يأتوا بأشرطة تبث دعاية ضد الألمان، إلا أن ذلك لم ينطل على الناس. وشركات السينما لم تكن خاضعة للإعلام الموجه. كنا نقرأ بعض ما ينقله كتاب وصحافيون في «الحياة» أو «النداء» عن مجلات فرنسية تتناول الأفلام بالنقد والشرح، لكنني لا أذكر أن كاتباً محلياً كان يتناول بالنقد عملاً سينمائياً..

قبل الحرب الثانية كانت صلة السينما بالسياسة ضئيلة، ثم صارت متينة شيئاً فشيئاً بعد الحرب. المتفرجون في الصالات كانوا من الجنسين، من غير أن يثير ذلك مشكلة أو لغطاً. وكانت الصالات تمتلئ بالمشاهدين غالباً. في الروايال اقتصرت التذاكر على الصالة دون البلكون، أما الأمبير فكان فيها بلكون وصالة، وكذلك في الغراند تياتر. كنا نعجب بالممثلين والممثلات من غير شراء صورهم أو الاحتفاظ بها، أو لصقها في دفاتر. وكنا ننتظر بلهفة المجلات السينمائية المجلوبة من فرنسا مثل «سيني موند». ومن بين رواد الصالات نساء محجبات، وهذا ما كان يثير استهجاناً من غير مبالغة. ومن يريد أن يأكل البزر كان يذهب إلى سينما كريستال، وفي وسعه أن يطلب ليموناضة أثناء العرض. أما النارجيلة فكان طلابها قلة.

في ١٩٢٥ افتتحت سينما تدعى الـ «**كوسموغراف**». كنا نرتادها لرؤية المتفرجين دون الأشرطة التي تعرضها. كان يعلو صوت المتفرجين بطلب المرطبات والنار للنارجيلة وبالتعليق على أحداث الفيلم. لم تثر الأفلام نفسها رد فعل من العائلات المحافظة. كنا نذهب مع الأصحاب والصواحب والأهل. أول فيلم عربي شاهدناه كان لمحمد عبد الوهاب: «وردة الحب». أنتجت آسيا داغر فيلماً مثلته بنفسها. إلا أنه لم يعرض وقتاً طويلاً لأنه خلا من الأغاني..

الغناء والمسرح: كان الغناء، بالفرنسية والعربية، أمراً شائعاً على الطريق. كنا ثلاثة شباب أو أربعة نخرج معاً في الليل حين يعتدل الطقس ولا ضوء غير ضوء القمر، ونأخذ بالغناء ونحن ننزل من برج أبي حيدر إلى آخر الهضبة. كان بيننا من يسترجع أغاني تينو روسي بصوت جميل، وإذا رفع صوته بين البيوت بأغنيات روسي أطلت الناس من الشرفات وتركت للحظة السيران على السطوح. أما غناء عبد الوهاب، مثل الغناء العربي، فيتطلب الجلوس. **كان المغنون العرب هم سيد درويش، أبو العلا محمد، صالح عبد الحي، منيرة المهدية،** ومحمد عبد الوهاب. وكان أحد آل بعيون معروفاً بالعزف على البزق، كما كان في بيروت معمل اسطوانات يدعى «بيضافون»، ومحل كبير لبيع الأسطوانات يدعى «صوت سيده» (Master Voice).

موسيقى البيت كانت مؤلفة من أسطوانات لأم كلثوم وعبد الوهاب وأبو العلا محمد. ومن آلتين: عود وقانون. ومن بين مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية: فاغنر، فردي، تراتيل كنسية. واشترك في انتقاء هذه الموسيقى كاظم وتقي الدين وأنا.

عرفنا المسرح في بعض مؤلفات الكتاب المحليين. فألف الشيخ الفاخوري (والد الدكتور أسامة) مسرحية بعنوان «جابر عثرات الكرام»، وألف أنطون الجميل مسرحية بعنوان «وفاء السموأل»



مطعم فول شعبي

عرضت على مسرح سينما كريستال. من بعد هذا جاءت الفرق المصرية وعلى رأسها يوسف وهبي وجورج أبيض. كانت نخبة البلد تشاهد العروض ذات التمثيل الراقي والمحترف، وقد بهرتها براعة التمثيل والإخراج - وبين الحين والآخر عرضت مسرحيات فرنسية في الغراند تياتر مثلتها فرق كبيرة مثل فرقة سارا برنار وسيسيل سوريل والكوميدي فرانسيز.

مكتبات: تصدرت المكتبات مكتبة **هاشيت** (Hachette) في الزيتونة قبالة محل الهندي قبل أن تنتقل إلى بناية اللعازارية. أما **مكتبة انطوان** فلم تحمل هذا الاسم في أول عهدها. ومن المكتبات الإنكليزية كان ثمة **مكتبة ماكنزي ومكتبة خياط** قرب الجامعة الأميركية - واختصت **مكتبة حبوش** قرب الغراند تياتر ببيع الكتب العربية القديمة - ومن زبائن حبوش أسد رستم وجورج كفوري وغيرهما من أهل البحث. وانتقلت **المكتبة الأهلية** من مصر وحطت قرب مقهى الحاج داود. وفي أول شارع غورو كانت مكتبة صفير. وأصدرت مطبعة صادر مجموعات القوانين الفرنسية والعثمانية.

النداء: رغب كاظم دوماً في اتخاذ مكاتب واسعة للنداء، فتنقلت بين شارع اللنبي وشارع المعرض والمرفأ ورست أخيراً

في وقف الموارنة في العرض. كانت المكاتب في طبقة واحدة، لكنها واسعة. تألفت الجريدة من أبواب متعددة، فكتب كاظم الافتتاحية وكان يومها دون الثلاثين وهو صاحب الجريدة ومنشئها. وصرفنا حصتنا من الأرض التي تعرف ببطحة الصلح والممتدة من مقهى نصر إلى الكوليج بروتستانت إلى إصدار الجريدة والقيام بأعبائها. أشرف على إخراجها رجل اسمه رأفت بحيري، وهو فنان ورسام بالزيت والحبر الصيني. حرر الجريدة سبعة محررين أو ثمانية، فكتب تقي الدين باب «الزاوية»، ورئيس القسم المحلي يوسف ابراهيم يزبك وعارف الغريب وتناوبا على رئاسته. وأشرف يزبك على القسم الخارجي أيضاً، ومصدر تحريره برقيات وكالات الأنباء وجريدة **الرائد** المصرية. والحق أنه لم يكن ثمة وكالات أنباء بالمعنى الصحيح، بل كانت ترد البرقيات على دائرة البريد من القدس أو حلب. حاولت **رويتر** أولاً أن تفتح مكتباً لم يدم طويلاً، ثم جاءت وكالة **هافاس فوكالة الصحافة الفرنسية**. قامت الصحيفة على مخبرين محليين كانوا يترددون على دوائر الدولة، وكان هؤلاء المخبرون مشتركين بين عدد من الجرائد. منهم زكي الأفيوني وكامل مروة ومحيي الدين الطويل وحنا غصن. كلهم عملوا في **النداء**. صدرت **صحيفة النداء** في ثماني صفحات. الصفحة الأخيرة بالفرنسية حررها نزيه لحود، وكنا نرسلها إلى كل أعضاء مجلس النواب الفرنسي، من غير أن نمر بالسفارة. كان التحرير يستمر حتى الحادية عشرة ليلاً، واستعملت الجريدة تليفوناً عسكرياً ميدانياً يطلب رقمه عن طريق السنترال.

قبل أن تصدر الصحيفة أرسل عمر بيهم إلى تقي الدين الصلح وطلب إليه أن يأتيه. وحين حضر تقي الدين قال له عمر بيهم: «**صحيح يا تقي إنت وخيك بدكن تعملوا جورنال. أنتو ولاد عيلي، كيف بدكن تعملو جورنال». هذا برغم أن الصحافيين كانوا من خيرة رجالات البلد**. فمنهم الشيخ يوسف الخازن وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) والشاعر وديع عقل وأحمد عباس الأزهري، ثم ابنه. أما صحيفة **الأحرار** (في الثلاثينات) فكان أصحابها من الوجهاء. وكانت صحيفة **بيروت** لمحيي الدين النصولي، **والأرز** لعبد الله الشنوق، **والراية** ليوسف السودا، وقبلها كانت **الجوائب** للشدياق.

كانت تطبع الصحيفة أكثر من ثلاثة آلاف نسخة يعود منها ثلاثمائة أو أربعمائة نسخة. المدن التي كان التوزيع يشملها هي طرابلس وصيدا وزحلة من غير انقطاع. أما جونيه والنبطية وبنت جبيل فبتقطع. راسل **النداء** من الشام نجيب الريس، وتقدمت الصحافة اللبنانية على السورية برغم أن السورية عرفت كتاباً ذوي شأن مثل معروف الأرناؤوط الذي أصدر صحيفة **فتى العرب**..

بيت اثري بيروتي

أبو عفيف ومطعمه من تراث بيروت، مثل بديعة مصابني في مصر، حتى أن الزعني كتب أغنية عنه وغناها. في الشوارع الكبيرة مثل اللنبي وفوش كان أصحاب المحلات يبقون ظهراً في محلاتهم ويأتون بالأكل من بيوتهم. كان صاحب دراجة يأتي بالسطيلة من البيوت يدور عليها ثم يوزع الطعام على المحلات. كانت المطاعم أيضاً توزع الأكل مثل مطعم أبو عفيف ومطعم عارف اللذين كانت الطبقات الغنية تأكل عندهما. جمع أبو عفيف بين الأكل الممتاز والكراسي المريحة والقيام من نقطة هامة من ساحة البرج في بناء «كوكب الشرق». من حوادث الثلاثينات المهمة سقوط بناية كوكب الشرق الذي قتل أربعون شخصاً من جرائه. في مطعم أبو عفيف كان الخدم يلبسون لباساً أسود ويعقدون بابيون. قبالته كان مطعم عارف، وفي الزيتونة مطعم سعد، والعجمي في سوق الطويلة، هذا عدا مطاعم الفنادق. في مقهى ومطعم نجار كان يجتمع رجال السياسة فكان مقهى ومطعماً ونادي قمار. اختص الفرنسيون بأندية لهم لبس خدمها لباس خدم المطاعم الفرنسية. أما الأكل فبلدي: فول وحمص وشاورما وياخانة على أنواعها. ولم يكن أبو عفيف وعارف والعجمي وسعد يقدمون الكحول لزبائنهم.

واختصت خمارات ببيع الخمور مع الترمس. ثم انتقلت إلى طور أعلى فقدمت المازات وبقيت مستقلة عن أكل المطاعم.

حين ترك أصحاب المحلات والدكاكين ومعلمو الخضار وأمثالهم البلد القديمة انتقلوا إلى رأس النبع وبرج أبو حيدر والبسطة حيث كانت برية المدينة. في سوق النورية بيعت الخضار بالمفرق والجملة، وإذا اشترك أصحاب المحلات في النورية وسوق اللحم في إضراب عنى ذلك أن الإضراب لن يخيب. أما إذا لم يشترك السوقان فمعنى هذا أن الإضراب فاشل. وكان ارتياد المطاعم مع النساء وقفاً على الآتين من أماكن بعيدة مثل الشام. أما أهل البلد فلا يرتادون المطاعم مع نسائهم.

أطباء ومستشفيات: طبيب العائلة هو سليم الريس من عائلة بيروتية قديمة. عرفته أحد أفراد عائلتنا في الجندية أثناء الحرب. درس في الجامعة الأميركية ثم في فرنسا. لم يكن لإخصائيي اسطنبول صيت حسن، أما أميركا فبعيدة. من الأطباء ابن الشيخ يوسف الأسير، تخصص بالرأس ثم بالأمراض الصدرية. من أطباء المستشفى الفرنسي الدكتور بعقليني والدكتور الياس الخوري، وإلى جنب مستشفى الجامعة الأميركية والمستشفى الفرنسي كان ثمة المستشفى الألماني حيث فندق فينيسيا لاحقاً، ومستشفى محمد خالد ومستشفى الدكتور عطية (محطة الداعوق)، والمستشفى الإسلامي، وأوتيل ديو، والجعيتاوي، ومستشفى رزق في رأس النبع. أما السل فعلاجه في الجبل..أما الأطباء المستثمرون فقلة. انتهى الطب برئيف أبي اللمع إلى النيابة. وبين الأطباء المسلمين البارزين يذكر سليم ادريس في البسطة الفوقا، مصطفى الخالدي في مستشفاه، محمد خالد في البسطة، نجيب العرداتي في رأس بيروت، والعرداتي أستاذ في الجامعة وعميد. لعب مصطفى الخالدي دوراً اجتماعياً بارزاً، وانتخب سليم ادريس أميناً عاماً **للمؤتمر الوطني** وأنشأ مع يوسف السودا **حركة الميثاق الوطني**، وأنشأ مصطفى الخالدي **جمعية الشابات المسلمات**، كما أنشأ مدرسة التمريض وكان داعية إسلامياً وألف مع عمر فروخ «**التبشير والاستعمار**».. وبرغم أن أهل بيروت عملوا أساساً في التجارة إلا أنهم بدأوا يتجهون وجهة دراسة الطب والمحاماة. في الصف السادس مثلاً كان ثلاثة أرباع الطلاب من المسلمين وربعهم من المسيحيين، لكن الصف التالي كان يشهد نقصان عدد الطلاب المسلمين. نسأل أين ابن الجارودي؟ فيقال: فتح محل ملبس. ونسأل: أين ابن الجمل؟ فيقال: فتح محلاً في سوق سرسق. وكان المسلمون يفضلون هندسة المسلم بيتهم وطبابة المسيحي، وذكر لي الدكتور سليم ادريس أن هذا الأمر مستمر منذ قديم الزمن، وأنه وجد شاهداً عليه في **بخلاء الجاحظ**. ولما كان الطب والهندسة يدرسان في اليسوعية بالفرنسية عزف المسلمون عن دراستهما لصعوبة اللغة.

الكشفية: في ١٩١٢ أسس الحركة الكشفية هنديان درسا في الجامعة الأميركية هما عبد الجبار وعبد الستار. أنشأ فرقة كشفية في شارع كليمنصو أو مي زيادة انتسب إليها أبناء العائلات الإسلامية ودعيت «**دار العلوم**». تخرج من هذه الفرقة بعض ألمع الشبان المسلمين مثل محيي الدين النصولي، عبد الله دبوس، بهاء الدين الطباع، وأحمد اللادقي.

في ١٩١٧ أطلق اسم **الكشاف الإسلامي** على ما كان كشافاً عثمانياً. لم يبق فتى أو شاب في بيروت إلا وانتسب إلى الكشاف الإسلامي. وعمل هؤلاء القواد، أي النصولي ودبوس، على إقبال فتيان المسلمين على هذه المؤسسة. وطبع الكشاف في المدن اللبنانية والسورية والفلسطينية بطابع وحدوي بعض الشيء. ونشأت «**النجادة**» (الرواد) من هذه الفرق الأولى. فاعتز بهم أهل بيروت، والتفت المدينة حولهم، وتوافدت إلى استعراضاتهم. وحين عاد الوفد الكشفي من مؤتمر بودابست استقبل استقبالاً ضخماً، فعمد الفرنسيون إلى إطفاء الأضواء وتأخير وصول الباخرة ورسوها. فتظاهر الناس ليلاً في ١٩٣٦ على ضوء اللوكسات.

قاوم الفرنسيون الحركة الكشفية بحل النجادة، وأصدروا قانوناً يمنع من زاد عمره عن ١٩ سنة أن يكون نجاداً. وكانت النجادة بعد ١٩٤٠ وراء إضراب الأهالي ومقاطعتهم شركة الكهرباء. كان على رأس النجادة حسين سجعان وأنيس الصغير ونديم دمشقية وجميل مكاوي، وهي نظير منظمة **الكتائب** عند المسيحيين. وفي أول تأسيسها لبس الكشافة الطربوش وارتدوا البنطلون القصير ومشوا إلى صيدا ودمشق. وكان من أعضائها الرسامان مصطفى فروخ وعمر الأنسي. وربما كان أثر الكشفية أوسع من أثر أي مدرسة، واضطلعت بأعباء لم يكن للمدرسة أن تضطلع بها مثل الحراسة الليلية والتغلب على الخوف من العتمة.

(حاوره وضاح شرارة وحسن داوود،
«السفير»، ١٣/٦/١٩٨٧)

رحلة مع مصطفى كريدية في عالم بيروت الماضي

..مات نقولا المني وعمر الزعني وخالد أبو النصر وصابر الصفح وعفيف رضوان وحسن غندور وادمون مجاعص وكرنيك قازنجيان وحليم الرومي وفريد غصن، كلهم أسماء كبيرة تألقت في دنيا الموسيقى والغناء والتلحين ولم يعرف أحد بعد، سوى قلة، فضلهم على المستويات الموسيقية والغنائية والتسجيلية في لبنان. وتكر السبحة يوماً بعد يوم وتحمل مع تساقط حباتها أسماء كبيرة أخرى دون أن يدري بها أحد أو يهتم بتدوين شيء مما قدمته للموسيقى والغناء في لبنان هؤلاء الذين كانوا نجوم بيروت ما قبل الحرب فأفرحوا القلوب وأبكوا العيون وكانوا في كلتا الحالتين يؤدون الرسالة رسالة الفن والمحبة.. الفنان مصطفى كريدية، يبدأ ذكرياته بحديث عن الذات. قال:

تركت المدرسة عام ١٩٣٦ وكنت في الحادية عشرة ليتاح لي أن أتعلم مهنة الخياطة الرجالية في محل نقولا أبو شديد في خان أنطون بك ببيروت، وفي أثناء عملي بهذه المهنة تعرفت إلى صديق أخي أنيس الأستاذ والفنان الكبير **صليبا القطريب** فاستمع إلي الأستاذ صليبا وأعجب بصوتي وطلب إلي أن أذهب معه إلى بغداد ليعلمني أصول الغناء، لكن شقيقي رفض ذلك، فبقيت في الخياطة حتى العام ١٩٤١ حين قررت أن أحترف الفن.

ذهبت أولاً، إلى مسرح **المرحوم عبد الحفيظ المحمصاني**، وكان مركزه في منطقة «عالسور» قبالة صيدلية حمادة. وعندما سمع صوتي شجعني على أن أعمل مغنياً في المسرح فأقدم وصلة غنائية بين الفصل والفصل في مسرحياته، وكان يعمل معه في ذلك الحين كل من الصحافي الأستاذ **محمد بديع سربيه** والأستاذ **محيي الدين الخضري** والأستاذ **وفيق النصولي**، كانوا يقومون بأدوار تمثيلية بارزة، وأذكر أن الأستاذ سربيه كان يقوم بتأدية الادوار الكوميدية في مهارة ملفتة، وبقيت أعمل في هذا المسرح مدة سنة كاملة، ثم تركت العمل لأنني حرمت من تأدية وصلتي في حفلة غنائية كانت مقامة في منطقة إقليم الخروب في بلدة عانوت..

في تلك الفترة تسنى لي أن ألتقي **الفنان الكبير** المرحوم **نقولا المني** الذي ربما كان الملحن الوحيد في لبنان آنذاك، ولم يكن من السهل على أحد مقابلته دون واسطة وبهذه الطريقة وصلت إليه، وبعد أن استمع إلى صوتي في مركزه بسينما رويال في أول طريق بشارة الخوري ضحك ضحكة حنونة وقال لي «هذا هو الصوت المطلوب» وأعطاني عنوانه وحدد لي موعداً صباح يوم أحد فذهبت إلى بيته في الموعد المحدد وكان في منطقة المزرعة بشارع بربور..

كانت الإذاعة في ذلك الحين تعرف باسم راديو الشرق، وهي تابعة للمنتدب الفرنسي والمسؤول عن الدائرة الموسيقية فيها الأستاذ ميشال خياط. وفعلاً كانت الأغنية الأولى التي أديتها في الإذاعة «سارت الفلك» عام ١٩٤٢ فقبضت ثمن الأداء ثلاث ليرات ونصف فاشتريت رغيف خبز افرنجي طويل بثلاثة قروش وربع رطل من الجبنة القشقوان التي كنت محروماً منها، وحملت الخبز والجبنة إلى البيت وقدمت ما أنقل لوالدي قائلاً: «شوف كيف الفن يطعمني خبزاً»، ورغم ذلك بقي والدي مصراً على منعي من العمل في الفن فابتدأ بتهديدي فما كان مني إلا أن هربت إلى دمشق في سيارة «سيترن» لنقل البنزين، ولم يكن في السيارات آنذاك «راديو» فكانت الأجرة أن أغني للسائق طول مدة الرحلة، وهكذا حصل فوصلت إلى دمشق مبحوحاً تقريباً ولم يكن معي أي قرش لأتحرك، كما أنني لم أكن أعرف أحداً هناك.

سألت عن الإذاعة في دمشق وكانت إذاعة محلية ومركزها في ضواحي شارع أبو رمانة. طلبت مقابلة المدير فرفض الحارس «السنغالي» على الباب أن يسمح لي بالدخول، وأصر على ذلك فعدت يائساً بعد ظهر ذلك اليوم إلى ساحة المرجة في دمشق، وأنا أندب حظي. فلا عمل ولا مال ولا حتى ثمن رغيف «حاف»... كنت جائعاً إلى درجة لم أقو فيها على السير، فجلست على جسر المرجة أنظر إلى نهر بردى يجري أمامي ورحت أغني لأخفف عن نفسي وقع الجوع والتشرد. كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل فالتقيت بـ «مقطوع» مثلي ومعه رغيفان «أم الفلافل»، سمع صوتي وأنا أغني أغنية «يا ما بنيت قصر الاماني» لمحمد عبد الوهاب فجلس يسترق السمع والنظر، وحين وصلت إلى مقطع «نوال فين عيونك» لم أدر ماذا جرى لي حتى استبدلتها بعبارة «يا ماما فين عيونك وشوفي ابنك كيف جوعان» غنيت تلك العبارة فبكيت واختلط الغناء بالبكاء فاقترب الرجل وسألني عن سبب بكائي فأبلغته، فأعطاني رغيف فلافل أكلته فشبعت، وطلب مني أن أواصل الغناء وفيما أنا أغني مر شخصان سمعا صوتي فوقفا يستمعان. خجلت منهما وتوقفت عن الغناء فما كان منهما إلا أن طلبا مني متابعة الأغنية، فعدت للغناء وكانت الساعة شارفت على

الثالثة صباحاً حين طلب مني أحدهما أن أمشي معهما، فكرت في طلبه وخشيت أن يكونا من رجال المباحث ويريدان اقتيادي لمركز الشرطة على أساس أنني متشرد، **فقلت لهما أنني لست متسولاً ولا متشرداً وإنني من عائلة بيروتية محترمة هي عائلة كريدية وقد جئت الشام لأدخل الإذاعة للغناء**، فقال أحدهما أنهما يريدان أخذي للإذاعة في اليوم التالي، فاطمأن قلبي ورافقتهما حتى أول شارع بغداد حيث أصعداني إلى شقة في الطاقة الرابع من إحدى البنايات وكان على باب المكتب لوحة كتب عليها «مكتب المحامي عادل قزيها».

وفي صباح اليوم التالي، فطرت معهما وغنيت بناء لطلبهما «يا ما بنيت» وبكيت، لا أدري لماذا، ربما من الفرح. المهم أنني عرفت أن أحدهما هو المحامي عادل قزيها والثاني أرسلان نوري صاحب أسطوانات «نوري فون» في دمشق، وكانت النتيجة أنني وقعت عقداً على بياض لمدة سنتين وقبضت دفعة أولى مئة وخمسين ليرة، وأمنا لي فندقاً للمنامة مجاناً يدعى «الوردة البيضاء» لصاحبه حينها محمود الكردي..

شجعني الوالد لأول مرة مشترطاً أن التزم الطريق القويم ولا أقوم بأي عمل يسيء إلى اسم العائلة، فرحت كثيراً بموافقة الوالد وذهبت للإذاعة لتقديم الأغنية الأولى..

عام ١٩٤٨ دعيت إلى سهرة في منزل لآل الفاخوري، كانت السهرة في أيام رمضان المبارك وقد أقيمت مأدبة إفطار كان على رأس المدعوين فيها المرحوم رياض الصلح رئيس وزراء لبنان آنذاك، وجمعت المأدبة كبار الشخصيات الرسمية في لبنان، كان برفقتي **الموسيقار الأستاذ بهيج ميقاتي**، فقدم بعض التقاسيم على العود ثم قدمت عدة أغنيات لاقت استحساناً كبيراً من رياض بك الذي طرب لها وقال لي بالحرف الواحد «أعطني صوتك يا مصطفى وخذ رئاسة الوزارة»..

ذاكرتي تأبى إلا أن تعيدني إلى عام ١٩٤٣. في تلك السنة فكرت في أن أحيي حفلة لها ألف طنة ورنة على مسرح التياترو الكبير في بيروت. **وللذين لا يعرفون اليوم ما هو التياترو الكبير أقول إنه كان سيد مسارح بيروت في تلك الحقبة من الزمن**، وبعد أن تم القرار بأن أقيم حفلة لي في ذاك المكان العظيم نويت أن يكون من بين المطربين والمطربات **شحرورة الوادي المطربة صباح**، وكانت قد استأثرت بإعجاب الجماهير. وكان من الفنانين والفنانات الذين قررت أن يكونوا في عداد عناصر الحفلة المطربة صالحة المصرية والمطرب يوسف فاضل وعازف الكمان الشهير فرح بوابي..

في بداية سنة ١٩٥٠ دعاني صديق فنان وموسيقي لامع هو انطوان كريدي وطلب مني أن نتعاقد معاً لتقديم حفلات غنائية في الخارج فاعتذرت وعرضت عليه اسم **الأستاذ وديع الصافي**، قال لي: هل هذا هو اسمه الحقيقي؟ قلت: لا، اسمه الحقيقي وديع فرنسيس، وكان الأستاذ الصافي يومها من أصدقائي الذين التقيهم يومياً فعرضت عليه المشروع فوافق..

خلال هذه الفترة اتفقت مع شركة أسطوانات متري فون بشخص المسؤول عنها الياس المر على تسجيل خمس أسطوانات منها «يا هويدالك - تكرم عينك - تصالحنا - ليش زعلانة» وفي أثناء الحديث قلت له بأن ثمة فناناً وصديقاً يدعى وديع الصافي له أغنية جميلة هي «عاللوما» وذكرت له أنه فلتة زمانه فطلب مني أن أعرفه إليه عندها اصطحبته إلى منزل الصافي وأخبرته ونحن في الطريق بأن بيته ما زال غير ناجز لكنه غني بصوته وروحه وشهامته، ولم نكد ندخل البيت ويسمع صوته الأستاذ الياس المر حتى اتفق معه على خمس أسطوانات أذكر منها «عاللوما اللوما» و«يا غايبين» و«عنزة بوطنوس» وبعد فترة سافرنا إلى دمشق وسجلنا هذه الأسطوانات للشركة..

كانت الفرقة الموسيقية في الإذاعة السورية آنذاك بقيادة عازف القانون **سليم غزالي** وكان في عداد العازفين عازف الكمان المشهور **عبود عبد العال** وكان عمره آنذاك عشر سنوات، وكنت عندما أقوم بتقديم أغنية نبحث عن عبود عبد العال فنجده في حديقة الإذاعة يلعب الكلة وحين أجده أمسكه من أذنيه ممازحاً وأدخله استوديو الإذاعة لبدء التسجيل، وكان من بين مجموعة الكورس الفنانان **محمد محسن وعبد الفتاح سكر** وهما اليوم من كبار الملحنين..

أقول هذا وأنا أنظر اليوم إلى مطربي عصر التلفزيون الذين يقفزون دفعة واحدة من لا شيء إلى كل شيء وهم لا يعرفون من الفن والموسيقى غير الأغنية التي أسمعوها للمشاهدين ولا يدرون عن الصداقة والمعاناة والشعور المشترك بين الفنانين مثلما كنا نشعر ونعيش في بيروت أيام زمان.

(خالد اللحام، «الأنوار»، ١٩٨٧/٣/٢٢)

القبضايات وجه ظريف من الماضي

يقول السيد علي مجبور في دردشته معنا حول القبضايات: لا يجوز لنا ونحن نتذكر أيام زمان، أن نتقبل كل ما يقال لنا، هكذا وببساطة لأننا نحلم باستعادة ماض زاهر وأيام لا تنسى من تاريخ بيروت، فلا كل الماضي ملؤه الفرح، ولا جميع القبضايات هم بالصورة التي يوصفون بها لنا، فهم على أنواع إذاً، ومعاملاتهم تختلف ما بين شخص وآخر، كما أن «سوابقهم» تختلف أيضاً.

النوع الأول من القبضايات، كان عبارة عن وجهاء من أهل بيروت، أصحاب نخوة وعزة نفس، يحسبون حساب الناس، حتى أفقر الفقراء بينهم، ويحترمون أنفسهم في علاقاتهم مع الجميع، يتحسسون بالمشاكل الاجتماعية لابناء حيهم ومنطقتهم فيسعون في خدمة الجميع، يدفعون من جيوبهم، ويدفعون سواهم أيضاً للمشاركة في الاعمال الخيرية. وهذه النخبة من القبضايات برز منها ومن أبنائها في ما بعد من أطلق في بيروت الجمعيات الخيرية الإسلامية والمؤسسات التربوية المجانية، منها ما كبر وتحول إلى مؤسسات يحسب لها حساب ومنها لا زال إلى اليوم مدارس ابتدائية أو ثانوية على أبعد حد تتسع لعدد محدد من الطلاب تقدم خدماتها لهم بأقل التكاليف الممكنة.

النوع الثاني من القبضايات، عبارة عن مجموعة من مهربي الدخان، وأصحاب أندية القمار الذين يعيشون على هامش الزعامات السياسية التقليدية، «يصفقون للصاعد ويبصقون على النازل» كما يقال، ومنهم من كان يوالي زعيماً بعينه لفترات طويلة حتى وإن خف دوره أو هبطت أسهمه في سوق السياسة ويحسبون عليه، فكنت تسمع بأن هذا القبضاي هو من رجالات الزعيم الفلاني أو العلاني، وكانوا إذا ما تلاقوا مع قبضايات الزعيم الخصم اندلعت الحرب وتكسرت طاولات المقاهي على رؤوس الجميع أو ضربوا بعضهم البعض بالخناجر أو بإطلاق الرصاص. لكن هؤلاء المهربين ومديري أندية القمار لم يخلوا من نخوة ومروءة إذا ما استجار بهم ضعيف طالباً الحماية، أو إذا ما قصدهم فقير طالباً الدعم، لأن عهدنا بالأخلاق والعادات والتقاليد التي كانت سائدة أيام الحكم العثماني الإسلامي كان لا يزال قريباً.

النوع الثالث من القبضايات، يقول الأستاذ مجبور، كان عبارة عن أصحاب سوابق يدخلون السجن لسبب حقير فيخرجون منه ليتملكوا مواقف للسيارات أو ليقوموا بحماية



درويش سعيد بيضون (ابو علي) من قباضايات بيروت أيام زمان ..

الراقصات أو المطربات. وهؤلاء كانت الزعامات تستأجرهم بواسطة النوع الثاني من القبضايات ضرب شخص أو لإذلال خصم، وفي الوقت نفسه كان كلاً من النوعين الثاني والثالث يحاول أن يتمثل بالنوع الاول من القبضايات ليحصل على المكاسب الاجتماعية نفسياً بين الناس التي تشعره بأنه «إنسان مهم» في مجتمعه.

المؤسف اليوم، يقول الأستاذ مجبور، إننا لا نستطيع ذكر أسماء من كانوا من النوع الأول، أو الثاني، أو الثالث، بحيث نفرق ما بين هؤلاء وهؤلاء لان معظم الاسماء أصبحت في ذاكرة الجيل الجديد من أهل بيروت كالمقدسات..

(خالد اللحام، «الأنوار»، ٢٨/٤/١٩٩١)

بيروت تضيق بناسها



الجامعة الأميركية في بيروت كما بدت عام ١٩١٢.

منذ أواخر الخمسينات، ومع بداية توسع بيروت وانفتاحها على المناطق، بدأت منطقة الأسواق التجارية تضيق بالوافدين إليها من المناطق والآتين إليها من بيروت، فلم يجد البيروتيون وأهالي المناطق الذين أتوا إلى بيروت وسكنوا فيها حيث أنشأوا تجارات وأعمالاً وأحيوا شوارع وأحياء، لم يجد هؤلاء بداً من التوغل في بيروت غرباً وشرقاً، آنذاك، كانت منطقة الحمراء غير مسكونة، تحدّها الجامعة الأميركية وشارع بلس اللذان كانا يجاوران البحر والمنارة، وإلى الجنوب منها كانت أحياء رأس بيروت والروشة، ويفصل بينهما أرض غير مأهولة قدّر لها، أن تشتهر شهرة، لا تضاهيها إلا شهرة صخرة الروشة نفسها.

حين أنشأ بلس الجامعة الأميركية في منطقتها اليوم، لم يفعل ذلك لحصافة منه وفراسة جعلتاه يقدّر ما لتلك المنطقة من أهمية، كان يريد أن ينشئ الجامعة التي كانت تدعى الكلية السورية الانجيلية في مكان آخر هو أقرب إلى أمكنة السكن، وأبعد عن الغابات والوحوش والثعالب، لكن المعلم بطرس البستاني رفض أن يؤخره أو يبيعه مدرسته، وتحايل عليه سمسار الأراضي فباعه قطعة الأرض التي لم يكن يؤمّل ببيعهما لأحد، حيث أنشأ الجامعة. ومن هناك نشأت أجيال وقيادات، ودرجات وثقافات، كانت تبدأ في الشارع المرسوم باسم مؤسس الجامعة وتمتد من هناك نحو بيروت والعالم العربي برمته.

كانت الجامعة الأميركية قد بدات تعرف شهرتها الكبيرة في العالم العربي قبل أن يبنى أول حجر في شارع الحمراء، فالجامعة كانت وربما لا تزال حتى اليوم تيمم شطر البحر، وما يأتي منه ويذهب إليه وما كان جوارها المقفر ليعني لها شيئاً، ذلك الجوار عنى أولاً للذين ضاقت بهم الأسواق والذين شاؤوا السكن في بيروت والبقاء فيها، فأنشئ الشارع الذي عرف حدوده منذ ابتدائه، فلم يخالط جواره ولا تعدى عليه، **لم يتصل الشارع، أي الحمراء، منذ إنشائه بجواره، فكانت له هويته ووجهه المختلفان عن شارع بلس ومحيطه، ولم يختلط بالبحر والوافدين إليه ومنه، وما عنته أحياء السكن التي تجاوره، فلا مدرسة الصنائع امتدت إليه، ولا أحياء عائشة بكار ورأس بيروت وكراكاس كانت تتصل به من أي جهة أو وجه، سوى المجاورة البحت، كانت بناية**

صخرة الروشة

الستراند من أولى البنايات التي أنشئت في الشارع، والتي ضمت في طابقها الأرضي مقهى عرف شهرة قصيرة، هذه البناية عيّنت حد الشارع وحدوده فلم يتخطاها أبداً. **وحين يقطع المرء بناية الستراند لا بد وأن يلحظ اختلافاً في الوظيفة بين شارع الحمراء وجواره، أيضاً بناية «الهورس شو» كانت حده الآخر من الجهة الشرقية، وبين «الهورس شو» والستراند عرف الشارع كل صخبه وحياته وشهرته ولم يتجاوزهما إلا متأخراً نحو بناية «الإتوال»**، حيث مقهى «الاكسبرس»، وصالة السينما. لكن حد وزارة السياحة ومبنى «النهار» كان حداً فاصلاً ونهائياً بين الحمراء وجوارها، لم يحدث أن توسع نحوهما شارع الحمراء، ولم يحدث أن تجاوز الشارع الفاصل إلى حيث يمكن أن يمتد شرقاً نحو الصنائع والأسواق، أو جنوباً نحو عائشة بكار ومنطقة الظريف.

آنذاك كانت منطقة الأسواق وساحة البرج على الأخص هي بوابة بيروت، وكان من شأن القاطن في بيروت أو المتوغل فيها أن يخرج منها إلى حيث يستقر ويأمن، فلم تكن ساحة البرج مكاناً لاستقرار وثبات، وليس أدل على ذلك من مواقيت سيارات الأجرة ومواقفها الثابتة، ومن الباعة المتجولين الذين كانت تعج بهم الساحة، ولم يكن محيط ساحة البرج الأقرب يتسع لجديد ووافد، فكانت العائلات التجارية الكبيرة قد استقرت في منطقة الصنائع والأشرفية والجميزة وبعض عين المريسة، وأنشأت أحياء لا زالت تحتفظ حتى الآن بخصائصها الأساسية. الحمراء كان الشارع الأقرب إلى المستقرين في بيروت، الأقل صخباً والأوسع وقتاً من ساحة البرج ومحيطها، وفيه يجتمع متماثلون وشيع وأحزاب، على عكس ساحة البرج التي كانت تخفي كل ما يمكن أن يفرض عليها هوية، فهناك كان يجتمع أبناء العائلات اليونانية الغنية، بصيادي رأس بيروت، بصحافيي المناطق وسياسييهم، بالعمال والحمالين والباعة المتجولين، بالوافدين إلى بيروت من القرى والمناطق، ولم يكن لشيعة منهم أو فئة أن تطبع ساحة البرج بطابعها، عكس الأحياء التي يأتي منها هؤلاء.

وسط كل هذا الصخب نشأ شارع الحمراء، وكان منذ بدايته شارع الموظفين الباحثين عن تميز وأناقة رغم ضيق ذات اليد، وشارع الفنانين والشعراء والسياسيين وطلاب الجامعات الذين وجدوا فيه مكاناً لإثبات أنفسهم وسط هذا الحشد من الأحياء التي لا تمت إليهم بصلة، وبعيداً عن ساحة البرج اللعوب، التي ما كانت تسلس قيادها لفئة أو طبقة أو طائفة مهما كثر عديدها.

(بلال خبيز، «النهار»، ٢٨/١٠/١٩٩٥)

الحانات والخانات في بيروت
مقاهي المدينة مصاطب القرية

..عرفت بيروت، مثل أي مدينة عربية، أربعة صنوف من المقاهي. لكنها انفردت عن المدن الداخلية الأخرى بصفة كونها مدينة بحرية، فأضيف إلى صنوف مقاهيها صنف خامس. فصارت على النحو التالي:

١ ـ **مقاهي الساحات العامة:** وهي وارثة الخانات القديمة، وقد نشأت في قلب العاصمة لتكون محطة لاستراحة الوافدين إلى المدينة والعابرين فيها. وكانت تتركز، أكثر ما تتركز، عند محطات النقل، وفي الوسط التجاري البعيد، نسبياً، عن الأحياء الآهلة (اشتهرت في بيروت أربع ساحات رئيسية هي: ساحة البرج وساحة الدباس وساحة رياض الصلح وساحة النجمة).

٢ ـ **مقاهي الأحياء:** انتشرت هذه المقاهي في الأحياء السكنية للعاصمة، وكان يديرها قبضايات الأحياء، واقتصر روادها، عموماً، على أهالي الحي نفسه ما عدا النساء بالطبع.

٣ ـ **المقاهي الرثة:** وهي أماكن كان يلتقي فيها الحرفيون والعمال المياومون الذين جاؤوا من الأرياف البعيدة بحثاً عن لقمة العيش. وهذه المقاهي طالما جمعت السوريين والفلسطينيين واللبنانيين القادمين من الجنوب وبعلبك فضلاً عن الأكراد، وطالما شهدت منافسات ومشاجرات. وكانت مراهنات سباق الخيل وألعاب القمار تدار فيها علناً، واستخدمت أيضاً كبريد لاستلام الرسائل من الأهل القاطنين في الأرياف البعيدة.

٤ ـ **مقاهي البحر:** أنشأها، في الأساس، يونانيون. وهي المقاهي الوحيدة التي كانت العائلات البيروتية تقصدها للنزهة والتسلية، وفيها كانت النساء تدخن النارجيلة بلا تحفظ.

٥ ـ **مقاهي الأرصفة:** وهذه المقاهي نشأت حديثاً عندما راحت مدينة بيروت تتوسع مع طفرة الازدهار الاقتصادي في الخمسينات والستينات، وظهور علائم التحديث في منطقة رأس بيروت حصراً.

مقاهي المدينة مصاطب القرية: لم تعرف بيروت القديمة المقاهي الحديثة إلا مع توسع المدينة وظهور علائم التحديث فيها منذ أواخر الأربعينات فصاعداً. ففي تلك الحقبة راحت منطقة رأس بيروت تنافس، بالتدريج، الوسط التجاري للعاصمة. وفي شارع الحمراء، بالتحديد، ظهرت أولى مقاهي الرصيف. وهذا الطراز من المقاهي بدأ في بيروت كمكان للاستراحة قبل الدخول إلى السينما، أو لتناول وجبة طعام خفيفة بعد الخروج منها. غير أنها تحولت، رويداً رويداً، إلى ملتقى أليف لنخبة القوم في بيروت.

مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في سنة ١٩٧٥ دُمر الوسط التجاري القديم تماماً، وتهدمت المقاهي كلها ودور السينما معها. وفي خضم هذه الحرب شهدت مقاهي الضواحي نمواً مشهوداً مثل ساحة ساسين في الأشرفية ومنطقة الجميزة. وحينما توقفت الحرب نهائياً في لبنان في سنة ١٩٩١ وأعيد تشييد الوسط التجاري لمدينة بيروت، اكتشف الجميع أن بيروت القديمة اندثرت إلى الأبد، وأن قلب العاصمة الذي كانت تموج في شرايينه دماء الحياة اليومية ذات الفرادة الآسرة، قد توقف عن الخفقان تماماً، وقام فيه طراز معماري محدث لكنه منفصل عن النسيج المديني القديم. وفي أي حال، ما كان في الإمكان البتة استعادة النسيج العمراني الموروث. غير أن ما نشأ في وسط المدينة من مقاه وملاه ومطاعم جديدة، كان يشير إلى فقدان روح الحداثة، مع أن كل ما فيه حديث، وشتان ما بين الحداثة والتحديث. فالمقاهي الجديدة في ساحة المعرض وساحة رياض الصلح وشارع مونو في الأشرفية هي محطات للسهر والسمر، لكنها لا تنتج ثقافة أوفناً، وهي بلا بهاء أو توثب أو تطلع. وهذا الأمر من علائم انحسار الفرادة، وهو يشير، حقاً، إلى خواء المدينة. فبعدما كانت المقاهي في شارع الحمراء مثلاً، من معالم قياس الجمال في العاصمة الخلابة، صارت مجرد مصطبة لتزجية الوقت ومراقبة المارة وللنميمة و«طق الحنك». وهكذا أخلت المقاهي الجميلة مكانها لمطعم بربر، على سبيل المثال، ولروائح الشواء والمعجنات والقمامة، ولطقطقة المسابح وكركرة النراجيل. فهذه المدينة التي كانت وثابة متلألئة في الماضي، تتحول اليوم إلى تجمع بشري يحتاج، أول ما يحتاج إلى البقاء البيولوجي، أي القطيعي، كالمأكل والملبس والمشرب والمنكح، وهذا نقيض العمران والتمدن. إن بيروت اليوم عبارة عن مدينة مكتظة بالبشر اللاهثين وراء لقمة العيش، وبالرعاع المتحفزين لاقتناص أي فرصة لجني الثروات الخيالية، أو لإنشاء مطعم من مطاعم الوجبات السريعة. فلا عجب أن تصبح بيروت مدينة بلا مراحيض، في الوقت الذي تنتشر في أرجائها حاويات النفايات.

قصارى القول إن بيروت القديمة ما زالت تحتفظ في ذاكرتنا بذلك البهاء الغامر، وببعض من التوثب الآسر، ولعلنا، في هذا الحنين، نسترجع بهاءها وروعة مقاهيها:

مقاهي البلد: مقاهي بيروت التقليدية عالم مقصور على



ابو عفيف كريدية مع الرئيس صائب سلام وشخصيات بيروتية.

الرجال وحدهم، ومحجوب عن النساء بلا تردد. إنه فضاء من الصخب البشري تنعقد فيه دوائر الدخان وأبخرة المكان. الداما والنرد وورق اللعب والمنقلة والبرجيس والدومينو والنارجيلة والجمرات المتقدة كلها هي عناصر التشكيل في هذا المكان العجيب الذي يشربون الشاي فيه ويستمعون إلى الحكواتي، أو يشاهدون عيواز وكراكوز. (**اندثر الحكواتي من مقاهي بيروت منذ ستينات القرن العشرين. ولعل مقهى السبسبي في ساحة رياض الصلح كان آخر مكان يقدم هذا الفن الشعبي المندثر**).

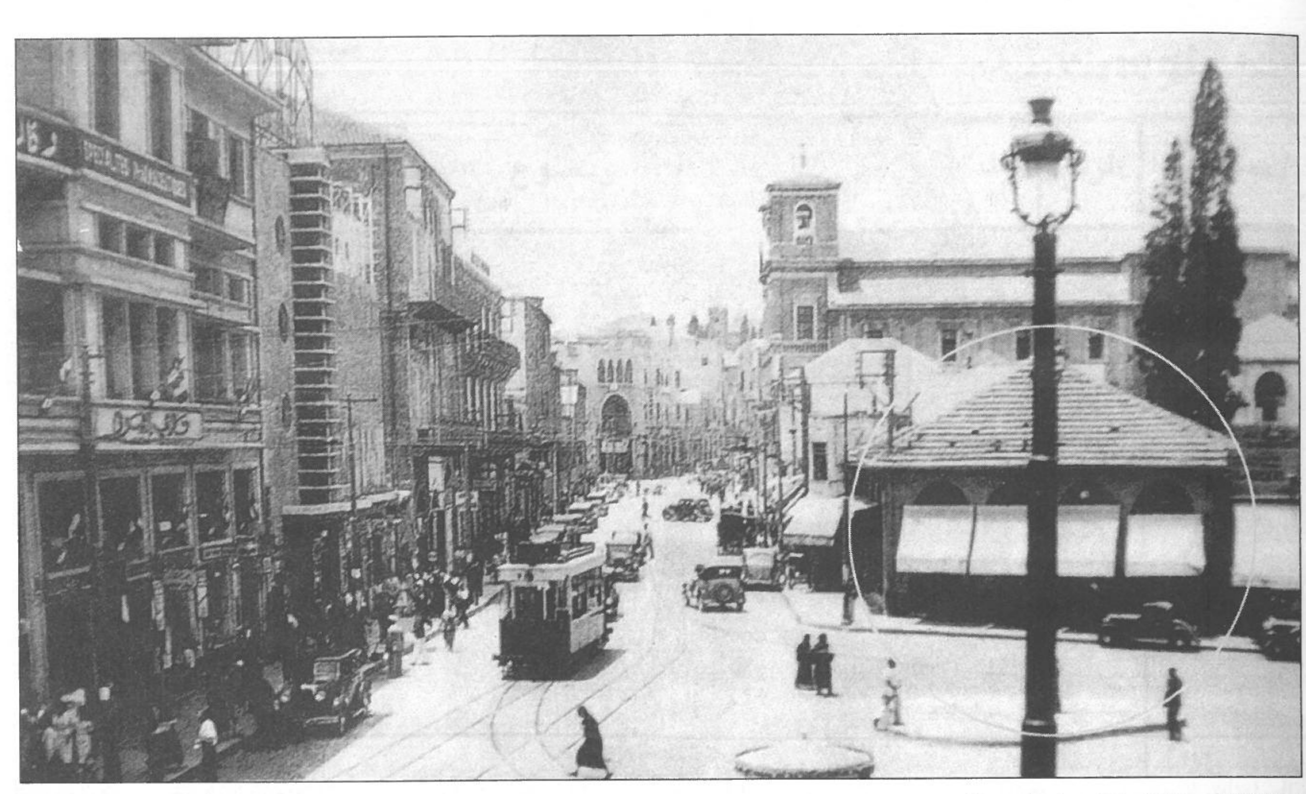
مقهى «**الباريزيانا**» كان سيد المكان في ساحة البرج، في النهار مقهى وفي الليل ملهى. أما المشروب فهو كازوز جلول فقط. وعلى بعد مئة متر فقط من «الباريزيانا» الذي اقيم في مكان سينما «زهرة سورية»، يقع شارع المتنبي. لقد أهانت بيروت المتنبي كثيراً، و«بهدلته» أيما «بهدلة». فشارع المتنبي، خلف دائرة التحري، كان يحوي نحو ٢٠٠ امرأة من بائعات اللذة. والأسعار بين الثلاث ليرات (أي دولار واحد) حتى السبع ليرات. أما الممتازة فأجرها خمس عشرة ليرة لبنانية. وفي مقابل دائرة التحري كان يقوم **مقهى عازار**، وفيه يمكن التقاط إحدى بائعات اللذة لن يخجل من ارتياد «سوق الاوادم».

«**اللاروندا**» التي صارت مقهى لنفر من المثقفين، كانت تربض في القاطع الجنوبي لساحة البرج فوق فلافل المصري وعصير زين. فلافل المصري كانت أطيب من فلافل فريحة الواقعة عند بوابة سوق الدعارة بين سينما الأمبير وسينما التروبول.

وتاريخ اللاروندا يكشف أنها وارثة مقهى «**كوكب الشرق**» لصاحبه أبو عفيف كريدية. وأبو عفيف كريدية هذا زعموا أنه تباهى مرة، أمام الجنرال ويغان بأنه سيقطع رأس هتلر ويأتي به إلى بيروت. ووصل خبر هذه «المراجل» إلى يونس بحري، المذيع العراقي المشهور في إذاعة ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية (هنا برلين - حي العرب)، فلم يتردد في أن يوجه إنذاراً إلى أبو عفيف من الإذاعة قال له فيه: «يا أبو عفيف لا تخف. نحن سنأتي إليك في بيروت».

يومذاك، سرت شائعة تقول إن أبا عفيف كريدية خاف خوفاً شديداً، ولجأ إلى الاختباء في محلة الأوزاعي (حنتوس سابقاً) (قصة اختباء أبي عفيف في محلة الأوزاعي من مختلقات يونس بحري. انظر: إبراهيم كريدية، «أبو عفيف كريدية» رمز وذاكرة بيروت»، بيروت: ١٩٩٧).. وعندما انهار المبنى الذي يقع فيه مقهى «كوكب الشرق» في سنة ١٩٣٤، وكان يدعى «لوكندة الشرق»، شُيِّد في مكانه مبنى جديد. وفي هذا المبنى أنشأ وليم ملوك **مطعم «وليامس»** الذي تحوّل، لاحقاً، إلى مقهى «اللاروندا».

إن أشهر مقاهي البلد في ذلك الزمان هو **مقهى الحاج داود** الذي أسسه الحاج داود خطاب في سنة ١٩٠٠، وبناه من الخشب والقرميد. وكان المقهى يرتفع فوق ماء البحر بحيث يستطيع الجالس أن يرى سطح الماء من خلال الفواصل بين ألواح الخشب. وقد صُنعت الكراسي من الخيزران،



قهوة القزاز مع قناطرها الاربع في الجميزة.

أما الطاولات فمن الخشب فقط. وهذا المقهى كان مرصوداً للعائلات الدمشقية في أيام الجُمع، ويتردد عليه الشاعر أمين نخلة والفنان التشكيلي مصطفى فروخ وغيرهما من الكتاب والشعراء والصحافيين والسياسيين. وإلى جانب مقهى الحاج داود ظهرت «**قهوة البحرين**» التي كانت تفتح أبوابها حتى الليل بينما «الحاج داود» يُقفل عند الغروب. وفي «قهوة البحرين» كان يلتقي سامي الصلح وعبد الله اليافي وصليبا الدويهي ورشيد وهبي والياس أبو شبكة ومحيي الدين النصولي وحليم دموس وغيرهم. وظهر «**مقهى فلسطين**» في سنة ١٩٣٦ في محلة «عصّور» (كلمة «ع السور» تعني على السور أي سور بيروت القديمة).

وكان يقدم النارجيلة وورق اللعب والقهوة والشاي، ويختلف إليه الشاعر العراقي الصعلوك أحمد الصافي النجفي. أما **مطعم أبو عفيف** فطبقت شهرته الآفاق، ولا سيما في لبنان وسورية، فكان مقهى في النهار، وفي الليل يتحول إلى مطعم، وفيه نظم الأخطل الصغير قصيدة «يا عاقد الحاجبين». **ويقول فيه الشاعر الشعبي اللبناني عمر الزعني: «أبو عفيف شب نظيف، شب ظريف، لكن عند الحساب، يا لطيف يا لطيف»**. وكان هذا المقهى الواقع تحت قهوة «كوكب الشرق» يعمل ليل نهار، ولا يُقفل أبوابه قط. وعندما أراد صاحبه أبو عفيف البرهومي، في سنة ١٩٣٤، توسيع مطعمه، قام ببعض الحفريات، فانهار المبنى كله. وقيل وقتذاك: «مش معقول، مش معقول، يهد الكوكب صحن الفول». ومن مقاهي البلد المشهورة «**قهوة فتوح**» الذي كان يتردد عليه الأخطل الصغير، والشاعر محمد كامل شعيب العاملي الذي نظم في ليلة واحدة ١٤٣ بيتاً في محاسن الخيار المكبوس (المخلل). وإلى جانب هذه المقاهي تناثرت مقاه أخرى كثيرة، أومض بعضها ثم انطفأ، وما بقي منها أزالته الحرب. وأشهر هذه المقاهي: «**مقهى الجمهورية**»، و«**قهوة النجار**» عند مدخل سوق الصاغة، و«قهوة القزاز» في الجميزة (التي عادت إلى الحياة بعد أن نفضت بيروت عنها ركام الحرب)، و«**الحاج رسلان**» في ساحة رياض الصلح، و«**قهوة أبو متري**» في ساحة البرج، و«**مقهى مسعود**» في باب إدريس، و«**قهوة فاروق**» التي كان صاحبها يريد أن ينافس فيها «مقهى الكمال» المشهور في دمشق (سمي هذا المقهى باسم «فاروق» لأن معظم رواده كانوا من المصريين، تماماً مثلما سمي «مقهى فلسطين» لأن رواده كانوا، في معظمهم، من الفلسطينيين. انظر: شوقي الدويهي، «مقاهي بيروت الشعبية»، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٥) ، وبار سينما دنيا، و«**باتيسري سويس**» (تقع في منطقة باب إدريس، ويعود تاريخ تأسيسها إلى سنة ١٩٢٤) ، و«**الأوتوماتيك**»، و«**مقهى نورا**» في ساحة الدباس.

وإلى هذه انتشرت مقاهي القبضايات والمراجل مثل «**قهوة الباشا**» و«**قهوة الحاج سعيد حمد» في البسطة** و«**قهوة دوغان**» و«**النابلسي**» و«**البرجاوي**» و«**علي العبد**» و«**أبو معروف الحلواني**» و«**الفيومي**» و«**الياس ربيز**» و«**يزبك**».

مقاهي رأس بيروت: لم تكن منطقة رأس بيروت، قبل تأسيس الكلية الإنجيلية السورية في سنة ١٨٦٦ (الجامعة



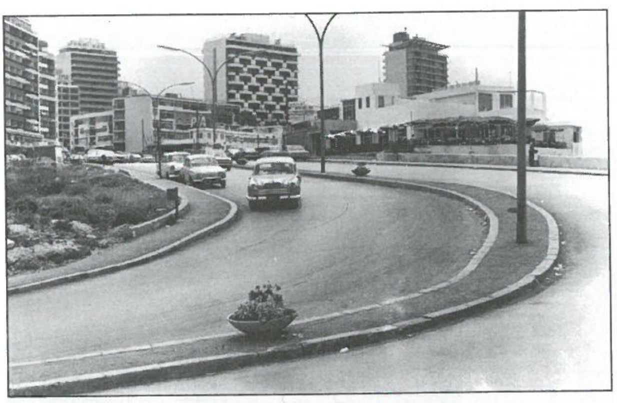
الحكواتي أيام زمان.

الأميركية في ما بعد) إلا مدى مترامياً من الشوك والصبار والرمال الحمراء التي تسرح فيها بنات آوى وبعض الضباع والذئبان. وهذه المنطقة مدينة في ازدهارها اللاحق إلى الجامعة الأميركية، وكلية بيروت للبنات التي صارت كلية بيروت الجامعية (BUC) ثم تحولت إلى الجامعية اللبنانية - الأميركية (LAU)، وإلى سلسلة من المصارف والشركات ودور السينما والسفارات والصحف (**النهار والشرق ثم السفير**) التي أطلقت موجة من الحداثة في أرجاء هذه المدينة البحرية. وكانت قصيدة النثر، على سبيل المثال، واحدة من جملة المخلوقات العجيبة التي انبثقت في مقاهي بيروت. وكان لمقهى **الهورس شو ومطعم فيصل** شأن كبير في تأسيس الكتابة الشعرية الجديدة على أيدي سوريين مهاجرين أمثال: يوسف الخال وأدونيس ومحمد الماغوط ونذير العظمة ورياض نجيب الريس وكمال خير بك وفؤاد رفقة، وهؤلاء، جميعاً، أسسوا مجلة **شعر** المشهورة، وأحدثوا انقلاباً كاملاً في بنية القصيدة العربية الحديثة. لكن، للأسف، فإن بيروت التي أطلقت موجة الحداثة في الخمسينات والستينات، راحت تشهد، منذ الثمانينات فصاعداً، جنازة هذه الحداثة نفسها، فصارت مدينة يغور الإبداع فيها، وتستسلم لطغيان الأرياف ومظاهر العيش القروي. وعلى سبيل المثال، كان الإفطار في مقاهي الحمراء فرنسياً خالصاً، أي كرواسون وبيض وقهوة. واليوم صارت «منقوشة» الزعتر أو فطيرة «اللحم بعجين»، مع فنجان من الشاي، سيدة الطاولات في بعض مقاهي المدينة، التي أضحت، بالفعل، بلا أرصفة أو مراحيض. وبدلاً من أن يشتري المثقفون صحف الصباح من المكتبات، باتوا يستعيرونها من كشك نعيم أمام «**الكافية دوباري**». وفي «الكافية دوباري»، الذي كان في يوم من الأيام أحد أجمل مقاهي شارع الحمراء، لا عجب إن رأى الواحد منا طاولة يجلس إليها أربعة صحافيين على سبيل المثال. وسيكون المشهد على النحو التالي: الصحافيون صامتون لا يتكلمون، بل هم منهمكون في قراءة الصحف. واحد يقرأ «**السفير**» والثاني يقرأ «**النهار**» والثالث يقرأ «**الحياة**» والرابع يقرأ «**الأخبار**». ثم يتبادلونها كلها بالتتابع، حتى إذا فرغوا منها جميعاً، وضعوها على الطاولة، ليبادر أحدهم بالقول: «شو الأخبار يا شباب؟».

لم يتجاوز طول شارع الحمراء الكيلومتر الواحد. وعلى جانبيه انتشرت مقاهي الرصيف الأنيقة. كان مقهى «**الإكسبرس**» القريب من «النهار» مرتعاً لذوي الثقافة الفرنسية، بينما انفرد «**الهورس شو**» بذوي الثقافة الانكلوسكسونية التي كانت طاغية، تماماً، في مقاهي شارع بلس مثل «**الانكل سام**» و«**فيصل**» وغيرهما. وفي هذه البقعة اللاهية اللاهبة عاش كتاب وشعراء وصعاليك ومجانين وملاعين. وهؤلاء عبثوا بالحياة اليومية في هذه المدينة أيما عبث، وتشبثوا بطراز حياتهم أيما تشبث، ثم طوحتهم الأيام إلى مصائر مختلفة، فمات عبد الأمير عبد الله بالسرطان، وانزوى محمد كبة في مخيم برج البراجنة بعد أن أقحلت أيامه، وكفّ عادل فاخوري عن كتابة القصائد الإلكترونية والبصرية والمائية وعاد أستاذاً للمنطق في الجامعة اللبنانية، وخلت المقاهي من مجانين أمثال



مقهى الروضة



دبيبو.

بطرس عيد الديب وكامل شعيب العاملي ونديم جوري وحيدر صالح وهاني الزعبي وأمثالهم.

كان «**الهورس شو**» أول مقهى رصيف في بيروت. افتتحه مُنح دبغي في ٢٢/١١/١٩٥٩ ليصبح، بعد فترة وجيزة، مقصداً لرواد منتصف الليل أمثال أنسي الحاج وريمون جبارة ورفيق شرف وحسين حيدر ومنح الصلح ونضال الاشقر وجوليانا سيرافيم وغادة السمان وبول غيراغوسيان. وعندما منعت السلطات اللبنانية مسرحية «مجدلون» للكاتب هنري حاماتي (إخراج: روجيه عساف)، قامت نضال الأشقر مع رفاقها بتمثيل المسرحية على رصيف «الهورس شو» (منعت المسرحية في ١٨/٤/١٩٦٩ في أجواء حوادث نيسان ١٩٦٩. والمسرحية تتناول بالنقد تخاذل السلطة اللبنانية أمام الاعتداءات الإسرائيلية، وتدافع عن العمل الفدائي الذي كان جزءاً من حركة التغيير والتجدد في العالم العربي). **لكن هذا المقهى الذي شهد مجداً وبهاء وشهرة تهاوى مع اندلاع الحرب الأهلية في ١٣/٤/١٩٧٥. وحينما أقفل في سنة ١٩٧٨ تحول إلى مطعم «أبو نواس» الذي يقدم الوجبات السريعة في إشارة جلية إلى التحولات التي عصفت بمدينة بيروت نفسها. ثم أصبح في سنة ٢٠٠٦ مقهى عادياً يدعى «كوستا».**

أما «**الإكسبرس**» الذي ظهر في أوائل السبعينات، فكان مجرد مطعم هادئ ومنزو، ويحتل مساحة رحبة فوق سينما «إتوال». غير أنه، بعد إقفال «الهورس شو»، انتعش قليلاً بعدما تحول إليه رواد «الهورس شو». ومنذ ذلك الوقت صار لمقهى «الإكسبرس» شأن ثقافي أوسع، وكان يرتاده كتاب ومثقفون وصحافيون من جريدة «النهار» وآخرون أمثال كسروان لبكي وموريس صقر وغيرهما. **وفي ما بعد تحول هذا المقهى إلى أحد مطاعم شبكة «بيتزا هات» الأميركية ثم مات.**

قبل أن يظهر مقهى «**المودكا**» في ١/١/١٩٧٠، كان يقوم في مكانه مقهى «**النغرسكو**». واليوم لم يبق في شارع الحمراء من مقاهي زمن التألق والازدهار غير الكافية دوباري (**أقفل مقهى المودكا سنة ٢٠٠٢، وأقفل الويمبي في سنة ٢٠٠٧**). واختفت مقاهي **الستراند والكونغرس والكافيه دولابرس**، وصار مقهى الألدورادو محلاً لبيع العطور و«الصبابيط». ويسترخي المثقفون والكتاب، في هذه الأيام، في أربعة مقاه: **الكافية دو باري والستار باكس وليناز والسيتي كافيه التي** افتتحها منح دبغي في أواخر التسعينات، علاوة على «**جدل بيزنطي**» و«**تاء مربوطة**» **ولم يبق للويمبي إلا ذكرى العملية الفدائية التي نفذها خالد علوان في ٢٤/٩/١٩٨٢ ضد الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يستريحون فيه، فقتل منهم ضابطاً وجرح جنديين.**

في شارع مواز لشارع الحمراء هو شارع المكحول (زقاق «طنطاس» سابقاً)، كان يقع مطعم «**سماغلرز إن**» ويديره الفنان جورج الزعني، الذي لم يتعب، لمدة طويلة، من تنظيم «مهرجان المكحول الفني». وفي هذه البقعة (المكحول وشارع جان دارك وشارع بلس) كانت تجري أبهى النشاطات الفنية والثقافية في الهواء الطلق. **لكن، بعد أن اختطف جورج الزعني وجرى نسف «السماغلرز إن» ركدت هذه المنطقة تماماً، وغارت فيها علائم الحيوية والتجدد.** وحاول جورج الزعني إعادة بعض النماء إلى هذه المنطقة، فافتتح صالة «اليسار» للفنون التشكيلية في شارع بلس، إلا أنها لم تلبث أن أقفلت. وما زال جورج الزعني يحاول، في بيداء بيروت، أن ينعش شيئاً من روحها القديمة بتقديم معرض هنا وتنظيم عرض فني هناك، إلا أن خيباته لا تنفك تتلاحق وتتقاطر عليه.

غير بعيد عن المكحول يمتد، في موازاته، شارع بلس الذي يقع على طول سور الجامعة الأميركية في بيروت. وسُمّي هذا الشارع على اسم المبشر الأميركي البروتستانتي دانيال بلس (١٨٢٣-١٩١٦) الذي أسس الجامعة الأميركية، والتي دُعيت عند نشأتها باسم «الكلية الإنجيلية السورية». واشتهر في هذا الشارع مقهى «**الانكل سام**» **ومقهى ومطعم فيصل**. ومع أن «الانكل سام» كان يمثل طرازاً من العيش الأميركي، وضرباً من ضروب الحياة على الطريقة الأميركية، إلا أن مطعم فيصل كان له شأن كبير في السياسة والثقافة في بيروت، ولعب دوراً فائق الحيوية في التاريخ العمراني لمدينة بيروت.

نشأ مطعم فيصل في سنة ١٩١٩ على الأرجح. ومؤسسه

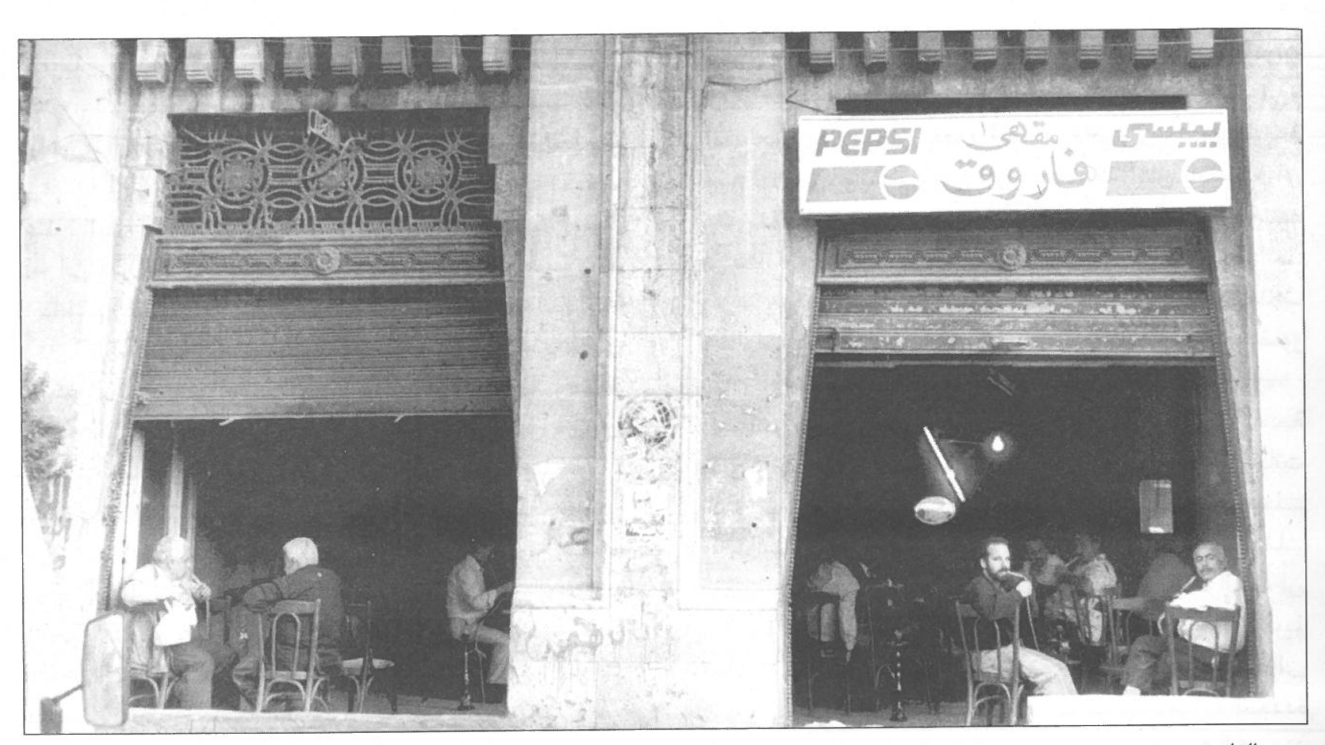


كافيه دي باري

هو توفيق سعادة الذي بناه مقابل المدخل الرئيسي للجامعة الأميركية على خط الترامواي الآتي من باب إدريس. ومقهى **ومطعم فيصل شهد، إلى جانب الأنكل سام والهورس شو، حركات فنية وفكرية ونقدية ثاقبة أثارت العديد من الزوابع.** فالروائية ليلى بعلبكي ما كان في إمكانها أن تكتب ثم تنشر على الناس روايتها الجريئة **أنا أحيا** لولا الأجواء الليبرالية في رأس بيروت. وصادق جلال العظم لم يكن من المتوقع أن يكتب **نقد الفكر الديني** لولا مناخ الحرية الذي أشاعته التقاليد العلمية في الجامعة الاميركية، ورسخته أفياء التسامح في رأس بيروت. وكان مقهى فيصل واحداً من الأماكن التي تجلت فيه روح النقد والجرأة والانفتاح وقبول الآخر واحترام الاختلاف. ومن رواد هذا المكان: كامل الأسعد وجوزف سكاف وعصام المحايري وعبد الله سعادة وعبد الله قبرصي وإنعام رعد ومحسن إبراهيم وكمال جنبلاط ووليد جنبلاط وسعيد تقي الدين ونديم دمشقية وجورج حبش ويوسف الخال وأدونيس وخليل حاوي وشفيق الحوت وعادل عسيران وميشال أبو جودة وكمال ناصر وعبد المحسن أبو ميزر وعلي فخرو وإسماعيل الأزهري وسعدون حمادي وعبد الحميد شرف وكمال الصليبي وكثيرون غيرهم. **وللأسف الشديد شهد معظم هؤلاء الرواد نهاية هذا المكان في ٣٠/٦/١٩٧٨.**

في منطقة الروشة، وهي رأس اللسان البحري لمدينة بيروت، ازدهرت مقاه أخرى كثيرة منها مقهى «**الدبلومات**» الذي ظهر في سنة ١٩٥٩ وأقفل في سنة ١٩٧٥، ومقهى «**ماي فير**» و«**كافيه دو لابيه**». غير أن أشهر مقاهي هذه المنطقة، بلا منازع، كان «**الدولتشي فيتا**» الذي كان الطبعة الليلية من مقهى فيصل. و«الدولتشي فيتا» هو اسم فيلم للمخرج الإيطالي المشهور فيدريكو فيلليني، وتعني العبارة، باللغة الإيطالية، «الحياة الجميلة». وفيلم فيلليني جمع الممثلة السويدية وصاحبة أجمل ساقين، قبل ظهور جوليا روبرتس، أنيتا أكبرغ والممثل مارشيلو ماستروياني. اما مقهى الدولتشي فيتا الذي أنشأه السوري سيف الدين الخوجا، وشريكه الحلبي عبد المعطي شاهين فقد تمكن من أن يجمع، في مساءاته، أصنافاً شتى من السياسيين والمنفيين ورجال المخابرات، فكان من رواده: أكرم الحوراني ورشدي الكيخيا وعلي صالح السعدي ومنح الصلح ومحمد أحمد المحجوب وزهير السعداوي مؤسس «جمعية الندامى» وغيرهم بالطبع. وكان هذا المقهى مقصداً للمخابرات اللبنانية والمصرية والسورية لكثرة أعداد اللاجئين السياسيين في بيروت آنذاك، الذين يتقاطرون، في كل ليلة، للتداول في شؤون حياتهم. وفي إحدى المرات راح زهير السعداوي وميشال أبو جودة يتحدثان بصوت مسموع أمام أحد المخبرين، واستغرقوا في الكلام على قضايا فلسفية ومسائل عويصة، وخلطا حابل الحديث بنابل العبارات بطريقة مقصودة تماماً. وقام المخبر بعمله خير قيام، فسجّل ما سمعه وقدمه إلى المسؤول عنه. فما كان من رئيسه، عندما قرأ التقرير، إلا أن وبّخه لأنه لم يفهم شيئاً من التقرير. وكانت أحاديث اللقاءات في هذا المكان تنقل، أولاً بأول، إلى الرئيس جمال عبد الناصر إبان خلافه المرير مع قادة حزب البعث العربي الاشتراكي بعد انفصال الوحدة المصرية ـ السورية. واشتُهر «الدولتشي فيتا» بأنه وكر المؤامرات السياسية للسوريين والعراقيين.

مقاهي البحر: انتشرت المقاهي البحرية على شواطئ بيروت كثيراً. لكنها، على العموم، ظلت مجرد مقاه لتدخين النراجيل والتمتع بهواء البحر، ولم يكن لها شأن مهم في الحياة الفكرية



مقهى الفاروق

أو الأدبية التي ازدهرت في بيروت. ومن أبرز هذه المقاهي البحرية: **الغلاييني ونصر ودبيبو** (وهي أسماء عائلات مالكيها)، ومقهى الروضة ومقهى **عروسة البحر** ومقهى **شاتيلا**، علاوة على المقاهي الراقية في **فندق السان جورج** وفي فندق **النورماندي**.

واللافت في هذا السياق، أن لبنان، على الرغم من خرافة الأصل الفينيقي، يكاد الباحث لا يجد في فلكلور هذا البلد أو في أمثاله المتوارثة أو في حكاياته الشعبية إلا النزر اليسير جداً من تقاليد البحر. حتى أن أهل طرابلس، ما عدا سكان الميناء، ما زالوا، حتى اليوم، لا يذهبون إلى البحر، ولا يتناولون السمك إلا قليلاً. وفي أي حال، فاللبنانيون ليسوا بحارة في الاساس، بل هم مزارعون وكرخانجية (الكارخانة هي معمل الحرير) هبطوا الساحل اللبناني ومدينة بيروت، حديثاً، أي بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل. لهذا كان «الأدب اللبناني» (مع التحفظ الشديد عن هذا المصطلح) «أدب ضيعة» على حد قول مارون عبود.

مقاهي الجامعة العربية: تقاسمت مقاهي بيروت، ولاسيما في عصرها الذهبي في أواخر الستينات وحتى أواخر السبعينات، الاتجاهات الثقافية واللغوية كلها. ففي «الإكسبرس» مثلاً كانت الغلبة للثقافة الفرنسية، وفي الأنكل سام وفيصل سادت الثقافة الإنكلو ـ ساكسونية، واختلطت الثقافتان في «الهورس شو» أيما اختلاط. **أما مقاهي الجامعة العربية فقد تميزت بغلبة التيارات القومية العربية بوجهها الفلسطيني، في حين أن اليسار اللبناني، ذا المنشأ الريفي، تركز في مقهى «الجندول» على كورنيش المزرعة، وفي «كافتيريا كلية الآداب» في الجامعة اللبنانية القريبة من كورنيش المزرعة.** ولولا أدونيس ونفر قليل جداً من الأساتذة اللامعين في كلية الآداب، لما كان للجندول وكافتيريا الآداب أي شأن يذكر في الحقل الثقافي ما عدا تنظيم التظاهرات الطالبية.

غير أن كلية الآداب وكلية التربية بالدرجة الأولى، لم تخلُ تماماً من الحركة الثقافية. وكان الباعث إلى ذلك وجود مثقفين بارزين ومبدعين كبار في الهيئة التعليمية من عيار أدونيس على سبيل المثال. وهؤلاء أسهموا في خلق فضاء إبداعي ونقدي مختلف. وهذا الفضاء أطلق في رحابه شعراء وأدباء لمعوا، لاحقاً، في الحركة الأدبية في لبنان أمثال الياس خوري وعباس بيضون وشوقي بزيع وجودت فخر الدين وحسن داود وبول شاوول وغيرهم. لكن اللافت والمثير للغرابة في آن، أن مقهى الجندول، وكافتيريا الآداب التي طالما ضمت في أفيائها العديد من الشعراء والكتاب والصحافيين، لم يظهر فيهما باحث واحد متمكن أو مفكر متميز أو عالم ثاقب في مجاله. والقليلون جداً الذين خرقوا هذه القاعدة كان الفضل في ذلك للجامعات الفرنسية أو الاميركية التي أعادت تكوينهم. .أما مقاهي الجامعة العربية فقد مارست حيوية متقدة ولكن في نطاق فلسطين في الغالب. وهذه المقاهي كانت موئلاً للثقافة الفلسطينية وللمثقفين العرب ممن عاشوا في ظلال الثورة الفلسطينية وفي حمايتها. وفي هذه البقعة المحصورة بين كورنيش المزرعة شمالاً والفاكهاني جنوباً، وبين جسر الكولا غرباً ومحطة الدنا شرقاً، أنشأ نفر من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والعراقيين والأردنيين والمصريين والتونسيين مختبراً مدهشاً للصعلكة والثقافة والعيش المتمرد، وأبدعوا في جنباتها كثيراً من الكلام والقول والمشاكسة، وتجلى ذلك كله في نصوص

شعرية وقصصية بالدرجة الأولى. وفي جمهورية الفاكهاني تناثرت ست مقاه هي: **الشموع والزاوية والتوليدو وأم نبيل وأبو فراس وأبو علي**. كان مقهى الشموع، مقابل الجامعة العربية، مرصوداً للعشاق وللسويعات الحميمة. أما مقهى الزاوية فموقعه أسفل المبنى الذي يقطن فيه سامي الجندي، ويقيم صلاح خلف (أبو إياد) في إحدى طبقاته. وهذا المقهى مختص بالنميمة ونقد المنظمات الفلسطينية. بينما انفرد التوليدو باللقاءات الصاخبة مع وجبات الطعام الدسمة. واشتهرت أم نبيل بصنع القهوة التركية وتقديمها بنفسها إلى المداومين على نكهتها. وهناك، عند أم نبيل، كان رسمي أبو علي يقيم مملكته، واشتُهر، من بين رعاياه «الشاعر» العراقي ابو روزا وولف الذي عشق الممثلة بربارا سترايسند عندما شاهد فيلم *A Star is Born* أما مطعم ومقهى أبي فراس، عند المدخل الغربي للجامعة العربية، فقد امتاز ببعض العزلة، فصار مقصداً لرجال الأمن وبعض المومسات والكثير من الخمور الثقيلة. غير أن مقهى أبي علي كان له منشأ مختلف، فهو في الأساس محل صغير لبيع الكنافة بالجبن. ومع التوسع العمراني لمنطقة الجامعة العربية بدأ يتوسع بدوره، فضم مرآب المبنى إلى المحل الصغير، ثم تمدد إلى مساحات مجاورة ما دعا الكاتب والمناضل المصري محجوب عمر إلى إطلاق صفة «التوسعي» عليه، فشاع هذا اللقب وفشا في الأوساط الفلسطينية، وصار اسمه المتداول «ابو علي التوسعي».

هناك، في تلك المساحة الضيقة، كان ثمة فضاء مترام للثقافة والشعر والتشرد والعيش المترع بالامل وبالثورة وبالتغيير، وبالحرية في نهاية المطاف. هناك انبثقت مجلة «**الرصيف**» في سنة ١٩٨١، وفي الأزقة الخلفية عاشت كائنات بشريَة عجيبة كالمجانين والملاعين والأشرار والمبدعين والسياسيين والثوريين والعسس. وجميعهم، بعد سنة ١٩٨٢، تفرقوا أيدي سبأ، وانتهوا إلى مصائرهم الفاجعة أحياناً، والناجعة أحياناً أخرى. فقد مات علي بن عاشور في تونس بحادث تافه، ومات آدم حاتم في صيدا جراء الجوع والسكر والتشرد. واستشهد علي فودة في بيروت بينما كان يوزع مجلة «الرصيف» على مواقع المقاتلين في الحرب سنة ١٩٨٢. واختفى هاني الزعبي جراء جنونه. وغادر غيلان العراقي المنطقة كلها وتخلى عن الصعلكة وارتدى ربطات العنق، وهو الذي كان يفرض الجزية، يومياً، على أصدقائه ليغسل معدته بماء الشعير صباحاً. وتعب سعادة سوداح من كتابة الشعر بعد ديوانه الجميل **نشيد التعب**. وظل وليد خازندار يشتغل، بصمت، على نصوصه حتى بات أحد أبرز شعراء القصيدة الجديدة في فلسطين. وتقطعت السُبل بحيدر صالح وضاع في زحام باريس كمجنون هارب لا يلتفت إليه أحد. ومات سمير أنيس في حادث سير في دمشق. **ثم اندثرت مقاهي الجامعة العربية كلها ما عدا التوليدو الذي فقد تاريخه وصار مجرد مكان لحشو بطون الطلاب. أما مقهى الشموع، على سبيل المثال، فقد أصبح قاعة للولائم والأعراس، ثم تحول إلى محل لبيع الأجهزة الكهربائية.**

ومقهى الزاوية دمرته الطائرات الإسرائيلية في حرب حزيران ١٩٨٢، وما زالت أطلاله باقية حتى اليوم. ومقهى «أبو علي» التوسعي، بدلاً من أن يتمدد انقسم، فأضحى دكاكين: واحد لبيع الملابس، والثاني لبيع المواد الغذائية، كأن التقسيم في لبنان لم يطاول إلا «أبو علي». ودُمّر أيضاً مقهى أم نبيل، وشيد في مكانه مبنى جديد. وأفلس مطعم أبو فراس وأقفل نهائياً. وفي ما بعد انتعشت عدة مقاه صغيرة في المنطقة لتخدم طلاب وطالبات جامعة بيروت العربية من غير أن يكون لها أي حضور ثقافي أو سياسي مثل «ميدواي» و«فرندز كافيه» و«كاسبر».

مقاهي ما بعد الحرب: كانت بيروت مدينة رحبة ومتسامحة تفتح ذراعيها لكل جديد مشاكس وممنوع. لكن بيروت اليوم باتت تضيق بالأفكار بعدما انحسرت عنها التيارات الفكرية واقحلت فيها المشاريع السياسية التجديدية، وتكاد تتلاشى فيها علامات التوثب والزهو والروعة والذوق والجمال. ومن علامات العياء أن الشبيبة اللبنانية الفائرة والباحثة عن انتماء سياسي وعن هوية ثقافية، تتنازعها مفاهيم وطنية ضيقة ومحلية وشعبوية أقرب إلى العنصرية، أو مفاهيم تقدمية سديمية الملامح. والعنصرية المتجددة التي كانت تغتذي على كره الفلسطينيين، تتخذ الآن من السوريين بالدرجة الأولى، ومن بعدهم السود والسيريلانكيين، دريئة لشحذ الكراهية وإعلاء الذات. وتبدو هذه الشبيبة بلا ذاكرة وبلا تاريخ، فهي لا تعرف بيروت المتألقة قبل الحرب، ولعلها لا تريد أن تتعرف إليها. كما أنها لا تلتفت البتة إلى مستحاثات الزمن الغابر الجميل. إن هذه الشبيبة تؤسس اليوم مقاهيها الخاصة وأماكن اجتماعها وطرائق سلوكها. **ففي شارع فردان، الذي يتحول بالتدريج إلى شارع بديل من الحمراء، تنتشر عدة مقاه هي: الديون وستاربكس والبريستول وسكوزي والماندرين (أصحابه من آل بوبس السوريين). وفي قلب المدينة** (Down Town) **الذي شهد انبثاق المقاهي التقليدية في بيروت، تنمو المقاهي الحديثة كالجراثيم، لكنها تبدو، في ليل بيروت، كأنها مقاه لا تنتمي إلى المكان البتة، بل إلى عصر ما بعد الحرب تماماً.** ثم إن الكثير من المقاهي الحديثة «تحررت» من أسر المركز الديني، وتمكنت من أن تنتزع لها مكاناً ومكانة عند الأطراف. **وهذه هي حال العشرات من المقاهي والمطاعم في ساحة ساسين وفي شارع مونو بمنطقة الأشرفية، وفي الجميزة وعند محطة الناصرة على طريق الشام القديمة وفي محيط الجامعة اليسوعية.** غير أن هذه المقاهي الجديدة كلها، تقريباً، ذات صلة واهية بالثقافة والفن والإبداع والنقد والتجدد. كأن هذه العناصر غارت في الحياة اللبنانية، وكأن مدينة بيروت التي كانت فاتنة ووثابة ومتحضرة، أمست ملاذاً لبشر يلهثون وراء العمل المأجور وخلف بعض المتع العابرة.

(صقر أبو فخر،
الدين والدهماء والدم: العرب واستعصاء الحداثة: ٢١٩،
بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧)

مطعم «فيصل» المقهى السياسي ـ الفكري بامتياز

..لم ينشأ مطعم فيصل من فراغ، سبقته وعاصرته مطاعم أخرى في البلد ـ ساحة الشهداء، باب ادريس، ثم أفرز الواقع موقعاً خاصاً لهذا المطعم المقهى المنتدى السياسي..

من هو فيصل هذا الذي حمل هذا المطعم اسمه، علماً بأن تاريخه يعود الى ما قبل أواسط الثلاثينيات؟

يقول المفكر منح الصلح إن صاحب المطعم الأول كان اسمه توفيق فيصل، وهو الذي استأجر المكان، وقد أفاد من الالتباس هذا مما أعطى المقهى المطعم دفعاً وسمعة. **كان الألق يتمحور حول فيصل الهاشمي واتصال اسمه بالثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية.** وقد شكل في زمانه ظاهرة واسعة جداً. إذ إنه في ذلك الزمن، كان الوطنيون والقوميون يعتبرون لبس الصدارة العراقية فريضة أو زيا وطنيا (والصدارة نوع من البرنيطة تشبه قبعة الكشافة). ولذلك فقد بويع بالملكية مرتين. إذاً، أفاد توفيق فيصل من هذه المناخات، علماً بأن الملك فيصل قد يكون توفي في حينها.

لكن هل الامر يقتصر على التباس الاسم؟ يجيب الصلح: الالتباس الأول كان مهماً، يضاف الى ذلك طبيعة رواده، أي الفئات التي تدرس في الجامعة الأميركية: عراقيون، سوريون، فلسطينيون، سودانيون و... أي جمهور طلاب الجامعة الأميركية العرب والأصدقاء والزوار من ذويهم، مما جعل الاسم والمكان عبارة عن بيئة عربية صافية. في ذلك الوقت جاءت ثورة رشيد عالي الكيلاني وثورة فلسطين في العام ١٩٣٦ (بقيادة الشيخ عز الدين القسام) وطبيعة طلاب الجامعة كطلائع في بلدانهم العربية، ثم الليبرالية الأميركية، خصوصاً تلك الأيام التي كان ينظر للولايات المتحدة الأميركية كدولة مثالية. كل هذا صب في رونق وجاذبية وأيضاً نوعية الأحاديث والنقاشات التي تجري.. حتى إنه نشأت لهجة عربية جامعة من خلاله تتجاوز محلية اللبناني أو السوري أو الفلسطيني، وبالطبع لم يقتصر الأمر على اللهجة العربية الجامعة، بل على الفكرة العربية الجامعة مطعّمة باليسار الذي مثله البعثيون والقوميون العرب... وهؤلاء هم الذين شكلوا الظاهرة الأدوم بين رواده.. ثم تصاعدت الأحداث في البلاد العربية وصولاً الى الثورة الفلسطينية ووصول العديد من القوى الجديدة قومياً ويسارياً الى الحكم في كل من سوريا والعراق.. في مثل هذه الأجواء ازدهر المقهى المطعم المنتدى ولعب دوره كاملاً.

كما أمضى رواده ردحاً من حياتهم في المطعم ومحيطه، درس شفيق جحا في الجامعة بدءاً من العام ١٩٢٩ وتخرج منها وعلّم فيها حتى العام ١٩٨٠، أي واحدا وخمسين عاماً. يربط جحا ما يصفه الصلح بألق مطعم فيصل بالثورة الطلابية الاولى التي شهدتها الجامعة الأميركية، وهو حدث لم تشهد الجامعة والمنطقة العربية على مقاسه لا قبلاً ولا بعداً. يتناول جحا ما يُعرف بمعركة الداروينية في الجامعة والتي أدت الى استقالة خمسة أساتذة من أصل ستة في كلية الطب. لم يكن المصطلح المستعمل في حينه تقدميا ويساريا، كانوا يتحدثون عن الحريات الاكاديمية والشخصية والعقائدية.. كان ذلك في العام ١٨٨٢. وانشغلت رأس بيروت وهي شبه قرية صغيرة بالموضوع وتداعياته، لا سيما أن الجامعة كانت عبارة عن دائرة طبية. حدث ذلك في عهد عبد الحميد.

إذاً، كما يعتقد جحا حافظت رأس بيروت على التقليد الليبرالي هذا. والحياة السياسية في المطاعم المقاهي لم تنحصر في مطعم فيصل في المراحل اللاحقة، علماً بأنه كان أنشطها. فيصل كان أكثر اتساعاً، أي إنه لم ينحصر بفئة واحدة مهما كانت، لذلك كان يقصده الجميع، حتى انني اذكر انه كان يجمع بين عتاة القوميين العرب وأنصار «حلف بغداد» أمثال عبد القادر الكيلاني الذي شغل منصب الأمين العام لـ «حلف بغداد» عندما طُرح المشروع..

يقال إن والد أحد الطلاب العرب أرسل رسالة بريدية الى ابنه الطالب في الجامعة الأميركية دوّن عليها العنوان التالي: يصل الى ابننا العزيز فلان بيروت الجامعة الأميركية قبالة مطعم فيصل. بالطبع هذه الطرفة لا تنتمي الى عالم تفريخ الجامعات الرائج اليوم، لكنها تعبر عن مدى الشهرة التي بلغها هذا المطعم، الى الحد الذي بات دليلاً للجامعة الأميركية، وهي الجامعة الأولى في لبنان..

يلخص الصلح مطعم فيصل بانه اطلق رافدا من روافد الحركة القومية. كان عبارة عن لبنان في العروبة والعروبة في لبنان، هؤلاء الذين تعاقبوا عليه اطلقوا حلم النهضة العربية الذي لم يتحقق في اي بلد عربي كما حلم به هؤلاء، برغم ان كثيرين من هؤلاء باتوا جزءا من بنى السلطات العربية.. ساعد على هذا الحلم ما قدمته لهم منطقة رأس بيروت من تعددية سياسية وثقافية وتلاقي هموم مجتمعات، معطوفا ذلك كله على الثقافة الأميركية التي لم تكن في حينه صدى للسياسات الأميركية. فالجامعة في اميركا هي جزيرة متقدمة على السائد.. احد رؤساء الجامعة قال ان الجامعة الاميركية ليست جامعة امبريالية. ما حدث في

مطعم فيصل مقفلاً قبل أن يتحول إلى «بيتزا هات» ثم «ماكدونالد».

فيصل هو تعريب السياسة وفتح الآفاق امام الطلائع الشبابية في كل بلد عربي..

أسماء... أسماء: الأسماء التي مرت على مطعم فيصل وأمكن جمعها من عدد من المعاصرين الآتية: فؤاد حبيش، عبد الله العلايلي، بطرس البستاني (الصغير)، وديع عقل، معروف الرصافي، فخري البارودي، رئيف خوري، كمال ناصر، محسن العيني، أكرم الحوراني، ميشال عفلق، صلاح الدين البيطار، نبيه أمين فارس، قسطنطين زريق، فاضل الجمالي، سليمان النابلسي، عبد القادر الكيلاني، اسماعيل الأزهري، زيد الرفاعي، منصور الأطرش، حسان مريود، سعدون حمادي، جورج حبش، وديع حداد، محسن ابراهيم، علي فخرو، عبد الحميد شرف، وصفي التل، مكرم عطية (كتائبي) اسماعيل الأزهري، فؤاد مفرج (أستاذ في الأميركية ذهب في حملة دعائية لصالح فلسطين للولايات المتحدة الأميركية وتوفي فيها).. وباختصار أكثر قادة حزب البعث العربي الاشتراكي، حركة القوميين العرب، القوميون السوريون أيضاً.. والملاحظ أن بين الأسماء الواردة شعراء وكتاباً وصحافيين ومفكرين ومن باتوا رؤساء حكومات ووزراء ونواباً..

(زهير هواري، «السفير»، ٢٠٠٣/٥/١٦)

«المودكا»: غواصة تغرق في ذاكرة الحمراء

«المودكا».. المقهى النجم ليوم واحد، اليوم الأخير، أمس.

روّاد «المودكا» يبكون الغوالي المفقودين. معظمهم عاد ليوثّق، في الصحف، أسماء «شهداء» التغيير في شارع الحمرا: «الستراند»، «الهورس شو»، و«الأكسبرس»، ناهيك عن سينما «الإلدورادو» التي تحولت بدورها إلى متجر، كما دور عرض أخرى مثل «مارينيان» و«الحمراء». مكتبة «فور ستيبس داون» رحلت أيضاً. ومشاريع المقاهي الجديدة لم تصمد والدليل «لا سيجال».

الشاعر والصحافي بول شاوول يشرب القهوة: «مقاهي المثقفين صارت مشوهة. كأن الزمن ضدها». يصف نفسه ورفاقه من الصحافيين والكتّاب، بعد القهوة التي عرفت بالغواصة بسبب هندستها التي ابتدعها المهندس طوني نصير، بأنهم «حاملين عفش بشارة واكيم، هائمين بأوراقهم وأقلامهم ونظاراتهم ليبحثوا عن مكان يتحملهم، لأن زمن المدينة الجديد لا يتحمل الديناصورات».

اجتمع المثقفون المهجرون أمس وتداولوا بأمر وجهتهم الجديدة، يخبر شاوول. الخيارات تتفاوت ما بين «الويمبي» و«سيتي كافيه» و«كافيه نجار».

وكان شاوول قد كتب «يوميات رصيف» في «المودكا»، التي لطالما استضافت «صالون» الصحافي ميشال أبو جودة مساء كل يوم، إلى جانب الشاعر نزار قباني، وبشير الجميل، وطوني فرنجية، وغيرهم. هؤلاء هم أهل «المودكا» وزمنه.. ٣٢ عاماً مرّت عليهم وعليه. أما رواده الشباب فهم من غير المتأنقين، يعلنون أنفسهم ناشطين سياسيين وثقافيين ومدنيين...

(رشا الأطرش، «السفير»، ٢٠٠٣/٣/١)

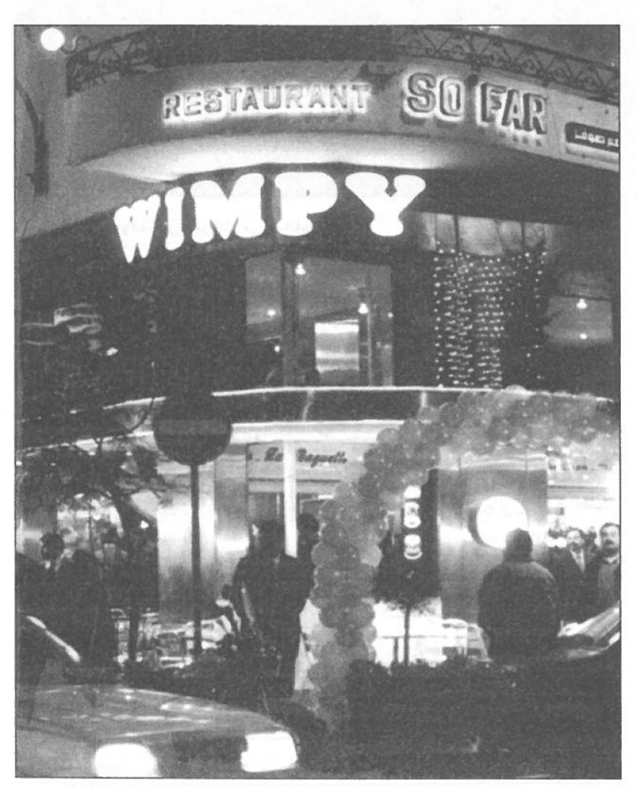
الويمبي



مقهى الويمبي بعد عملية خالد علوان البطولية ضد الجيش الاسرائيلي في ١٩٨٢/٩/٢٤

بالأمس، أقفل مقهى الويمبي أبوابه للمرة الأولى في وجوه الوافدين إليه، ليصبح المتوقع منذ أشهر حقيقة: لم يعد هناك مقهى رصيف على تلك الزاوية في شارع الحمراء.

(«السفير»، ٢٠٠٦/١٢/٢٠)



مقهى الويمبي قبل إغلاقه.

فندق «سان جورج» في بيروت
أثر فني مهدد بالإعدام



السان جورج وفنادق بيروت في العام ١٩٧٠

في مطلع هذه السنة، ١٩٩٤، اجتمع ٢٥ مهندساً على أن واجبهم رفع نداء إلى وزير الثقافة اللبناني حول ما يتهدّد أحد الأبنية ذات القيمة الفنية الفريدة، من أخطار التشويه والتدمير، ضمن خطط الشركة العقارية لإعادة بناء وسط بيروت. وذلك للفت نظر المسؤولين والرأي العام إلى «ضرورة تصنيف البناء المقصود ـ هو فندق «سان جورج» القائم على البحر في منطقة عين المريسة من العاصمة اللبنانية ـ «على لائحة المباني ذات القيمة التاريخية والهندسية لما يتمتع به من ميزات مهمة تبرر تصنيفه في طليعة اللائحة».

يؤكد بيان المهندسين الـ ٢٥ على «أهمية فندق السان جورج في التراث المعماري عامة وتراث مدينة بيروت خاصة وذاكرتها التي ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً».

«إنه أول عمل هندسي لبناني حيث يجمع بين متطلبات الحداثة والطابع المميز للأسلوب الهندسي المرتبط بمحيط البحر المتوسط».

ويشير البيان إلى أنه «كان لهذا الفندق، لما له من براعة في التصميم، وتوازن في الحجم الهندسي، واستعمال صالح لمواد البناء الحديثة، أثر فاعل على تطور فن العمارة اللبنانية المعاصرة...» وهذا ما جعل منه «مرجعاً أساسياً لتراث المدينة ومثالاً طالما ذكر في كثير من المراجع الهندسية العالية والمعاهد الجامعية»..

هذا الفندق الذي ينتصب على شاطئ البحر، منذ أكثر من ٦٠ عاماً، متحدياً كل تغيرات المشهد المديني من حوله، يفرض معاييره الجمالية القائمة على البساطة المعجزة.

(الياس شاكر، «النداء»، ١٥/١/١٩٩٤)

«قهوة القزاز» ـ الجميزة في استعادة لأيام زمان

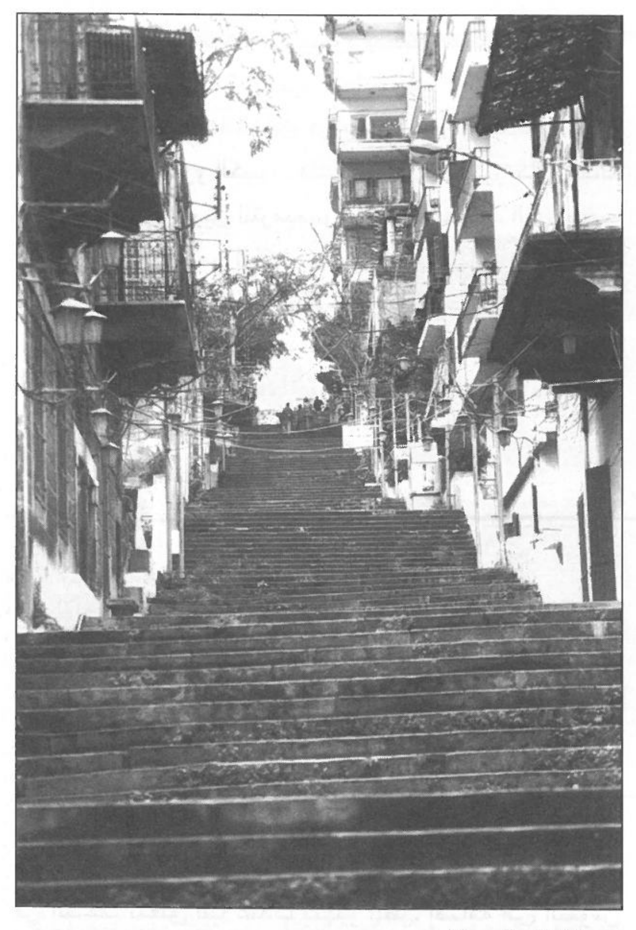
تعتبر الجميزة أحد الأحياء البيروتية القليلة التي حافظت على طابعها التراثي وأبنيتها القديمة التي تعكس العمارة اللبنانية الأصيلة بطبيعتها وقناطرها الثلاث وقرميدها الأحمر وشرفاتها الحديدية. ولم يتغير ناس الجميزة. ولم يغادرها أهلها مما ساعد المنطقة في الحفاظ على طابعها القديم إلى حد بعيد، حيث لم تتغير المحال التجارية والمطاعم والحرف والمهن، إلى رائحة العرق المنبعثة من معامل الخمور التي تميزت بها منذ القدم.

شارعا غورو وفوش، ومدرسة الفرير، و«قهوة القزاز» وأدراج الجميزة، ومكتبة سمير، وفرن عميرة، وملحمة الرومي، ومطعم «لوشيف» ومتاجر «الانتيك» ومخفر الدرك، بعض معالم هذا الحي التي لم تتبدل، وكأن الزمن لا يمر في منطقة الجميزة العابقة بالقدم.

شيدت مباني الجميزة ما بين ١٨٥٠ و١٩٠٠ واشتهرت بكنائسها: مركز مطرانية الروم الأرثوذكس وكنيسة سانتا ماريا وكنيسة مار أنطونيوس للروم الكاثوليك وكنيسة مار مارون الشهيرة وكنيسة الفرير ومار أنطونيوس للموارنة ومار نقولا للروم الأرثوذكس التي يعاد تشييدها على النمط الحديث.

كانت المنطقة قبل ذلك تعرف باسم حي البيارة لكثرة البساتين والنواعير والآبار وعيون الماء فيها. وكانت بيروت حينها مسيجة بسور كبير، تحميها أبوابها السبعة التي كانت تفتح مع شروق الشمس وتغلق مع غروبها. وتحفظ مفاتيح هذه الأبواب مع حراس أشداء لا يستخدمونها إلا في هذين التوقيتين، وأي استثناء لا يتم إلا بأمر الوالي نائب السلطان في هذه المدينة. **وكانت تزدان بعدد كبير من شجر الجميز، ولاسيما بمحاذاة سورها في الطريق الذاهبة إلى مدينة طرابلس. ومن هنا جاءت تسمية الجميزة التي تميزت بهذا النوع من الأشجار الضخمة التي تعطي ثمراً يكاد حجمه يقارب حجم حبة البندق.**

تعتبر «قهوة القزاز» من أهم معالم منطقة الجميزة. وتكاد تكون عاصمة هذا الحي البيروتي المتعدد الوصف، والمكان الذي لا يطفئ أنواره ليل نهار.



درج الفن في الجميزة

من خيمة متواضعة تحت شجرة جميز كبيرة ملاصقة للمخفر في العام ١٩٢٠، إلى مقهى تم تجديده أخيراً، مسيرة طويلة حافلة بالذكريات والقصص والروايات التي لا تزال تتردد أصداؤها في أرجاء المكان الذي عاصر أكثر من جيل. **ولا يزال الأحياء من رواد المقهى الأوائل يقصدون «قهوة القزاز» في مواعيدهم المحددة. فتلك عادة لم يقلعوا عنها حتى في عز أيام الحرب، وخصوصاً أن المقهى لم يقفل يوماً بابه مهما قست الظروف وتبدلت الأحوال..**

(جنى نصر الله، «النهار»، ٧/١٢/٢٠٠٤)

فندق «سان جورج» في بيروت
أثر فني مهدد بالإعدام



السان جورج وفنادق بيروت في العام ١٩٧٠

في مطلع هذه السنة، ١٩٩٤، اجتمع ٢٥ مهندساً على أن واجبهم رفع نداء إلى وزير الثقافة اللبناني حول ما يتهدّد أحد الأبنية ذات القيمة الفنية الفريدة، من أخطار التشويه والتدمير، ضمن خطط الشركة العقارية لإعادة بناء وسط بيروت. وذلك للفت نظر المسؤولين والرأي العام إلى «ضرورة تصنيف البناء المقصود - هو فندق «سان جورج» القائم على البحر في منطقة عين المريسة من العاصمة اللبنانية - «على لائحة المباني ذات القيمة التاريخية والهندسية لما يتمتع به من ميزات مهمة تبرر تصنيفه في طليعة اللائحة».

يؤكد بيان المهندسين الـ ٢٥ على «أهمية فندق السان جورج في التراث المعماري عامة وتراث مدينة بيروت خاصة وذاكرتها التي ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً».

«إنه أول عمل هندسي لبناني حيث يجمع بين متطلبات الحداثة والطابع المميز للأسلوب الهندسي المرتبط بمحيط البحر المتوسط».

ويشير البيان إلى أنه «كان لهذا الفندق، لما له من براعة في التصميم، وتوازن في الحجم الهندسي، واستعمال صالح لمواد البناء الحديثة، أثر فاعل على تطور فن العمارة اللبنانية المعاصرة...» وهذا ما جعل منه «مرجعاً أساسياً لتراث المدينة ومثالاً طالما ذكر في كثير من المراجع الهندسية العالمية والمعاهد الجامعية»..

هذا الفندق الذي ينتصب على شاطئ البحر، منذ أكثر من ٦٠ عاماً، متحدياً كل تغيرات المشهد المديني من حوله، يفرض معاييره الجمالية القائمة على البساطة المعجزة.

(الياس شاكر، «النداء»، ١٩٩٤/١/١٥)

«قهوة القزاز» ـ الجميزة في استعادة لأيام زمان

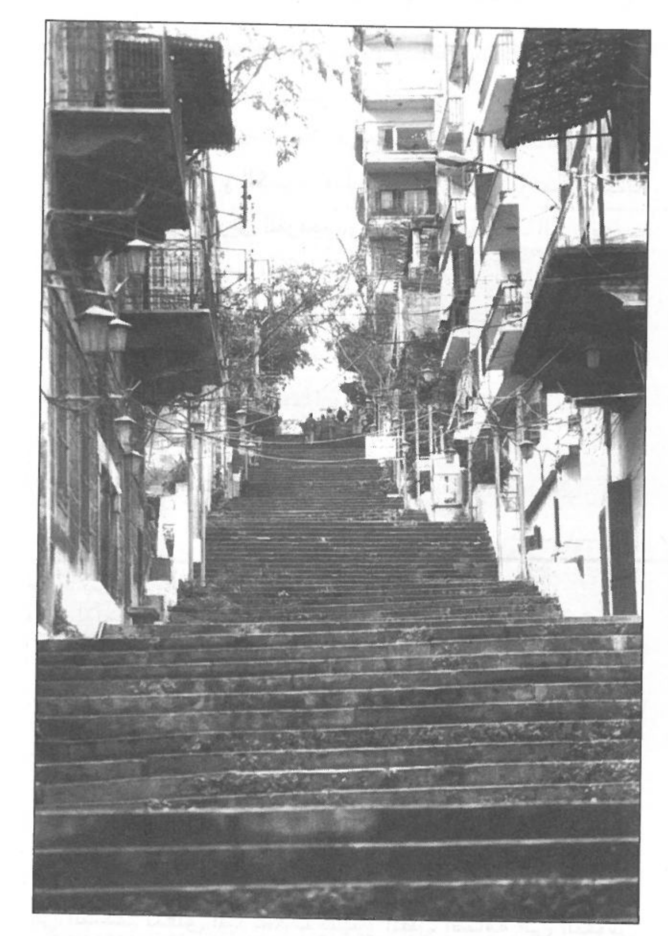
تعتبر الجميزة أحد الأحياء البيروتية القليلة التي حافظت على طابعها التراثي وأبنيتها القديمة التي تعكس العمارة اللبنانية الأصيلة بطبيعتها وقناطرها الثلاث وقرميدها الأحمر وشرفاتها الحديدية. ولم يتغير ناس الجميزة. ولم يغادرها أهلها مما ساعد المنطقة في الحفاظ على طابعها القديم إلى حد بعيد، حيث لم تتغير المحال التجارية والمطاعم والحرف والمهن، إلى رائحة العرق المنبعثة من معامل الخمور التي تميزت بها منذ القدم.

شارعا غورو وفوش، ومدرسة الفرير، و«قهوة القزاز» وأدراج الجميزة، ومكتبة سمير، وفرن عميرة، وملحمة الرومي، ومطعم «لوشيف» ومتاجر «الانتيك» ومخفر الدرك، بعض معالم هذا الحي التي لم تتبدل، وكأن الزمن لا يمر في منطقة الجميزة العابقة بالقدم.

شيدت مباني الجميزة ما بين ١٨٥٠ و١٩٠٠ واشتهرت بكنائسها: مركز مطرانية الروم الأرثوذكس وكنيسة سانتا ماريا وكنيسة مار أنطونيوس للروم الكاثوليك وكنيسة مار مارون الشهيرة وكنيسة الفرير ومار أنطونيوس للموارنة ومار نقولا للروم الأرثوذكس التي يعاد تشييدها على النمط الحديث.

كانت المنطقة قبل ذلك تعرف باسم حي البيارة لكثرة البساتين والنواعير والآبار وعيون الماء فيها. وكانت بيروت حينها مسيجة بسور كبير، تحميها أبوابها السبعة التي كانت تفتح مع شروق الشمس وتغلق مع غروبها. وتحفظ مفاتيح هذه الأبواب مع حراس أشداء لا يستخدمونها إلا في هذين التوقيتين، وأي استثناء لا يتم إلا بأمر الوالي نائب السلطان في هذه المدينة. **وكانت تزدان بعدد كبير من شجر الجميز، ولاسيما بمحاذاة سورها في الطريق الذاهبة إلى مدينة طرابلس. ومن هنا جاءت تسمية الجميزة التي تميزت بهذا النوع من الأشجار الضخمة التي تعطي ثمراً يكاد حجمه يقارب حجم حبة البندق.**

تعتبر «قهوة القزاز» من أهم معالم منطقة الجميزة. وتكاد تكون عاصمة هذا الحي البيروتي المتعدد الوصف، والمكان الذي لا يطفئ أنواره ليل نهار.



درج الفن في الجميزة

من خيمة متواضعة تحت شجرة جميز كبيرة ملاصقة للمخفر في العام ١٩٢٠، إلى مقهى تم تجديده أخيراً، مسيرة طويلة حافلة بالذكريات والقصص والروايات التي لا تزال تتردد أصداؤها في أرجاء المكان الذي عاصر أكثر من جيل. **ولا يزال الأحياء من رواد المقهى الأوائل يقصدون «قهوة القزاز» في مواعيدهم المحددة. فتلك عادة لم يقلعوا عنها حتى في عز أيام الحرب، وخصوصاً أن المقهى لم يقفل يوماً بابه مهما قست الظروف وتبدلت الأحوال..**

(جنى نصر الله، «النهار»، ٢٠٠٤/١٢/٧)

التياترو الكبير.. من أعرق المسارح إلى أحدث المطاعم

عندما كانت جرافات «سوليدير» تنظف وسط مدينة بيروت من آثار الحرب الأهلية، تمهيداً لإعادة بناء أو ترميم العاصمة اللبنانية.. قامت قيامة الزملاء في بيروت عندما وصلت الجرافة أمام مبنى «التياترو الكبير». ذلك أن المبنى المذكور كان بحالة مقبولة بالنسبة لفريق الترميم، رغم مئات القذائف التي أصيب بها خلال الحرب. ومن المؤكد، أن الجرافات ما كانت لتستثنيه أو تستثني بعض الأبنية المتميزة الأخرى، لولا الحملات الصحافية التي ترافقت مع مواقف قلة من السياسيين الذين يعتبرون الحداثة والتراث وجهين لعملة واحدة. وكان وزير الثقافة آنذاك، ميشال إده، أحد أولئك الساسة.

أما لماذا توقفت الجرافة أمام عمارة التياترو الكبير ولم «تنظف» المكان الاستراتيجي الذي تقع عليه عند تقاطع شارعي المعرض والأمير بشير، ليشيد على أنقاضها، وفي تلك القطعة من الأرض الباهظة الثمن، نصف ناطحة سحاب.. فلأن هذا المسرح **كان أحد أهم إنجازات وزير الأشغال العامة الراحل المهندس يوسف فارس افتيموس، إلى جانب الإنجاز الآخر المتمثل في مبنى بلدية بيروت** الذي يجري ترميمه الآن. فقد صممه افتيموس في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي على غرار دار الأوبرا في باريس مع إضفاء خصوصية إبداعية عليه، صالة كبيرة، شرفتان لأصحاب تذاكر الدرجة الأولى، وفتحة في السقف تنغلق آلياً عندما ينهمر المطر. إضافة إلى النقوش والرسوم التي تملأ أرجاءه، ولقد احتضن منذ ولادته أعمالاً فنية عربية وعالمية، منها عرض للفرقة الفرنسية العريقة المعروفة باسم LA COMEDIE FRANCAISE، وعروض غنائية ومسرحية لأم كلثوم ويوسف وهبي. ونجيب الريحاني، إضافة إلى فيلم «ذهب مع الريح» لكلارك جيبل، لكن نجم رائد المسارح اللبنانية بدأ بالأفول قبل الحرب الأهلية التي انطلقت شرارتها الأولى في عام ١٩٧٥. وتحديداً عندما أصبح شارع الحمراء في رأس بيروت مركزاً تجارياً وفنياً وصحافياً على حساب ساحة الشهداء ومحيطها حيث يقع المسرح الكبير، في الستينات. .



التياترو الكبير

انتهت الحرب وبدأت إعادة ترميم البنية التحتية في الحيز الذي يقع فيه التياترو الكبير. وكانت المفاجأة المزدوجة، ذلك أن معظم الأبنية التاريخية قد رممت أو هي قيد الترميم باستثناء مبنى المسرح. .

(جان داية، «الشرق الأوسط»، ١/٢/٢٠٠١)

قصر الأونيسكو ذاكرتنا الثقافية.. هنا وقف طه حسين وأم كلثوم وأقيم أول معرض كتاب



قصر الأونيسكو.

في العام ١٩٨٢ وخلال اجتياح لبنان، قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف مقر «قصر الأونيسكو» في بيروت. لم يكن المبنى هذا مقراً عسكرياً يختبئ فيه المقاتلون، كذلك لم يكن موقعاً أثرياً، لنقل بأن اسرائيل تريد زيادة الدمار. كل ما هنالك ان هذا القصر كان **مجرد رمز ثقافي احتضن الكثير من الإبداعات الفنية اللبنانية والعربية والعالمية على مر تاريخه.**

من هنا جاء القصف ليقول ان اسرائيل تريد أيضا تدمير هذا الرمز «الاخير» لما تبقى من «ثقافة» لبنانية في تلك المرحلة التي كانت تشهد تغييرات عدة وعلى مختلف الصعد. فنحن لو عدنا الى الوراء قليلا لوجدنا ان قصر الأونيسكو، كان قد أنشئ في العام ١٩٤٨ ليكون «منبراً لثقافة السلام التي اعتنقها لبنان».. بيد ان القصر عاد وتعرض مؤخرا للقصف وبشكل أعنف مما فعلته الطائرات الاسرائيلية، إذ جاء «القصف» من قبل مجلس الوزراء في لبنان، خلال جلسة أخيرة له، حين قرر في جلسته المنعقدة بتاريخ ٩ تشرين الأول ٢٠٠٣ «تخصيص» قصر الأونيسكو بإعلان مبهم وملتبس: «الموافقة على استثمار قصر الأونيسكو».. فما هو هذا المنطق وهذا الأسلوب الذي يماثل ما بين الثقافة وبين باقي قطاع الخدمات في هذه الجمهورية السعيدة؟ اننا أمام ذاكرة بلد عرف كيف يصنع تفرده في محيطه والعالم من خلال عمله الثقافي، من خلال مبدعيه، وليس بالتأكيد من خلال سياسييه الأشاوس. في العام ١٩٤٨، أي حين قررت الجمهورية الفتية بناء هذا الصرح كانت تدرك انها ستخلف وراءها مكانا يحفظ ذاكرة ما. هل يعرف اصحاب القرار ان طه حسين تحدث هنا؟ ان أم كلثوم صدحت بين هذه الجدران؟ ان الأخطل الصغير أنشد من فوق الخشبة جميل شعره يوم تكريمه باختياره أميراً للشعراء؟ ان محمود درويش ونزار قباني ولويس ماسينيون وخاتشادوريان... و... و... اعتلوا منبر القصر وسجلوا ذلك في «السي. في» الخاص بهم. لماذا يتجاهل اصحاب القرار أن لوحات بيكاسو ودالي وجبران وفروخ والدويهي و... و... علقت على جدران صالة العرض. **وهل يعرف أعضاء الحكومة ان اول معرض للكتاب في بيروت أقيم في قصر الأونيسكو عندما عقد المؤتمر العالمي الثالث لمنظمة اليونسكو، وفيها اعلن ان اللغة العربية ستكون لغة رسمية ولغة الأعمال في الندوة؟ ..**

(اسكندر حبش، «السفير»، ١٨/١٠/٢٠٠٣)



السفير
جريدة لبنان في الوطن العربي
وجريدة الوطن العربي في لبنان
تصدر عن
دار العروة الوثقى للصحافة والنشر

صاحبها ورئيس تحريرها
طلال سلمان

السفير

يومية سياسية عربية

٤ صفحات
٢٠٠ قرش

الضغوط العسكرية الاسرائيلية على بيروت
ومحاولات فك الارتباط بين المقاومة والمسلمين
[ص ٣]

AS - SAFIR Arabic political daily - 5 August - No 2964 - ninth year.

بيروت تحترق... ولا ترفع الأعلام البيضاء

صباح الخير يا بيروت

قوات الغزو تدمر مئات البنايات وآلاف المنازل و٩ مستشفيات وتسقط ٣٠٠ قتيل وجريح

صد محاولات اقتحام على ٦ محاور والغزاة يتراجعون إلى قصر العدل رغم تقدمهم في الأوزاعي

على الطريق

التدمير... والحل... والحساب

قذيفة اخترقت سقف غرفة في منطقة الحمراء. (عبد الحميد منو)

مئذنة جامع حطمتها القنابل الاسرائيلية

الاضرار في موقف مستشفى البربير.

وزراء الخارجية العرب يلتقون السبت للتحضير للقمة

مجلس الأمن يعقد جلستين من دون تصويت
مشروع سوفياتي يدعو لانسحاب خلال ٣ ساعات
ومشروع اسباني - أردني يطالب بانسحاب فوري

عرفات يحيي القوات المشتركة:
ندافع عما تبقى من شرف الامة

«السفير» كما انفردت بالصدور زمن الاجتياح الإسرائيلي.. (٥/٨/١٩٨٢).

طريق جديدة شقت الرمل ورأت كل شيء..

...«أحدهم من آل دوغان كان يعمل إطفائياً وتقاعد. كان يؤيد **عبد الناصر** ويضعه في مراتب القديسين. تصادف أن أبلغه احدهم أن هناك خطيباً في جامع الإمام علي بن أبي طالب يتناول عبد الناصر بالسوء أثناء خطبة الجمعة. فما كان منه إلا أن انتظر حلول يوم الجمعة التالية وذهب للصلاة واقتعد الصف الأول. وحين بدأ الخطيب بإلقاء خطبة الجمعة تناول فيها عبد الناصر كعادته مستغلا خلافه مع المملكة العربية السعودية في مرحلة الحلف الإسلامي الذي أقامته المملكة. فما كان من صاحبنا إلا أن صعد الى المنبر وضرب الشيخ ضرباً مبرحاً دون ان يستطيع أحد من المصلين التدخل خوفاً من بطشه. ثم قام ووضع العمامة على رأسه وبدأ يخطب في المصلين مهاجماً رجال الدين المرتزقة داعياً لعبد الناصر ومن مع عبد الناصر. ومن يومها غاب الشيخ المذكور عن هذا المنبر ولم يعد المصلون يرون له وجهاً. مات هذا القبضاي كمداً بعد أيام على انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية إذ لم يستطع الحياة في ظل شخص كان معادياً لعبد الناصر».

هذه فقرة في كتاب **ذاكرة الرمل** للمحامي أسامة العارف. **الرمل كان سمة جنوبي بيروت. على الرمل قام سجن عرف باسم سجن الرمل. وفي أواخر عهد العثمانيين شُقت طريق مشى الناس عليها الى الإمام الأوزاعي وسموها الجديدة. وهكذا ظلت.**

إلى الرمال كان البيروتيون يخرجون في عطلاتهم وأعيادهم. يفلشون اغراضهم على هضبة الرمال ويصنعون نزهاتهم. وإلى الرمال راح البيروتيون يخرجون من وسط البلد وجواره ليبنوا ويقطنوا ويتزوجوا وينجبوا. هذا كان في العشرينات وما بعدها. نزح أهل الجبل ايضاً، اهل إقليم الخروب بخاصة. كبرت المنطقة. **كان الواحد إذا وقف عند سجن الرمل ونظر شرقاً لا يرى إلا الرمال والبحر. لكن بيروت كانت تتمدد حيث تجد متسعاً. ومعها كانت الطريق الجديدة تكبر.** في الستين ستقوم جامعة بيروت العربية ملاصقة للسجن نفسه. حين تنفجر حرب السنتين، يدخل مسلحون ويحررون المساجين. أكثر من ٧٠٠ سجين. بعد شهر، يهدم طلاب الجامعة السجن في خطوة «ثورية». يقف رئيس متخرجي الجامعة يومها عصام الحوري على أنقاض السجن تالياً ببهجة بياناً هاجم فيه من موقعه كـ«قوى وطنية عروبية» «القوى الانعزالية الطائفية». ورفعت على أنقاض السجن لافتة تقول: هدم السجن (هو) رفض للتخلف، أداة للتغيير، ثورة في المجتمع».

هذه اللافتة وقعها أصحاب قرار الهدم و«وضع يد الجامعة على أرض السجن: خريجو الجامعة واتحاد طلابها العام والإتحاد العام لطلبة فلسطين». الاتحاد الأخير يحيل إلى المقاومة الفلسطينية. في الفاكهاني من الطريق الجديدة سكن **أبو عمّار** ومعه سكنت **فتح**. قبله، في أواخر الاربعينات، نُصبت مجموعة من الخيمات إلى جنوب المنطقة فوق الرمل أيضاً. هذا **مخيم شاتيلا** المؤقت بانتظار العودة إلى فلسطين. في زمن آخر، جاء شاب صيداوي ليدرس في الجامعة ويعيش في المنطقة طالباً مجهولاً في نهر يجري من الطلاب الوافدين اليها يسكنون فيها ويدرسون في جامعتها ويغادرون بعد التخرج. **الصيداوي الذي غادر إلى السعودية سيعود إلى الطريق الجديدة رجلا اسمه رفيق الحريري**. والمنطقة التي ضرب فيها قبضاي يوماً شيخاً تعرض لجمال عبد الناصر، ستستمر خزاناً شعبياً لاهل السنة والعروبة، وبعدما أحبت آل سلام وآل اليافي وآل الصلح، سترفع صور رفيق الحريري، ثم سيقف إلى جانبه لاحقاً ابنه سعد، ثم أخيراً، سينضم فؤاد السنيورة إلى الأب والإبن، في صور ثلاثية مركبة فوق حشد ١٤ آذار.

«يرحم أبوك»

بثقة ابن المنطقة يتمشى وسام في شوارع منطقته. يتخايل ببطء في شوارع وأزقة لا تختلف عن مثيلاتها في بيروت ولا تشي بخصوصية ما، إلا في طفرة الصور الثلاثية العملاقة المرتفعة في كل مكان. شوارع ترتفع على جانبيها الابنية العالية، وتتدلى من معظم شرفاتها الاعلام اللبنانية. وسام ذاته هو من يشي بالخصوصية. اللهجة البيروتية الخالية تقريباً من أي بياض، ووقوفه كل عشرين متراً لمصافحة رجل أو عجوز وتبادل التهليل المبالغ به بين من لم يلتقيا منذ مدة بـ«الأهلين» الطويلة والقبل ثم بالعبارة التي يصر عليها من يلتقيه وسام: «الله يرحم أبوك».

الترحم على والد وسام المتوفى منذ سنوات لا يشبه عادات المدينة. هو من عادات «المنطقة» التي نشأت على «احترام كبارها». «كانت كلمة كبير العائلة هي الفصل بالنسبة الى العائلة برمتها، وفي المناسبات كافة، من السياسة إلى الزواج. حين يتخذ سعد الله الباشا أو علي البرجاوي أو راشد الحوري أو جميل الروّاس قراراً بالنسبة لسياسي (الاقتراع لصالحه أو ضده في الانتخابات)، تلتزم عائلاتهم بقرارهم لأنها كانت تعرف أن مصلحة العائلة يخوضها كبيرها فحسب». المتحدث هو المحامي محيي الدين دوغان. ستيني ولد في الطريق الجديدة وعاش فيها وخاض الإنتخابات على لائحة رفيق الحريري سنة ١٩٩٦ ولم يحالفه الحظ. هو ابن «قبضاي» من **قبضايات طريق الجديدة وبيروت معاً، أي راشد دوغان. في الصور، نرى راشد في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين رجلاً نحيلاً يعتمر الطربوش التركي ويرتدي اللباس العربي.** يجلس مع زملائه من القبضايات في المقهى



أو يقف معهم في باحة الجامع العمري بعد أداء صلاة العيد. في صور أخرى يستضيف راشد في منزله سياسيي ذاك الزمان. شارل الحلو وسامي الصلح وغيرهما. «القبضاي لم يكن يحمل مسدساً واحداً بل مسدسين» يقول دوغان. هذا لا يعني شراً. «فالقبضاي كان زعيماً في عمل الخير ومحبة الآخرين ومساعدة أبناء المنطقة. كانت هذه الزعامات تتكافل على فعل الخير. احكي هذه الحكاية: **بعد أربعة ايام على الغياب المتواصل لأحد زبائن الحاج سعيد حمد إلى المقهى، حيث كانت الزعامات تلتقي، افتقده الحاج فقام ليزوره. الرجل قال إنه مريض. جاء الحاج بالدكتور محمد خالد (لاحقاً ستقوم مؤسسة خيرية باسمه). فحصه الدكتور فوجده معافى. أخذ الحاج جانباً وقال له إن الرجل على ما يبدو بحاجة الى المال ويخجل من البوح. هذه ٢٥ ليرة مني وتدبر بعض المال من أجله. وهكذا فعل الحاج. جمع من رفاقه المال واشتروا أغراضاً وضعوها عند باب بيته وطرقوا الباب وهربوا. في اليوم التالي عاد الرجل إلى المقهى وكأن شيئاً لم يكن».**

أخلاق أيام زمان التي يستعيدها دوغان بحنين لا تنفي أهمية هؤلاء الكبار كمفاتيح إنتخابية كانت عيون عبد اللـه اليافي وصائب سلام وسامي الصلح دائماً عليها. يقول أسامة العارف «إن الزعامات كانت موزعة الولاء بين هذه العائلات السياسية الثلاث. لكن هذا لم يمنع انتقال زعماء الاحياء من حضن سياسي الى خصمه بحسب التقديمات التي يقدمها هذا السياسي أو ذاك».

السياسة كانت تجري في دم المقاهي الشعبية في الطريق الجديدة. هذا حال لن يتغير. المقاهي في أي انتخابات مفترضة منذ العام ١٩٩٢ هي مكاتب انتخابية في معظمها للحريري خلال وبعد ١٩٩٦ أباً ثم ابناً.

كذلك كان **مقهى البرجاوي** في الانتخابات الأخيرة. اليوم تلصق على الجدار عبارة: «**يرجى عدم التكلم في السياسة**». في المقهى الواسع شبه الفارغ يجلس مسنون يلعبون ورق الشدة، ويجلس صاحب المقهى إلى طاولة كبيرة وخلفه في إطار صورة لرفيق الحريري وقصيدة عمودية في مديحه. صاحب المقهى محمود البرجاوي حزين، على طريقته البيروتية المرحة، لما آلت إليه المقاهي: «والقرآن ما حدا عم يدفع. بدنا نسكّر. المصلحة ما عادت متل الأول. حطينا ورقة إنو لطفاً ورجاء عدم الاحراج طلب ألف ليرة بس مع كل ارجيلة.. ما حدا عاد إجا».. (على الزبون ان يبتاع مشروباً ساخناً بألف ليرة مع الأركيلة بالتبغ العجمي وثمنها الفا ليرة). يقطع محمود سيل كلامه ليجيب شاباً يسأله: «أنا هون وين بدي روح.. ثم يتابع: الشباب ما بتجي لانو ما عنا معسل». يشير إلى المكيفات. ملفوفة بالنايلون منذ سنتين، توفيراً للكهرباء. لماذا يمنع السياسة؟ لأن زبائنه من الشيعة والسنة والفلسطينيين. لماذا لا يبدل المقهى إلى أي تجارة اخرى؟ يقول بالفصحى: «نسعى للتغيير حين يتغير الحال». التغيير ليس وارداً عنده قبل أن يصير حال البلد افضل.

لكن الأحوال تتغير. شمس القبضايات الزعامات البيروتية راحت تغرب شيئاً فشيئاً مع سطوع شمس الثورة الفلسطينية. «**إبراهيم قليلات كان من المستفيدين من هذا التغيير. كان وارثاً لزعامة حي عن والده، فإذا به، مع انقلابه على صائب بيك «السعودي الهوى»، والتزامه بعبد الناصر والثورة الفلسطينية، يتحول إلى زعيم منطقة، ثم لاحقاً إلى زعيم على بيروت الغربية كلها.** كانت الطريق الجديدة تتحول. لم تعد حكراً على مجتمعها البيروتي المحافظ بشدة. سكن في المنطقة فلسطينيون وأردنيون وغيرهم من «فتح»، وهولاء كانوا متعلمين وليبراليين راحوا يغيرون من المشهد العام للمكان. **الجامعة العربية** أيضاً غيّرت في هذا المجتمع الأبوي الصارم. صرت ترى شاباً وشابة يمشيان جنباً إلى جنب، وصار أهل المنطقة يؤجرون غرفاً في بيوتهم للطلاب». يقول العارف لـ«السفير»، ونقرأ من **ذاكرة الرمل**: بعد انشاء جامعة بيروت العربية عرفت المنطقة مقاهي رصيف متعددة قريبة من الجامعة. كان كل مقهى يحتوي وقتها ما كان شائعاً وهو آلة «جوك بوكس» التي تتضمن مجموعة من الاسطوانات لأغان رائجة، فكان مراهقو المنطقة يتواعدون في هذه المقاهي يسمعون الاغنيات التي يحبونها...».

مقاهي الرصيف الغربية الطابع لم تعد موجودة. لكن، وخلف الجامعة العربية، تصطف الآن مطاعم كثيرة، تقدم إلى الطعام، نارجيلة المعسل للطلاب. مبنى الهندسة يرتفع عالياً تفصله طريق عن الحرم الاساسي. **لطالما كان الدخول إلى الجامعة العربية سهلاً على العكس من الجامعة الاميركية مثلاً. اليوم بات التفتيش دقيقاً. الدخول حكر على الطلاب. لا يوجد اتحاد عام لطلبة الجامعة ليحتج. الانتخابات الطالبية ملغاة منذ زمن بعيد.** وفوق الشارع الذي يفصل بين مبنى الهندسة والحرم الجامعي، ترتفع صورتان عملاقتان: رفيق الحريري وفؤاد السنيورة. صبرا تقع في ظهر مبنى الهندسة. شارع صبرا المحسوب على الطريق الجديدة موحل ومحلاته شعبية. يتلاصق فيها محلان من دون واجهات زجاج: محل حلويات يعرض حلوياته على مصطبة امامه، ومحل لبيع أمعاء الذبائح وسيقانها وعظام رؤوسها. هنا فقط يصير للمكان خصوصية الفقر. من الازقة الضيقة لهذا المكان خرج شبان بعصي ليصدوا «الهجوم على الطريق الجديدة».

«**في هذا الشارع كان كل العالم موجودا**»، يقول وسام، «**كل حركات التحرر العالمية كان لها فروع هنا. اللافتة التي حفرت في ذاكرة وسام من هذا الشارع بالذات كان مكتوباً عليها بالاحمر: إرفعوا أيديكم عن فيتنام**».

يخرج سعد الدين البرجاوي من مقهاه الصغير ليفض مشكلاً وقع لتّوه. يمشي في منتصف الشارع ويعود جارّاً شاباً عتعيتاً كان طرفاً في معركة غير متكافئة مع مراهق نزق. الشاب يسمع كلمة صديقه سعد الدين. هذا شارع البرجاوي. العائلة تشير إلى أصلها، من برجا. هي من العائلات الكثيرة التي صارت الطريق الجديدة مسقط رأسها. صوت واحد من سعد الدين ينزل ألف شاب على ما يقول. **الرجل الخمسيني شخصية «طريق جديدية» نموذجية.** لاعب كرة قدم عتيق، كان هدّافاً لفريق النجمة في أحد مواسم هذا النادي، وهو أول من سجل في مباراة بين النجمة والأنصار عقب صعود هذا الأخير الى مصاف الدرجة الاولى. خسر الأنصار يومها. **الطريق الجديدة صنعت أهم لاعبي كرة القدم.** المساحات الرملية كانت كثيرة والملعب البلدي كان موجوداً قبل الجميع. سعد الدين سيعود فيشجع الأنصار. عالم كرة القدم ليس تفصيلاً عادياً في حياة الطريق الجديدة. سعد الدين يروي أنه صادق لاعبين مثل بسام همدر وعلي الحاج وأحمد بنوت لسنوات فناموا في بيته وأكلوا في صحنه، لم يعلم إلا لاحقاً ما هو مذهبهم. «**السنة والشيعة لم تكن واردة في قاموس المنطقة**». **لكن، «خلقوا لنا النعرة الطائفية.. وشئت أم أبيت، ستكون مع أولاد منطقتك.. مع الأنصار».** يلجأ إلى مثل آخر لإيضاح فكرته: «الشيعي يحب السيد حسن ونبيه بري. وأنا لو قال لي الشيخ سعد ارم حالك من الطابق السابع بدي أرمي حالي».

هذا الربط من أدبيات الصراع الأشد علنية بين الناديين والجمهورين. يحاول الدائرون في فلك اللعبة التعمية عليه من خلال استنكار «الموشحات الطائفية» التي كانت ترتفع ايام كانت الفرجة على كرة القدم مسموحة. «الموشحات» هي التي كانت تعقب كل فوز للنجمة في الملعب البلدي، حيث يخرج غلاة المراهقين الشيعة الى ساحة ابو شاكر، يضربون على رؤوسهم ويصرخون: «علي علي علي». الرواية التي صارت بمثابة لازمة يرددها كثر من المنطقة هي عن تحطيم هؤلاء بالحجارة، اللافتات التي تحمل اسماء الصحابة المرفوعة على الجدار الخارجي لجامع الإمام علي، تاركين هذا الإسم سالماً من اي أذى. وإذا كان محيي الدين دوغان يتذكر الملعب البلدي ايام الفرنسيين و«الجندرمة على الخيول»، فإن وسام يعرف أن السياسة استعارت من هذا الملعب بالذات هتافاتها الحديثة: «**اللـه، نصر اللـه والضاحية كلها**»، كان هتافاً نجماوياً سرعان ما وجد في المدرج المقابل رداً مقابلاً: «**اللـه حريري الطريق الجديدة**». وسام الاتي من أسرة ذات عراقة في تشجيع النجمة يشجع الأنصار من دون ان يرف جفن لروحه الرياضية. «المسألة ليست رياضة. الأنصار انتماء لمنطقة وطائفة»، ثم يحكي عن النجماويين وتحطيم السيارات. النجمة، ومنذ وقت طويل أيضاً، لم يعد يخوض أي مبارة له على أرض الملعب البلدي.

..هذه منطقة بيروتية، لم تختلط طائفياً كجارتها الأقرب المزرعة. قمعتها في واحدة من فترات الحرب اللبنانية حركة أمل، وحتى الآن هناك من يفاخر بأن الأذان قد رفع في جامع عبد الناصر وقد اضيف عليه: «علي بالقوة ولي اللـه». هزم «المرابطون» وتقاتل على أرض الطريق الجديدة وفي محيطها، الحليفان، الشيعي والدرزي، نبيه بري ووليد جنبلاط. يقول اسامة العارف: «بعد انتصار الثورة الايرانية صار هناك تشدد ايراني يتحسس منه السنة. الشيعة وجدوا متنفساً في الدولة الدينية القوية. بعدها دخلت حركة امل (في الثمانينات) دخولاً وحشياً الى الطريق الجديدة. وصار لدى السنة تلك النظرة الصحيحة بأن سوريا



جامعة بيروت العربية.

تقوي الشيعة من خلال أمل ولاحقاً حزب الله، لجعل هذه الطائفة الطرف الأقوى في السلطة. هذا الاحتقان كان يظهر في مدرجات كرة القدم، حيث المباريات بين النجمة والانصار صارت حروباً سياسية».

حافظ ناس الطريق الجديدة، في حالهم الاقتصادية المتواضعة، على علاقات اجتماعية أقرب في مفهومها إلى جنوب الطريق الجديدة، حيث الغبيري وبرج البراجنة والشياح، وليس إلى بيروت الغربية المختلطة. هكذا، فإن صوت سعد الدين البرجاوي ينزل ألف رجل إلى الشارع، وهكذا، فإن وسام يرى نفسه معنياً وشباب المنطقة بحمايتها من أي هجوم عليها، بخاصة الهجمات التي تعرضت لها بعد اندلاع الإعتصام المفتوح للمعارضة. وإذا كان المحامي الستيني الهادئ محيي الدين دوغان يقول إن هذه **الفتنة (السنية-الشيعية) ضرب في الخاصرة، ويعدد الزيجات المختلطة في عائلته هو، فإنه يقول إن الطريق الجديدة العروبية تشعر اليوم أنها مظلومة،** وأنها فتحت قلبها للمقاومة في سنة ألفين، فلا تكافأ بأن تتهم بالقتل. يقصد حادثة أحمد محمود.

سعد الدين أقل هدوءاً. له، وبكلماته البيروتية السريعة جداً، «مأخذ على السيد حسن نصر الله». كان حين يراه على الشاشة يقشعر بدنه حباً له. لكن ما «فعلته قناة المنار بسعد الدين ليس مقبولاً». وضعت اسمه كأحد المشتبه بهم في إطلاق النار في تلك الحادثة المشؤومة. مع أنه يومها أدى دوراً مختلفاً تماماً على ما يقول، حيث صرخ في آل البرجاوي فانسحب شبابهم. ونزل إلى شبان تجمعوا عند محطة الدنا، وصرخ فيهم: «بعدني جايي من القصر. والقصر عم يقول لكم طلعوا من الشارع». يقصد قصر قريطم. «وما كنت جايي من القصر ولا شي، بس بدي رد الناس».

لم يستمع الشبان إليه. من كانوا؟ «كل شباب الطريق الجديدة»، يقول سعد الدين.

يردد سعد الدين عبارة بعينها مرة بعد مرة: وحياة ولادي، قطعة سلاح ما في بالطريق الجديدة. يمكن تلات أربع قطع بكل المنطقة.

والشيخ سعد قال: «أنا ما بدي عزّي بولادكم. انا بدي علّم ولادكم». ما مناسبة قول الشيخ لهذا القول؟ «في لقاءات مع ولاد الطريق الجديدة، وفيه ناس صارت تضرب بكفها على الطاولة. بس الشيخ إذا بيعرف عن حدا إنو عنده قطعة، بيسحبه من شعره».

ليس بعيداً عن «نادي المستقبل للتسلية»، وهو اسم مقهى سعد الدين، ترتفع لافتة كتب عليها: «الله يرحم يللي عمر». حيث تنتهي هذه الجملة في اللافتة، تنطلق في صف طويل مجموعة من النقاط وعلامات التعجب والسؤال لا تحتاج إلى كثير ذكاء لفهم الإيحاء المراد منها. هذه اللافتة هي «تقدمة انصار الحريري». معظم اللافتات والصور المرفوعة في طريق الجديدة، تحمل تواقيع عامة ومبهمة كهذا التوقيع.

المقاهي تمنع الحكي في السياسة لكن الشوارع تحكي بطلاقة. هي في قلب السياسة، منذ ما قبل جمال عبد الناصر. ستبقى كذلك على الأرجح. والمنطقة التي رأت معظم القرن العشرين، ستظل مقرونة بتلك الطريق التي كتب لها أن تظل جديدة. وسيكتب لها أيضاً أن تصير شعاراً لمرحلة، وشعاراً لطائفة برمتها وجدت زعيماً بعد طول بحث: «الله، حريري، الطريق الجديدة».

(جهاد بزي، «السفير»، ٧/٣/٢٠٠٧)

صحافة بيروت ومطابعها في ظل القوانين العثمانية

من الطبيعي أن يرتبط ظهور الصحافة بالطباعة، كما حصل في أوروبا، لانهما توأمان في المهنة والمصير.

إلا أن الصحافة البيروتية تأخرت زمناً طويلاً قبل أن تواكب زميلتها التوأم في مسيرتها الشاقة. ولئن جاءت ولادة الطباعة العربية في مراحلها التاريخية الأولى أوروبية النشأة (كمطبعة FANO في إيطاليا عام ١٩١٧ التي عنيت بطباعة بعض المخطوطات العربية القديمة) فإن **المشرق العربي آنذاك كان يعتمد على النسخ لاعتبارات دينية مقدسة. وعلى ذلك، لم يتسن لبيروت أن تتعرف على فن الطباعة العربية إلا في أواسط القرن الثامن عشر حين أسس الشيخ نقولا الجبيلي الشهير بأبي عسكر مطبعة القديس جاورجيوس عام ١٧٥١.** (كانت بعض المناطق السورية عرفت الطباعة العربية قبل هذا التاريخ قبل هذا التاريخ كمطبعة البطريرك أثناسيوس الدباس في حلب عام ١٧٠٢، ومطبعة الشوير بالقرب من الخنشارة لمؤسسها عبد الملك زاخر عام ١٧٣٣).

يبدو واضحاً إذن أن الفاصل الزمني بين تأسيس أول مطبعة في بيروت وبين صدور أول صحيفة فيها عام ١٨٥٨ كان حوالى القرن من الزمن لذا عنيت السلطات العثمانية بتنظيم المطابع في بيروت والولايات السورية عموماً قبل أن تهتم بتنظيم الشؤون الصحافية.

ففي عام ١٨٥٧ عمد السلطان عبد المجيد (١٨٣١ - ١٨٦١) إلى إصدار لائحة قانونية كانت الأولى من نوعها في بلاد الشام.

ولم يكن إذ ذاك في بيروت سوى مطبعتين:

المطبعة الاميركية (١٨٣٤) التابعة للإرسالية الإنجيلية، والمطبعة الكاثوليكية (١٨٤٨) العائدة لليسوعيين.

وأهم ما اشتملت عليه هذه اللائحة إلزام المطابع بالحصول على ترخيص قانوني لمزاولة أعمالها وإخضاع مطبوعاتها للرقابة المسبقة ضماناً لأمن الدولة وسلامتها العامة. وفي العام ١٨٦٥ صدر أول نظام للمطبوعات الصحافية والرقابة عليها. وتضمن الوسائل الكفيلة للحصول على ترخيص مسبق لنشر الجرائد وتحديد مسؤوليات المشرفين عليها وحالات التعطيل الدائم والموقت وتفاصيل العقوبات الجزائية والغرامات المالية.

لمن سلطه القانون؟

ولم يكن في بيروت حينئذ سوى ثلاث صحف: «حديقة الأخبار» (١٨٥٧) لمؤسسها خليل الخوري «ونفير سورية» (١٨٦٠) لصاحبها بطرس البستاني و«أخبار عن انتشار الانجيل في أماكن متفرقة» (١٨٦٣) الصادرة عن الإنجيليين.

كما لم يكن فيها سوى مجلتين هما «مجموع فوائد» (١٨٥١) عائدة للإنجيليين و«أعمال الجمعية السورية» (١٨٥٢) الصادرة عن «جمعية سورية لاكتساب العلوم والفنون». ولم تمض سنتان على صدور هذا القانون حتى أعلن الباب العالي عام ١٨٦٧ أنه يحتفظ لنفسه وبصورة مستقلة عن سلطة القانون أن يتصرف إدارياً فيما يتعلق بشؤون المطبوعات.

وفي مستهل الربع الأخير من القرن التاسع عشر تزايدت دينامية المطابع وآليتها وتنامى تأثير الصحف والمجلات على جمهور واسع في بيروت وسائر المناطق السورية. فبلغ ما شهدته بيروت في القطاع الإعلامي حوالى ٣٦ صحيفة ومجلة، وحوالى ١٥ مطبعة أنتجت حتى تاريخ صدور «قانون الملكية الأدبية» عام ١٨٧٥ حوالى ١٠٧٥ مؤلفاً تناولت مختلف الموضوعات العلمية والدينية والثقافية والأدبية هذا عدا آلاف النشرات والكتيبات التي كانت تصدرها مطابع الإرساليات.

تزامن إذاً **«قانون الملكية الأدبية» مع تنامي حركة المطبوعات في بيروت التي كانت على أبواب نهضة أدبية وثقافية شاملة.** فجاء هذا القانون ينظم عملية التأليف التي قد تثير مسائل قانونية ناجحة عن طبيعة العلاقات المباشرة بين المؤلفين والناشرين وأصحاب المطابع.

لذا كان من الطبيعي أن تواكب حركة التأليف والنشر تطور الطباعة فتزدهر بازدهارها وتتأخر بتأخرها لأن كلاً منهما علة لوجود الأخرى واستمرار لها.

وحين اعتلى عبد الحميد عرش السلطنة العثمانية تظاهر إثر إعلان الدستور ١٨٧٦ عن إيمانه بالحريات الصحافية. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً. فكانت الحرب الروسية - العثمانية عام ١٨٧٧ مناسبة للانقضاض على الصحافة والدستور معاً. فأعلن الأحكام العرفية في البلاد وعطل ما عمل به سابقاً من أنظمة للمطبوعات ودخلت حركة الصحافة والطباعة منذ ذلك الحين في أخطر المراحل وأصعبها وأشدها تنكيلاً بالقطاع الإعلامي أفراداً ومؤسسات.

وتبعاً لذلك أصدرت إدارة بتطبيق «القاعدة الجزرية» في ٢ أيار (مايو) ١٨٧٧، على كل ما يطبع وينشر وذلك في ظل صلاحيات استنسابية واسعة.

كما أصدرت السلطات العثمانية عام ١٨٨٨ قانوناً جديداً للمطبوعات تشدد في الإجراءات التي تحد من حرية الصحافة والطباعة معاً. فإضافة إلى الترخيص المسبق أنيط بالسلطات العثمانية وحدها حق الإشراف المباشر على المطبوعات الدينية، كما أخضعت جميع الإعلانات لمراقبة صارمة ما عدا بطاقات الزواج والوفيات.

إرهاب وجواسيس

وجاء هذا القانون مقدمة لصدور قانون جديد عام ١٨٩٤ الذي كان الأكثر جوراً في تاريخ المطبوعات العثمانية في بلاد الشام.

ومن جديد هذا القانون استحداثه لأجهزة التفتيش والقمع والإرهاب التي خولت دهم المطابع والمسابك في أي وقت من الاوقات.

والى جانب ذلك نص القانون على إنشاء مكاتب خاصة، لم تكن أقل إرهاباً من أجهزة التفتيش، لمراقبة المطبوعات الصادرة باللغة العربية أو باللغات الأجنبية. وارتبطت هذه المكاتب، التي كانت على صلة وثيقة بالقصر، بشبكة من الجواسيس الذين كانوا ينتشرون بين الناس وفي الساحات والأماكن العامة لاستطلاع الآراء. فكانت أية وشاية من هؤلاء بحق أي من العاملين في المجال الإعلامي كافية لاعتقاله وتعذيبه وسجنه. وعرف أفراد تلك الشبكة بـ «الخفية» كما عرفت تقاريرهم بـ «الجورنال» لذا أطلق عليهم لقب «الجورنالجية».

إلا أن الملفت ما تضمنته لائحة المنوعات الحميدية التي لا تخلو تدابيرها من الطرافة. فقد منعت استعمال الكلمات أو العبارات التي من شأنها أن تحتمل مغزى سياسياً أو أمنياً مغايراً لتوجهات الحكم الحميدي. وحظرت نشر المقالات المطولة على انواعها أو تجزئتها أو إصدارها على حلقات وربطها بعبارة «البقية في العدد القادم» أو «يتبع» أو ما شابه ذلك. وحظرت أيضاً ترك نقاط بين الكلمات أو بعدها أو جعل فراغ في ما بينها منعاً لكل تأويل أو تفسير. كما منعت الإشارة إلى أي من الثورات الداخلية أو الخارجية أو الهزائم العسكرية أو الاغتيالات، لما في هذه العبارات من إمكانية لطرح التساؤلات السياسية التي كانت السلطات العثمانية تخشى حدوثها. ولم يسلم حتى الباعة المتجولون من تدابيرها التي حذرتهم من الصياح على ما تتضمنه المطبوعات من أخبار منعاً لاي تشويش في أذهان السامعين.

ولم يتورع مراقبو المطبوعات وجلهم من الجهلة أو ممن تيسر له نزر قليل من المعرفة، من لم يتوقفوا، وفق مزاجهم وهواهم، أمام أية كلمة أو عبارة من شأنها أن توحي بمعان لا تمت إلى البحث أو المقالة بصلة، فيعمدون إلى حذفها أو استبدالها بغيرها مما كان يحدث ابتعاداً فاضحاً عن سياق الفكرة وتشويهاً لمعناها الحقيقي. إلا أن رجال الصحافة قد خبروا أساليب المراقبة من خلال تعاملهم اليومي معها فاستطاعوا أن يطرحوا المسائل العامة ويتخطوا بحكمة وذكاء قلم الرقيب ومقصه.

دهشة وشعور بالخلاص

وهكذا ذاقت كل من الصحافة والطباعة مرارة المهنة في ظل الحكم الحميدي الذي مارس كل أنواع العقوبات من المصادرة والتوقيف والتعطيل والغرامات الباهظة إلى الاعتقال والسجن والتعذيب والتشريد. لذا كان من البديهي أن تتراجع حركة المطبوعات ويقل إنتاجها علماً أن مطابع بيروت بلغت أنئذ مستوى تقنياً رفيعاً وخبرة فنية عالية لكافة مستلزمات العمل

مطبعة تعود إلى العام ١٨٣٧.

الطباعي وآليته. ولا عجب بعد ذلك أن أصبحت الصحافة البيروتية في مثل هذه الأجواء الإرهابية موالية بمجملها للسلطة وممالئة لها أو بالأصح لم يكن باستطاعتها إلا أن تكون كذلك. فغابت عن صفحاتها آراء الأقلام الحرة وأصبحت اقرب إلى صحافة الخبر منها إلى الرأي متماثلة بمحتوياتها ما عدا بعض التلميحات الذكية إلى مساوئ الحكم وفساد الإدارة. **ومع انتهاء مرحلة الحكم الاستبدادي وإعلان الدستور عام ١٩٠٨ اجتاحت الولايات العثمانية من ادناها إلى أقصاها موجة عارمة من الدهشة والبهجة والسرور إيذاناً لبداية مرحلة تاريخية جديدة كان من أبرز سماتها أمران: ولادة الحرية من رحم الآلام، وخلاص الدستور من براثن الظلم والاضطهاد.** وفي رحاب أجواء الحرية هذه كانت ولادة أول قانون للمطبوعات عام ١٩٠٩ الذي ألغى قوانين العهد البائد التعسفية. وفي ظلال هذا القانون الجديد منحت المؤسسات الإعلامية من صحف ومطابع قدرا كبيراً من الحرية فغابت عن مواده كافة الإجراءات الإدارية المعقدة واصبح بإمكان أية صحيفة او مطبعة أن تزاول عملها بمجرد حصولها على علم وخبر من السلطات المعنية. كما أزيلت من أمامها جميع أنواع المراقبة المسبقة سواء لجهة إنشائها أو لجهة إصدار مطبوعاتها كما ألغيت أجهزة التفتيش وعمليات الدهم والتحري

والاعتقال على أنواعها.

أتاح هذا القانون، قبل أن يتعرض للتعديل، فرصة كبيرة لإصدار عشرات الصحف والمجلات وافتتاح العديد من المطابع. ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٢ صدرت في بيروت حوالى ٧٨ صحيفة ومجلة كما أنشئ فيها حوالي ٢١ مطبعة. وجاء إنتاج هذه المؤسسات غزيراً متحرراً متنوعاً، وتطرق إلى مختلف الحقول المتعلقة بالحكم والسياسة والدين والثقافة والعلم والآداب.

خشيت إزاء ذلك السلطات الاتحادية (حزب الاتحاد والترقي) من هذا الاندفاع الفكري الخطير، فسعت إلى تطويقه وتضييق الخناق على الحريات الصحافية التي كانت تلك السلطات تخشى سطوتها وجرأة أقلامها. فأقدمت بوحي من سياستها العنصرية الرامية إلى تتريك العرب فكراً وبشراً، على تعديل قانون المطبوعات عام ١٩١٢ وإلغاء ما كان قد تحقق من مكتسبات سابقة. **وبلغت تدابير الاتحاديين القمعية ذروتها قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى، حين سنت قانون جرائم المطبوعات عام ١٩١٤ الذي خضع مباشرة لقوانين التبعئة العسكرية وأحكامها السريعة التنفيذ.**

يستدل من كل ما تقدم بأن كلاً من الطباعة والصحافة كانتا ثمرة من ثمار الاتصال الحضاري بين المشرق العربي والغرب الأوروبي حيث شكلت بيروت إحدى أهم حلقاته الرئيسية. واستقطب القطاع الإعلامي نخبة من أبرز مثقفي العصر الذين دأبوا على إحياء التراث العربي فساهموا مساهمة فعالة بتطويع اللغة العربية وتبسيطها فعمّت المعرفة والثقافة قطاعات واسعة من أبناء البلاد حتى أصبحت بيروت أقل المدن العربية انتشاراً للأمية فيها.

كما ساهم بنقل نماذج من الفنون والآداب الغربية كالقصة والمقالة والمسرحية التي دخلت من خلاله لأول مرة في أدبنا العربي الحديث.

وفي هذا السياق أدى ازدهار حركة المطابع إلى ظهور المكتبات التجارية والخزائن الأدبية في الكليات الجامعية والجمعيات الثقافية، وتحولت جميعها إلى صالات عرض لأهم ما أنتجته مطابع بيروت من المؤلفات العربية والأجنبية المتنوعة، وتلك ظاهرة تدل على تطور حضاري ملموس في مسار التقدم الثقافي العام. **فغدت بيروت والحالة هذه منطلقاً لنهضة فكرية عارمة تعدت نطاقها الجغرافي لتمتد إلى سائر أرجاء المشرق العربي سيما وإن مطابع بيروت وصحافتها كانتا وما تزالان بمثابة الخزان الفكري للكثير من الحركات السياسية العربية ومن أبرز معاقلها الإعلامية.**

(علي حويلي، «الحياة»، ١٩٩٢/٢/٢١)

معرض بيروت العربي الدولي للكتاب: أبو المعارض العربية

..تصدر الكتاب لسنوات عديدة حياة الناس، وبات جزءاً منها في غياب كل ترفيه، لكن التقدم التكنولوجي والتطور التقني أوجدا وسائل جديدة تصل الإنسان بالمعرفة والثقافة والتحليل دون أن يكلفه الامر عناء القراءة. فكل ما يطلب منه هو الاستلقاء أمام شاشة التلفزيون والانتقال من برنامج إلى آخر على مدار ساعات النهار، أو الإبحار على شبكة الانترنت للحصول على كل جديد في المعلومات الثقافية أو العلمية..ما جعل الناس يتساءلون عن اهمية الكتاب في هذا العصر، وعن عمر بقائه في ظل التطور اللاحق بوسائل الاتصال. وللإجابة عن هذه الأسئلة، التقت «الانوار» الاستاذ عصام عرقجي رئيس «النادي الثقافي العربي» الذي ينظم في كل سنة «معرض بيروت العربي الدولي للكتاب»، (ابو المعارض العربية) والذي اعتبر ان النتائج التي يحققها المعرض في كل سنة لا تشير إلى أن الكتاب مهدد بخطر الزوال، ما أكد أن لبنان سيبقى أبرز رواد الصناعة الثقافية. وقال: «اثر كل معرض نجري إحصائيات عامة لمعرفة نتائجه وتقييمه. هذه السنة، تبين أن الإقبال على المعرض لم يتراجع، وان نسبة المبيعات كانت جيدة. فإجمالي المبيعات خلال المعرض، قد بلغ مليوناً واثنين وخمسين ألفاً وستماية وأربعين دولاراً أميركياً، وقد زار المعرض ٣٦٥ مدرسة من مختلف المناطق اللبنانية ووصل عدد طلاب المدارس التي قصدت المعرض ٣١١١٤. وبلغ عدد الطلاب المشاركين في البرامج الثقافية والتربوية المرافقة للمعرض حوالى ٤١٣٨ طالباً، كما زار المعرض عشرات الآلاف من الزوار..لا خوف على مصير الكتاب، فإنه سيبقى الرفيق الوحيد لكل رحلاتنا وفي كافة الأوقات حتى بوجود الانترنت وكل ما يحكي عن أن انتزاعه مكان الكتاب حديث غير دقيق، فالعلاقة التي تنشأ بين القارئ وكتابه قوية، رابطها الورق ورائحة الحبر ولا يمكن لأي تطور أن يمحوها»..

وتابع: «لقد لمسنا فعلياً مدى حب الناس للقراءة من خلال حرصهم على شراء عدة كتاب، وعودتهم أكثر من مرة إلى المعرض، من أجل شراء المزيد. وهذا أيضاً دليل إضافي يمنعنا من الخوف على مصير الكتاب»..

(مرح حداد، «الأنوار»، ٢٠٠٢/١٢/١٥)

شهداء الصحافة اللبنانية

شهداء ٦ أيار

الاسم	المهنة	تاريخ الاستشهاد
محمود المحمصاني	مراسل	٢١/ ٨/ ١٩١٥
عبد الكريم الخليل	من أصحاب «المفيد»	١٩١٥
سعيد فاضل عقل	مؤسس «البيرق» ورئيس تحرير «الإصلاح والأحوال والثبات ولسان الحال»	٦/ ٥/ ١٩١٦
الشيخ أحمد حسن طبارة	صاحب الاتحاد العثماني و«الإصلاح» لسان حال المؤتمر العربي في باريس	٦/ ٥/ ١٩١٦
عمر حمد	من أصحاب «المفيد» ـ شاعر	٦/ ٥/ ١٩١٦
عبد الغني العريسي	صاحب «المفيد وفتى العرب ولسان العرب»	٦/ ٥/ ١٩١٦
بترو باولي	صاحب «المراقب»	٦/ ٥/ ١٩١٦
جرجي حدّاد	محرّر «حرمون» و«الأحوال»	٦/ ٥/ ١٩١٦
الشيخان فيليب وفريد الخازن	مؤسسا جريدة «الأرز» ومؤلفا «المحرّرات السياسية»	٦/ ٦/ ١٩١٦
أنطوان زريق ـ توفيق زريق	صحافيان طرابلسيان صاحبا «الارتقاء» و«جراب الكردي»	١٤/ ٩/ ١٩١٦
الأمير عارف الشهابي	محرّر بارز في جريدة «المفيد والاتحاد»	٦/ ٥/ ١٩١٦

شهداء آخرون

الاسم	المهنة	تاريخ الاستشهاد
إدوار الشرتوني	صحافي	١/١١/١٩٤٥
فؤاد حدّاد	صحافي ـ محرّر في «الاتحاد اللبناني» و«العمل» و«البيرق»	١٩/ ٨/ ١٩٥٨
غندور كرم	صحافي ـ محرّر في «الشعب» و«الراصد»	تشرين الثاني ١٩٥٨
نسيب المتني	صاحب جريدة «التلغراف» و«الطيّار»	٨/ ٥/ ١٩٥٨
كامل مروّة	صاحب جريدة «الحياة»	١٦/ ٥/ ١٩٦٦

شهداء حرب لبنان ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠

الاسم	المهنة	تايخ الاستشهاد
رياض طه	نقيب الصحافة اللبنانية	٢٢/ ٧/ ١٩٨٠
سليم اللوزي	صاحب ورئيس تحرير مجلة «الحوادث»	٤/ ٢/ ١٩٨٠
إدوار صعب	رئيس تحرير جريدة «الأوريان ـ لوجور»	١٦/ ٥/ ١٩٧٦
نايف شبلاق	مدير تحرير جريدة «المحرّر»	١٩٧٥
نجيب عزام	«المانداي مورنينغ»	١٩٧٥
عدنان عبد الساتر	محرّر في «لسان الحال»	١٩٧٥
يحيى الحزوري	محرّر في «اللواء»	١٩٧٥
وسيم تقي الدين	صحافي في «الجريدة»	١٩٧٥
سمير عبد الله عاصم الشيخ	رئيس تحرير «الفهرست»	٩/ ٧/ ١٩٨٥
أنطوان ملاخية حرب	صحافي	١٩٧٥
مسعود يعقوب الحويك	صحافي	١٩٧٥
فابيان توما	صحافية ومحاسبة في «النهار»	١٩٧٥
الياس شلالا	صحافي في «النهار»	١٣/ ٥/ ١٩٧٦
سهيل طويلة	مجلة «الطريق» ورئيس تحرير جريدة «النداء»	٢٤/ ٢/ ١٩٨٦
حسن فخر	صحافي	١٦/ ٨/ ١٩٨٦
حسين مروة	أديب وصحافي	١٧/ ٨/ ١٩٨٦
سيدة نعيم الخوري	صحافية في «النهار العربي والدولي»	١٠/ ٢/ ١٩٨٦
عصام بدر الدين	صحافي	١٩٨٧
حسن السيد علي بزون	رئيس تحرير مجلة «بيروت المساء»	٢١/ ٢/ ١٩٨٧
محمد شقير	إعلامي وصحافي	١٩٨٧
بلال حاتم ضاهر	جريدة «الديار»	٨/ ٥/ ١٩٨٩
توفيق يوسف عواد	كاتب وصحافي	٣٠/ ٣/ ١٩٨٩
نعمت سليم السباعي	محررة	٧/ ١/ ١٩٩٠
سليم أمين صقر	وكالة الصحافة الفرنسية	
جوزف زينون	صحافي في جريدة «الديار»	
موسى محفوظ	صحافي في جريدة «الديار»	
حنا مقبل	صحافي	

(«الصحافة اللبنانية»، أيار، ٢٠٠٦)

بيروت مدرسة الثقافة العربية

سمت اليونسكو بيروت عاصمة للثقافة العربية لعام ١٩٩٩، يفترض هذا عاماً من الاحتفالات ليس الاستعداد لها كافياً. ولن يكون، لفوات الوقت، في المستوى. لا تزال السنة في أولها، ولا تعنينا ضخامة الاحتفالات بقدر ما تعنينا وجهتها وفلسفتها. فتسمية بيروت عاصمة ثقافية من قبل اليونسكو تجوز على كل عاصمة عربية أخرى. ولن يجادل أحد إذا كانت بغداد أو دمشق أو القاهرة أو... أو... **لكنها في حال بيروت مناسبة للتأمل في الأسطورة البيروتية وفي الدور اللبناني.**

بيروت بالدرجة الأولى أسطورة العرب. فهم الذين جعلوا منها داراً للحرية والحداثة والنهضة الثقافية، وصلة وصل بين الشرق والغرب، ومحوراً متوسطياً وعربياً. كما جعلوا منها دار لذة وحياة ليل وفن عيش. بيروت الأسطورة من صنيع العرب. ولعل قصائد نزار قباني لسانها «ست الدنيا»، فبيروت عروس العرب وجنة الحاضرة العربية، ولبنان ميناء العرب وجنتهم، هما ما كانه لبنان وكانته بيروت في مخيلة عربية. والأرجح أن هذا لم يغد أسطورة إلا لدى زواله أو مواجهته خطر الزوال. هو اليوم أسطورة أكثر منه في ما مضى، فالحرب اللبنانية في أطوارها الأخيرة أغلقت الجنة، وربما عطلت دورها.

اختيار بيروت عاصمة ثقافية عربية لهذا العام قد يكون مناسبة ليعيّد اللبنانيون والعرب الدور اللبناني. قد يكون أيضاً مناسبة لاعتداد لبناني جعلته الحرب أكثر حساسية وتأزماً ووطنية لبنانية تكون جانب منها خلال الحرب، وهي وطنية سمحة في أحيان، متعصبة في أحيان أخرى، وقد يكون مناسبة ليرفع اللبنانيون هذه الوطنية إلى مصاف الأسطورة.

لكن ما لا غنى عن قوله هو أن بيروت عاصمة ثقافية للعالم العربي ليس جديداً، بل يستند إلى تاريخ حقيقي، إذ كانت بيروت ولأمد طويل تلك العاصمة. ولم تنتف اليوم منها تماماً. لا تزال عاصمة النشر على سبيل المثال. هكذا تعود بنا المناسبة إلى ماض قريب، إلى الدور اللبناني الذي لا بد من فحصه وتعريفه في كل مرة نتصدى فيها لتاريخ الثقافة العربية وإذا كان الاحتفال في وجه منه تكريماً للأسطورة وتأكيداً عليها، فإن المناسبة من ناحية أخرى، قد تقضي بفحص الأسطورة وفرزها من الواقع، أو ما يتراءى أنه واقع. إذ لا ينفع كثيراً أن تكون المناسبة مجرد تنفيس لاعتداد لبناني جريح، أو اعتداد عربي مأزوم.

يبدو الدور اللبناني عظيماً من ناحية الكم، بل هو عملاق بالقياس لحجم البلد وعديده، إذ يتراءى لنا أن تسمية بيروت



أدونيس متوسطاً محمد الماغوط، يوسف الخال، أنسي الحاج، إدفيك شيبوب وجورج صيدح.

عاصمة عربية صحيحة بأقرب المعاني وأكثرها مباشرة. إذا عدنا للستينات مثلاً وجدنا بيروت عاصمة سياسية عربية. **فهذه المدينة الصغيرة استقبلت المعارضة العربية كلها أو بعضها الحي المتحرك الثابر، فكان الفعل السياسي فيها عربياً بكل المعاني،** وكان السجال السياسي فيها عربياً بكل المعاني. ولا نشك أن ما يجري في سورية والعراق ومصر وحتى المغرب العربي تلك الأيام كان حدثاً لبنانياً بكل ما في الكلمة من دلالة.

على النحو نفسه كان احتشاد المثقفين العرب فيها، لأسباب ليس اللجوء أو المنفى وحيداً فيها، فالحج القصدي والزيارة العمد كانا من دون شك من بينها. الشعراء أبرز مثال، لكن الروائيين والرسامين والمسرحيين والسينمائيين وجدوا بكثرة أيضاً. كان هنا في أوقات كثيرة زهرة الشعر العراقي والسوري والفلسطيني، فلا عجب أن نقول إن الشعر العربي كان مخاضه وتفاعله وصيرورته في بيروت. ولا عجب إن قلنا إن شعر العراقيين والفلسطينيين والسوريين كان أيضاً حدثاً لبنانياً.

لم يكن حشداً بل تفاعلاً بين اللبنانيين والوافدين، وبين الوافدين أنفسهم. والأرجح أن هذا التلاقي وذلك التفاعل كانا المحل الذي تجتمع فيه مباشرة وميدانياً روافد ثقافة عربية، وتتقاطع مباشرة وميدانياً وتتفاعل على نحو يمكننا معه القول **إن وحدة هذه الثقافة وتواصلها كانا يحدثان هنا في بيروت،** وفي بيروت نفسها، رغم انكفاء جانب من المثقفين اللبنانيين وخفية عنهم أحياناً. كانت الثقافة تغدو أكثر فأكثر ذات سياق وبعد عربيين، تغدو عربية بالكامل.

وإذا قلنا اليوم بيروت عاصمة ثقافية عربية لا نفعل سوى أن

نتذكر. كانت بحق مركز التقاء وجمع وتوحيد بالتالي. لكن هذا فضل الموقع والنظام السياسي فهل كانت بيروت ذلك وحده، أم أنها كانت، وليس في معزل عنه، شيئاً آخر أو أشياء أخرى؟

مجلتان وحركتان: لنبدأ من الخمسينات، غداة الاستقلال اللبناني وقبيل الحشد العربي والثقافي والسياسي في بيروت. لنتأمل مجلة **الأديب** الأربعينية فنجد كتابها من كل صوب عربي. أما إذا تأملنا مجلة **الآداب** بدت لنا ملامح العاصمة الثقافية العربية بارزة. لم تكن الآداب ملتقى عريضاً لكتاب عرب وحسب، ولكنها مجلة حركة ثقافية عربية ، بل لسان وربما مركز حركة ثقافية جامعة في الآداب تأسست ١٩٥٢ تركزت دعوة الأدب الجديد، والشعر والرواية بالدرجة الأولى، من دون تجاهل للمسرح ولا حتى للفنون الأخرى من تصوير وموسيقى. فالمجلة امتلكت وعياً مبكراً بشمول الدعوة. الأدب الجديد والنقد الجديد تركزا هنا **ويكفي تأمل أعداد سنواتها الأولى لنجد على صفحاتها لا النتاج الأدبي والنقدي الأبرز ولكن السجال السياسي لحركة الأدب الجديد.** أضف إلى الأدب الفكر في جملته. تجد أن المجلة، وبالدرجة نفسها، كانت مركز فكر جديد قوامه في الأساس ربط القومي باليساري، وإيجاد فلسفة قومية في المجلة نفسها وبالتزامن مع ما سبق ذكره، **نجد حركة ترجمة معبرة:** بيرانديللو وسارتر وكامو وماياكوفسكي وبريخت أي الاتصال بالأدب الجديد والفكر الجديد الغربيين.

لم يكن صدفة إذن أن تلعب **الآداب** وفي آن واحد تقريباً وفي هذا الوقت المبكر بعيد الاستقلال دور الدعوة الجديدة العربية، ودور صلة الوصل النقابية بين شرق وغرب. لم يكن صدفة فهنا الدور بالتأكيد كان ماثلاً وكانت **الآداب** بالتأكيد محطته وواحدة من محطاته ومراكزه.

تواقتت مع **الآداب مجلة الطريق** لتكون هي الأخرى نوعاً من لسان عربي للماركسية.

في الخمسينات نفسها، في نهاياتها، أنشئت **مجلة شعر** مجلة حركة ودعوة هي الأخرى، **الشعر** كما يدل اسمها غرضها الأول لكن ليس الوحيد، فحول الشعر وباسمه كان هناك حلقة أخرى من السجال والتنظير لثقافة عربية عالمية جديدة.

أما أن الشعر عنوان المجلة، فهذا قد يدل في جملة ما يدل على مكانة الشعر وصدارته في هذه الدعوة الجديدة، وهي صدارة لم تكن من دون معنى في توجه هذه الدعوة وبنائها. لكن هذا لبحث آخر. أما في ما يعنينا الآن فإن **مجلة شعر** التي قدم عدد من أقطابها من منبت سوري قومي اجتماعي، حزب انطون سعادة، المفكر الداعي إلى رسالة قومية سورية ووحدة سورية، مالت أكثر لنقد الإرث العربي الماضي، ونقد المخيلة العربية، والعقل العربي بوجه عام. كما دافعت المجلة عن استقلال الثقافة عن تبعات المد السياسي الجماهيري القومي العربي آنذاك. ونقلت



غادة السمان مع غسان كنفاني عام ١٩٦٧ في جونيه.

الثقل أكثر إلى معاصرة تشدد أكثر على أبوتها الغربية. كانت **مجلة شعر** هكذا تستجيب أكثر لكوسموبوليتية الموقع اللبناني. وتؤسس لنظر ثقافي لها. باتت الأبوة الغربية أبوة رامبو ولوتريامون بديهية وجعل الشعر العربي يتحرر من كل شروط سوى عالمية مطلقة، وعلا النقد للالتزام السياسي والعقل الجماهيري. في الوقت ذاته كانت **مجلة شعر** مجلة ترجمة بالدرجة الأولى تعرف القراء العرب على الشعراء الغربيين في أوانهم. فرأوا سان جون برس قبل أن يحوز على جائزة نوبل، وقرأوا أوكتافيو باث الشاب آنذاك، وتعرفوا بوجه خاص على الشعر الفرنسي طابعين الحركة الشعرية الجديدة بطابع فراكفوني رغم أنغلوفونية روادها الأوائل. مرة ثانية تتأكد، في معزل عن السياسة وخفية عنها، سمات رأيناها من قبل دعوة وحركة، عربية برضاها أو رغماً عنها، جديدة أدبية وثقافية. وتلعب صلة الوصل بين الشرق والغرب.

مدرسة بيروت: عدنا إلى **الآداب** و**شعر** لا لنذكر فحسب بأسبقية الدور اللبناني، ولكن لنرى فيه قصدية ودعوة من البدء، ولنراه أكثر من حشد أملته صدف وظروف تاريخية، ولنتعرف على سماته الغالبة، فكيف سار هذا الدور وماذا فعل؟ لم يكن الموقع اللبناني وحده في اللعبة، بل التركيبة اللبنانية أيضاً. فهنا أكثر من مؤسسة ثقافية وبأكثر من لون. وهنا للسبب نفسه ليست اللغة مقدسة ولا التراث مقدساً. وهنا من هذه الناحية تقل التبعات والالتزام وتغدو الحرية ويغدو الابتكار الشخصي أكثر حضوراً في البحث والتخييل. لم يجد العرب في لبنان نافذة على الغرب فحسب، ولا نظاماً سياسياً وديموقراطياً فقط، ولكن بالدرجة الأولى، بيئة غير مقيدة في العمق بروابط متزمتة وباهظة بيئة تحرر الأدب والمخيلة عن عقلية التفكير وتحررهما في العمق **كما سبق وقيل إن الأدباء والكتاب والفنانين العرب وجدوا لا فضاء حراً فحسب، ولكن مناخاً للتحرر من الداخل.**

أما الدور اللبناني فكان بالطبع أكثر من لبناني. هنا لا يسعنا

التحدث عن أسلوب أو طريقة أو نتاج خاص. يسعنا التحدث عن مناخ وجو ولقاء وتفاعل. فمدرسة بيروت، على غرار مدرسة باريس وبالطريقة نفسها، لم تكن مذهباً أدبياً أو فنياً أو فكرياً، إنها مدرسة تجمع مذاهب وأساليب وطرائق ليست مختلفة فحسب، ولكن متعارضة متباينة. بل هي مذاهب وأساليب من كل صوب وكل ناحية، **فمدرسة بيروت ليست لبنانية فقط، إنها لبنانية وغير لبنانية، بل هي بالدرجة نفسها سورية وعراقية فلسطينية، والأسماء بالطبع لبنانية وغير لبنانية. تأمل حركة الآداب وحركة شعر،** وتأمل الحضور العربي في بيروت الستينات والسبعينات لتتأكد من ذلك مدرسة بيروت على غرار مدرسة باريس جمعت كما قلت لبنانيين وسوريين وعراقيين وفلسطينيين وأردنيين ومغاربة ومصريين وخليجيين. وليست العبرة بالجمع وحده. لا يقتصر الأمر على الجمع وحده، ففي هذه المدينة سارت روافد مختلفة إلى حال من اللقاء والتقاطع كونت حركة وتياراً عريضاً. الشعر هو المثال الأبرز، قامت حركة الشعر الجديد في العراق أولاً، لكنها في بيروت تحولت إلى حركة عربية جامعة، وسادت الشعر، وغدت منعطفاً أكيداً. في بيروت التقت روافد في النقد الجديد، لكن هذا النقد تحول في بيروت إلى حركة، في بيروت تحولت موسيقى الرحابنة إلى موسيقى عربية جامعة، ولم يتم هذا بالطبع من دون قصد ولا غرض. واتخذ الشعر مثالاً لانه الأكثر تكاملاً وحضوراً في هذا الباب. **مدرسة بيروت مدرسة تفاعل، ففيها لم يعد الشعر العراقي ما كانه تماماً، ولا الشعر السوري ولا الفلسطيني ولا المصري ولا الخليجي ولا المغاربي ولا اللبناني أيضاً.** تماست قصائد وتفاعلت. ومن المبكر أن نبحث في تفاصيل هذا التماس وذلك التفاعل. كل ما يمكن قوله الآن هو أن مناخاً من الحرية والتجريب والبحث، مناخاً من استقلال النص الشعري واحترام الغرض الشعري والعناصر الفنية أولاً، مناخاً من التطلب والجد والتأصيل والتصفية، مناخاً كهذا كان بحق مناخ بيروت ومدرسة بيروت. وفي هذا الجو أمكن لكل شاعر أن ينطلق بعيداً في تجربته، أن يبتكر في قصيدته وفي فنه. أمكن لكن شاعر أن يجد تطلباً أعلى، وأن لا ينام على إنجازه، وأن يبحث بجد عن تلاوين أخرى، وأن يجرب أساليب وطرائق جديدة، وأن يعمل على الشعري في نصه، وأن يحدد أكثر وعلى نحو أكثر وعياً الصلة بين الشعري وغير الشعري، بين القصيدة وموضوعها. كما أمكن لكل شاعر أن يصغي إلى التجارب الأخرى، وأن يحتوي ما شاء منها في نسيجه، وأن يغني ويغتني. تجارب ليست عربية فحسب، بل عالمية أيضاً.

مدرسة بيروت إذن ليست مناسبة لشوفينية لبنانية، فإن نزعة بلدية تسعى إلى حصرها بتسمية لبنانية وبطاقة لبنانية. نزعة كهذه لن تكون إلا من عواقب زوال هذه المدرسة، بل وزوال روحها. لا أشك في أن ثمة نزعة قوية لدى اللبنانيين إلى الانكفاء



والتمايز، ولكنها نزعة ايديولوجية إلى حد بعيد قد تصلح في التحريض السياسي، وقد تقوم عليها تنظيرات ايديولوجية، لكن لا قبل لها بوقائع الامور. ففي الواقع كانت بيروت وكان لبنان لا البلد المفتوح فحسب بل أو المحل الأصلح لإنتاج ثقافة عربية المدى والصعيد. وقد يكون الانكفاء اللبناني من جانب منه رداً على هذا الاستعداد، وحذراً منه، والتفافاً عليه.

مدرسة بيروت، إذا كنا لا نزال نتحدث عن الشعر، فترة في أكبر التجارب الشعرية العربية، فترة راديكالية واستراتيجية بالضرورة. ومدرسة بيروت على الصعيد الشعري هي فترة النضج الشعري للقصيدة الجديدة، وتحول هذه القصيدة إلى منعطف سائد في القصيدة العربية كما أنها، أي مدرسة بيروت، تمام طور في هذه القصيدة واستشراف طور جديد.

لنا إذن أن نميز بين مدرسة لبنانية في الشعر والرواية والمسرح والموسيقى وبين ما نسميه مدرسة بيروت. بين الدور اللبناني والنتاج اللبناني. بين بيروت عاصمة ثقافية عربية، وبين بيروت عاصمة ثقافية لبنانية. تمييز ضروري لكي لا يسقط الموضوع كله في دعاوى شوفينية وشوفينية مضادة. **بيروت عاصمة ثقافية عربية مناسبة لاحتفال عربي، بل لعيد الثقافة العربية.**

(عباس بيضون، «الاتحاد»، ٢١/١/١٩٩٩)

نزار قباني: بيروت حرية لا تشيخ..

هذا موعد حب تأخر سبعة عشر عاماً.

ولا أدري إذا كانت مواعيد الحب تصمد في وجه الزمن، والاعاصير، والانفجارات الكبرى.

فالرجال يتغيرون. والنساء يتغيرن. والحب يتغير.

ولكن الشاعر لا يعترف بشيخوخة الشعر.. ولا بشيخوخة الحب.. ولا بشيخوخة الحبيبة!!

إنه حاضر دائماً على خريطة العشق. رغم أن كل الخرائط في العالم العربي أكلها العُث.. ولم يبق فيها بحر أزرق، ولا عصفور أخضر، ولا قمر برتقالي، ولا عشق... ولا من يعشقون.

هكذا كتب الله علينا.. نحن الشعراء العرب.

أن نخترع الجنة.. ونحن في أعماق جهنم.

وأن نفتش عن الينابيع.. وليس في الارض قطرة ماء.

وأن نبشر بالحب.. وليس من حولنا سوى شوك الكراهية.

وأن نتغزل بالنساء.. ونساؤنا ممنوعات من ممارسة أنوثتهن.. وموضوعات في الإقامة الجبرية.

وأن نتغنى بعيون الوطن.. وهم غرسوا الأسياخ في عينيه، وتركوه أعمى...

تلك هي مهمتنا المستحيلة.

ومع هذا يحاول الشاعر أن يخترع أشجاراً.. وأقماراً.. وسنابل.. ونساءً.. وأطفالاً.. وحنطة.. وخبزاً ساخناً.. وعصافير تحلق في الفضاء، وكتباً جميلة عن الحرية.

هل نحن نكذب عليكم؟ ربما!!

ولكن الكذب ضروري، إذا كانت الغاية منه، تحريض الأشجار على الوقوف.. والشمس على الشروق.. والأرض على الدوران.. والنهد على التمرد.. والبرعم على التفتح.. والبحر على إعلان ثورته الزرقاء.. والنساء على إسقاط شهريار.. والشعوب على الخروج من ثقوبها...

نحن كذابون.. لا من أجل الكذب.. ولكن من أجلكم. من أجل أن نساعدكم على تجميل البشاعة.. وإجراء عملية جراحية لوجوهنا التي أحرقتها الهزائم.

من أجل أن تعيش الوردة.. وتموت الرصاصة.

من أجل أن يطول عمر القبلة.. وينقصف عمر القنبلة.

من أجل أن يصدح الحمام.. وتسكت أكاذيب وزارات الإعلام.

من أجل أن تتكاثر ذرية المبدعين.. وتنقرض ذرية السياسيين.

من أجل أن ينتصر صوت القصيدة.. على صوت المسدس الكاتم للصوت.

من أجل أن ينتصر بياض الياسمين.. على مزابل النفايات الذرية.

وأخيراً من أجل أن تنتصر الكتب المقدسة.. على النصوص غير المقدسة للنظام العالمي الجديد.

بعد سبعة عشر عاماً، أعانق بيروت الجميلة..

أعانق فيها الصديقة، والحبيبة، والصبية التي ترفض أن تشيخ...

الا تزال بيروت صبية؟ ربما تتساءلون.

نعم.. نعم.. إنها لا تزال ست الصبايا.

ذلك لأن الحرية هي الوصفة السحرية التي تمنع بيروت من أن تشيخ..

وحدها المدن الحرة.. هي المدن التي لا تزحف إلى وجهها التجاعيد..

وحدها المدن الحرة.. هي المدن التي لا تتبشّع.. ولا تترهّل.. ولا تستعمل الأصباغ والمساحيق..

بعد سبعة عشر عاماً..

أعانق بيروت، كما أعانق فتاةً في ثيابها المدرسية، وشريط شعرها الازرق...

لا يزال وجهها مستديراً كالقمر..

وجسمها مصقولاً كتمثال رخام..

وضحكتها شفافة كقطعة كريستال..

وعيناها تختزنان كل أساطير البحر الأبيض المتوسط..

بعد سبعة عشر عاماً..

اقابل قصائدي التي كتبتها في بيروت.

أقابل قطعة من عمري الجميل في حي مار الياس، وشارع المعرض، وساحة رياض الصلح، وبساتين الجامعة الاميركية، ومقاهي شارع الحمراء، ومكتبات راس بيروت، وعربات الاكسبرسو على امتداد الكورنيش، وقوارب الصيادين في ميناء عين المريسة...

بعد سبعة عشر عاماً..

أشتهي كالأطفال منقوشة زعتر.. وعروسة لبنة من عند بديعة..

وسمكة طازجة من عند الغلاييني.. وأتذكر بشجن سمفونية أجراس الكبة في زحلة..

بعد سبعة عشر عاماً...

أقابل حريتي.. وأبكي...

يا أحبائي:

وأنا قادم إليكم من لندن متوكئاً على عصا قصائدي.. وعصا أحزاني. يثيرني الوقوف على منبر (أسمبلي هول) في الجامعة

الاميركية بعد فراق ربع قرن.

يثيرني أن أسترجع نيراني من تحت الرماد..

وفروسيتي.. بعدما تعبت الخيول..

وعنترياتي النسائية.. بعدما اشتعل القلب شيباً...

ورغم أن اللعبة خطيرة.. لكنني سأجرب حظي..

ربما أسقط من فوق حبال الكلمات.. وقد تنكسر أطلاعي.. أو تنكسر كبريائي.. ولكنني لا أشعر برغبة في التراجع..

إن لعبة الشعر في الاساس هي مغامرة.. ورقص على حافة الهاوية.. فلماذا لا أجرب حظي؟

إنني غير متمسك بحكاية فتى الشاشة الأول..

ولا أنا متمسك بفتوحات الأمبراطورية الرومانية، أو البريطانية، أو الجرمانية..

فكل الأمبراطوريات إلى زوال، باستثناء أمبراطورية شاعرنا العظيم أبي الطيب المتنبي..

لقد غنيت على هذا المنبر في الستينات، فهل أستطيع بشعري أن أخترق حساسية جيل التسعينات؟

قد تكون قضية الحساسية الشعرية من القضايا النقدية المطروحة، ولكنني لا أتصور أن الحساسية الشعرية العربية قد انقلبت على نفسها ١٨٠ درجة مئوية.. خلال ثلاثة عقود، وإن أذن الإنسان العربي أصبحت في مؤخرته...

إن الشعر العربي يتطور من داخل بنيته التاريخية، واللغوية، والاجتماعية، ولكنه لا يتطور أبداً على طريقة الانقلابات العسكرية.. والبلاغ رقم ١.

وما دام وقت الاعتراف، فلأعترف أمامكم، أن بيروت علمتني.. وثقفتني.. ودللتني، وأطعمتني اللوز والسكر..

ويردد بعض الشعراء إشاعة مفادها أنني وجدت على رمال الأوزاعي قمقم سليمان، فلما فركت الخاتم، طلع لي منه خمسون مجموعة شعرية..

ومهما يكن من أمر الإشاعة، فشكراً عظيماً لبيروت، وشكراً لإمامنا وشيخنا الأوزاعي.. وشكراً لمارد الشعر على ما أعطاني...

ولسوق أستمر في اعترافاتي، كي أقول:

إن بيروت لم تنبش أوراقي.. ولم تكسر أصابعي، ولم تراقب تلفوناتي.. ولم تتلصص علي من ثقوب الأبواب..

كانت تتعامل معي تعاملاً حضارياً، فتصنع لي قهوتي الصباحية، وتعطيني بريدي، ثم تنسحب على أطراف أصابعها قائلة: عندما تحتاج إلي.. فأنا في الغرفة المجاورة.

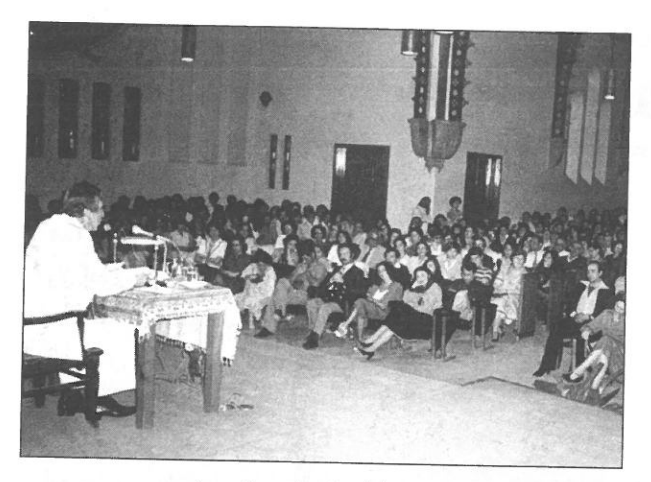
أنا مجنون بيروت... ولن يستطيع أحد أن يخطفها مني..

أو يكتب عنها أفضل مني.. أو يغازلها أحسن مني..

هذا ليس كلاماً سرياً.. لكنه كلام تردده كل الأمواج التي تلعب على شاطئ فندق السان جورج.

إن بيروت هي حادث شعري كبير في حياتي.

فلقد أعطتني جرعة من الحرية عجزت أية مدينة في العالم أن



نزار قباني في امسية شعرية اقامها في الاسمبلي هول

تعطيني مثلها..

ولقد سافرت كثيراً، وتنقلت كثيراً في أسفاري الدبلوماسية حتى وصلت إلى جدار الصين العظيم..

ولا أزال آكل حتى الآن من الزوادة الثقافية التي زودتني بها بيروت، قبل رحيلي، وأجد فيها كل ما أحتاج إليه من فاكهة الفكر.. وخبز الحرية...

لقد فتح النادي الثقافي العربي شهيتي على قراءة شعري بعد سنوات المنفى الطويلة.

صحيح أنني قرأت شعري في باريس، ولندن، ومونتريال، ولوس أنجيليس..

ولكنني في جميع هذه المدن كنت أشعر أنني أقرأ شعري فوق سفينة لا قعر لها.. وإنني أحاول أن أرفع بقصائدي جراحات المعذبين في الارض.

أما في بيروت.. فأشعر أنني في بيتي.. وفي سريري.. وأن الأرض تحتي توقفت عن الاهتزاز.

فشكراً لرئيس النادي الثقافي العربي الصديق النائب محمد قباني الذي نقلني من سفينتي المثقوبة إلى بر الأمان.. ومن شواطئ بحر الشمال، إلى شاطئ عين المريسة.. ومن حديقة هايد بارك.. إلى حديقة الصنائع.

وشكراً لكم أيها الأحباء، لأنكم كنتم دائماً عائلتي، وقبيلتي، وجيشي الثقافي، وكتائبي الامامية.

ولا تؤاخذوني إذا تلعثمت..

ففي حالة الحب الكبير، يتلعثم القلب، ويتلعثم اللسان، وتتلعثم اللغة..

فاقبلوني كما أنا...

لأن العودة إلى بيروت، فرحة أكبر من مساحة قلبي...».

(المقدمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية في قاعة الاسمبلي هول في الجامعة الاميركية في بيروت، بدعوة من النادي الثقافي العربي، «الحياة»، ١٢/١٢/١٩٩٢)

محمود درويش:
أحب بيروت وأرى فيها ما أريد

«أيها الأصدقاء الأعزاء

يسعدني كثيراً أن أكون هنا للمشاركة في معرض الكتاب، ولأشهد على أنه ما زال للشعر في حياتنا حيز حيوي على الرغم من التبشير بموت المعنى الشعري، أي بموت الشعر نفسه. فقد استمرأ كثيراً من شعرنا المعاصر عزلته وغربته عن القارئ، وبُشّر بأن المعنى الوحيد للشعر هو ألا يكون للشعر معنى أو إنجاز المعنى، وبُشّر بأن قارئ الشعر لم يولد بعد وأن هذا القارئ سيأتي غداً.

صحيح أن الشعر الذي لا تمنحه جمالياته إمكانية الحياة في زمن آخر هو شعر سريع الزوال، ولكن الشاعر لا يستطيع أن يرجع هنا والآن الى زمن آخر ومكان آخر. ففي حياتنا العاصفة يطرح الشعر أسئلته بطريقة تجعله حيوياً وحاضراً وضرورياً أيضاً.

لذلك فإن البحث عن المعنى هو دفاع عن الحرية، وهو إحياء للسؤال الدائم حول الطريقة التي يعيش بها الشعر والشاعر في قلب الآن، وكيف يخرج من ذاته الصغرى الى الخارج ليرى نفسه بشكل أفضل، وكيف يدخل الى الخارج ليحتضن العالم ويكون جديداً بصحبته الآخر. **في كل مرة أزور بيروت لا أستطيع التحرر من حبها، في علاقة يكتنفها الكثير من الالتباس والتأويلات والتناقضات.**

ولكن أحب بيروت وأرى فيها ما أريد.

وأن يرى المرء ما يريد ليس خداعاً للنفس بل هو موقف.

أرى في بيروت القدرة على تجديد حيوية الأسئلة والنقد والنقد الذاتي.

أرى فيها صناعة الكتاب الأرقى في العالم العربي.

أرى فيها منابر الحوار وهوامش الاختلاف.

أرى فيها تمكّن ثقافة الديموقراطية على المشترك وتعايش الاضداد.

أرى فيها تعايش الماضي مع المستقبل وسجال التعددية مع الحصرية.

وأرى في بيروت القدرة على المقاومة.



محمود درويش وطلال سلمان في مهرجان يوم فلسطين في المدينة الرياضية في بيروت.

وأرى في بيروت ما لا تحبه بيروت.

لا تحب المديح الذي يضعها والمرتبة السماوية الأعلى، ولا تحب الهجاء الذي ينزلها الى الدرجة الاسفل.

اكتفيت بحب بيروت وبما تفعله من وعي من أن جمالية الشعر تأتي من المعنى، وتأتي ممّا في الشعر من جمالية وحقائق الحياة والدفاع عن الأمل.

لا أستطيع أن أفصل الشعر عن الشاعر.

لست فلسطينياً لأني ولدت هناك بل فلسطيني بالاختيار الحر، وبالانتماء لمبادئ الحرية والكرامة والإنسانية.

ولأني عربي عامة أو في العام، فإني أشعر بأن جزءاً مني ينتمي إلى بيروت، وأسمح لنفسي بأن أناشد اللبنانيين ذوي الخطاب البليغ بالتضامن مع الشعب الفلسطيني والدفاع عن حق العودة المقدس، أن يدرجوا في هذا الخطاب احتراماً أوضح لإنسانية الفلسطينيين وحقهم في السكن والعمل والحرية، وحق العودة لا يتناقض مع الحقوق المدنية، وتمتعهم بالحقوق المدنية لن يدفعهم للتخلي عن حق العودة.

أشكركم جميعاً على حضوركم هذا المساء».

(كلمة الشاعر في حفل في معرض الكتاب بمناسبة توقيع ديوانه **لا تعتذر عما فعلت**، «السفير»، ١٢/١١/٢٠٠٣»)

وجه في وجوه عديدة
سيرة ذاتية لمثقف لبناني

I

كان ذلك عام ١٩٧٨ وقد مضت أشهر على عودتي من ألمانيا بعد حصولي على الدكتوراه؛ وقد أراد مقدم أحد البرامج في التلفزيون اللبناني أن يُتحف مشاهديه بحوار بين مثقفين مسلمين ومسيحيين للسلام والمصالحة بعد استتباب الهدنة الأولى الطويلة في حربنا الملحمية. وقد حدث أن اعتذر أحد المشاركين المسلمين في آخر لحظة، واقترحني بديلاً منه. لكن عندما حضرت الى الاستوديو كان مقدِّم البرنامج قد غيَّر رأيه؛ فصحيح أنني لا ألبس عمامة شأن رجال الدين المسلمين، لكنه أخبر أنني متخرج **من الأزهر في الأصل، وبذلك فأنا شيخ ولست مثقفاً، وهو يريده حواراً بين مثقفين!** وهكذا خرجت من مبنى التلفزيون أجرِّر أذيال الخيبة بعد فشل محاولة الظهور الأولى على الشاشة.

ومثل آخر من السنوات الأولى تلك. فقد ترشحت عام ١٩٨٠ لكرسي الشيخ زايد للفقه الإسلامي بالجامعة الأميركية ببيروت. وتحمس لي بعض أساتذة الجامعة آنذاك. لكن كان من سوء حظي أن صدرت لي إبان تلك الفترة مراجعة نقدية لأحد كتب الدكتور محمد أحمد خلف الله، مشعرة بعدم اهتمامي بالعلمنة، بل وبحملتي على مسار العلمنة العربية. واتصل بي واحد ممن كانوا متحمسين لي، وقد تبخرت حماسته، وقال: كيف تريد أن تدخل للجامعة الأميركية وأنت ضد العلمنة؟ بل كيف تريد أن تُعتبر مثقفاً وأنت غريب عن هذا المصطلح والمفهوم؟!

ومثل ثالث على صعوبات السنوات الأولى أيضاً. فعندما عدت من ألمانيا في صيف العام ١٩٧٧، كان عدة من معارفي يعملون باحثين في «معهد الإنماء العربي» الذي افتتح أبوابه في بيروت عام ١٩٧٦. وقد سعيت للانضمام إليهم؛ فتوسط لي بعضهم لدى المدير. لكن كانت الصعوبة في الفريق البحثي الذي يمكن أن أنضم إليه. فهناك فريق للتاريخ، وفريق للحرب اللبنانية، وفريق للفكر القومي العربي.. الخ، لكن ليس هناك فريق للدراسات الإسلامية. **وعندما اكتشفت أن الدراسات الإسلامية تعني لهم انني شيخ أو فقيه، سارعت للقول إنني أحمل دكتوراه في الفلسفة، أو في الاستشراق...** ولأن للفلسفة الألمانية والاستشراق الألماني سحرهما الذي لا يُنكر فقد مال المدير لتوظيفي بعد لأي.

لا أريد هنا تصوير نفسي بصورة الضحية. فالواقع أنني وجدت عملاً في معهد الإنماء، ثم صرت بعد سنتين رئيساً لتحرير مجلته البارزة: مجلة **الفكر العربي**، وعام ١٩٨٢ صرت مديراً للمعهد نفسه حتى العام ١٩٨٥. أما الجامعة اللبنانية فقد دخلتها أيضاً بالواسطة في خريف العام ١٩٧٧، ولم يحتجوا بأنني شيخ، إذ كان بين مدرِّسيها شيوخ وخوارنة؛ لكن عميد كلية الآداب آنذاك الدكتور أحمد مكي تبرم قائلاً: **ألا يكفيني ما أعانيه من الشيخ صبحي الصالح، لأبتلى بشيخ آخر؟! وقلت له: لكنني قضيت في ألمانيا خمس سنوات! فأجاب: والشيخ صبحي قضى في السوربون أكثر من خمس سنوات، وعاد بعمامته كأن لم يغادر الأزهر!**

والحق أن الصعوبة لم تكن في عدم انطباق صورة ومفهوم المثقف عليَّ وحسب، بل وفي غربتي عن البيئات الثقافية اللبنانية، وحساسيات تلك البيئات. فقد درست في المعهد الديني ببيروت على أساتذة مصريين، ثم تابعت دراستي في الأزهر، وبعد عمل قصير بدار الفتوى بلبنان (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢)، ذهبت إلى ألمانيا حيث مكثت حتى الدكتوراه. ومن هنا فإنني لم أعش الحساسيات الثقافية والسياسية لما قبل الحرب، وأعني بها اليسارية أو اليمينية (واليسارية على الخصوص)، ثم انني ما تمكنت عند عودتي من أن أنضم حقاً لإحدى عصائب المثقفين في المنطقة الغربية من بيروت، برغم رغبتي الشديدة في ذلك آنذاك، للاختلاف في الاهتمامات، ولأخطائي الفاضحة في إدراك التمييزات الدقيقة بين مختلف تلك الفرق. قضيت السنتين الأوليين (١٩٧٧ ـ ١٩٧٩) وأنا أحاول التمييز مواربة بين الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية، وبين الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي. وما جرؤت على السؤال مباشرة حتى لا أُتهم بالسذاجة. **وكنت في عواطفي أدنى إلى الناصريين؛ لكنني فهمت ان ذلك لا يليق بمن يريد أن يكون مثقفاً، لأنهم سذج وعوامّ ولا ينتمون حقاً الى اليسار التقدمي!** وكان الزملاء الذين تعرفت عليهم جميعاً بالجامعة ومعهد الإنماء منهمكين في كتابة تاريخ لبنان والتصارع حوله، وما كان ذلك يستهويني، كما لم أكن مستطيعاً أن أخوض فيه لو أردت. وعندما طلب مني أحد الأصدقاء المشاركة في ندوة عن الثقافة الوطنية صارحته بأنني لا أعرف ماذا تعني تلك الثقافة! فابتسم ابتسامة ذات معنى مغزاها أنني جاهل! فثُرت وقلت: تريدني أن أترك ثقافة الأمة العريقة التي تعلمتها في بيروت ومصر وألمانيا طوال حوالى عشرين عاماً، لأخوض في زواريب الحرب التي خرَّبت أول ما خرَّبت قريتنا؟! الزميل المرحوم معن زيادة حاول حل المشكلة بالنسبة لي فقال: أنت لست شيخاً واعظاً، كما أنك لست فقيهاً بالمعنى التقليدي لذلك؛ لكنك تعرف كثيراً في الأدبيات العربية القديمة؛ لذا فأنت في الحقيقة مختص في التراث! بيد أن هذا التحديد لم يعجب وضاح شرارة، زميلنا في معهد الإنماء آنذاك؛ فقال لي بعد أن قرأ النصين الأولين اللذين نشرتهما عامي ٧٨ و٧٩: أنت بارع في تحقيق النصوص القديمة، لكنك لست بارعاً في قراءتها ودراستها: فما رأيك لو اشتركنا معاً: أنت تحقق النص، وأنا أكتب مقدمته الدراسية!

II

هناك صعوبتان إذن واجهتاني في مجال الحصول على اعتراف بالانتماء الى زمرة المثقفين؛ تتصل أولاهما بطبيعة تخصصي، وتتصل الثانية بصورة المثقف في لبنان، ومدى انطباق تلك الصورة عليّ. **فتخصص الدراسات الإسلامية لم يكن مألوفاً قبل السبعينيات في لبنان**؛ أو أنه ما كان مألوفاً أن يكون المختص بالإسلاميات مسلماً؛ بدليل أن رجلاً كالأب فريد جبر عمل في هذا النطاق أربعة عقود دون أن يثير استنكار أحد، لانه في نظر جمهرة المثقفين يستطيع ممارسة هذا العلم، هذا الـ disciplin، للمسافة الموجودة بين تخصصه ودينه. وقد ناقشته في هذا الأمر أواخر السبعينيات، فتجنب الإجابة المباشرة، وانصرف الى امتداح الصداقة القائمة منذ زمن بينه وبين الشيخ صبحي الصالح. لكن جرى التسليم بي في هذا المجال بعد لأي من باب الاستشراق، وباب احترام تقاليد الاستشراق الألماني بالذات. على أن فريد جبر ما كان يسمي تخصصه دراسات إسلامية، بل كان يعتبر نفسه أستاذاً للفكر العربي؛ وهو أمر أصر العميد احمد مكي على وسمي به، تجنباً للحساسيات الدينية كما قال. ففي بيئات طائفية كالبيئات اللبنانية كان الميل العام الى اعتبار الإسلام تارة ديناً، وطوراً طائفة لا أكثر، في تجاهل أو إنكار للثقافة والحضارة الإسلاميتين وإمكان الاختصاص في مجالهما للمسلم بالذات. ثم جاءت الثورة الإسلامية الإيرانية، وبرزت حركات الإسلام السياسي؛ فقيل وقتها تحت تأثير الحاجة للمعرفة والفهم إن هناك حاجة لخبراء في مجال الإسلام؛ فكان أن جرى الاعتراف بي باعتباري واحداً من أولئك الخبراء؛ في حين ظللت أعتبر نفسي بين مؤرخي الفكر، وإن اضطررت تحت وطأة المطالبات في النصف الثاني من الثمانينيات للكتابة في ظواهر الإسلام المعاصر، علماً بأنني ما اعتبرت كتاباتي الحديثة إلا كتابات رأي واستطلاع، لأن دراسة الظواهر الحديثة تخضع لمناهج العلوم الاجتماعية، لا لمناهج تاريخ الفكر.

وظلت الصعوبة الأبرز بالنسبة لي هي تلك المتعلقة بصورة المثقف. فالمثقف اللبناني على الخصوص يملك لنفسه صورة المثقف الفرنسي العلماني المعارض. فهو في أكثر الأحيان يعرف ما لا يريده أكثر مما يعرف أو يهتم بمعرفة ما يريده. ثم انه بحكم علمانيته اليسارية المنزع غالباً، لا يرى أن الدين يمكن أن يكون موضوع دراسة علمية. ومن هنا فقد أقبل المثقفون اليساريون العرب واللبنانيون منذ الستينيات على تأمل الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية تحت عنوان التراث. وقد اعتبروا أنهم موضوعيون تماماً في هذا التأمل حين اعترف بعضهم بوجود عناصر ثورية في الدين، ثم حاولوا اكتشافها في دراسات متطاولة ما تنفك تصدر بلا توقف. وما تغيرت نظرتهم الى الدين حتى اليوم، لكنهم تحت وطأة الأحداث منذ السبعينيات، أصدروا حكماً محدداً على الإسلام اعتبروه بمقتضاه ثَوَراناً رجعياً ضد الحداثة ومخاطرها وتحدياتها. وعندما تصدّعت جبهاتهم بانهيار الأحزاب والحركات اليسارية في لبنان، وغروب الشيوعية الدولتية في العالم؛ اندفع كثيرون منهم الى أحضان الليبراليات الجديدة ذات الجذر العلماني؛ فتغيرت آراؤهم في كثير من الأمور باستثناء الدين، الذي ظلوا يعتبرونه انتروبولوجيا سكونية الجوهر، مستعصية على التغيير.

وإذا كانت الأوساط الأكاديمية قد اعتبرتني خبيراً في الشؤون الإسلامية في الثمانينيات؛ فإن اليساريين والليبراليين أصروا على ربطي بالدين واعتباري شيخاً؛ لكن فقدهم للسيطرة في المجال الثقافي أفضى الى النفاذ من خروم شباكهم، والانتظام في سياقات جديدة، بعد انقلاب المرجعية الواحدة مرجعيات متعددة واعدة.

وهناك أمر آخر، أحسب أنه موجود في سائر البلدان العربية بدرجات متفاوتة. **هناك افتراق بين الحياة الجامعية الأكاديمية، والحياة الثقافية.** فالأساتذة الجامعيون سواء أكانوا في الجامعة اللبنانية أم في الجامعات الخاصة، لا يلعبون دوراً كبيراً في الحياة الثقافية التي تصنع في الأقسام الثقافية في الصحف والمجلات، والكتب، والرسائل، ودواوين الشعر التي تصدرها دور النشر اللبنانية، فليس من الصعب أن تجد مكاناً للتعليم في إحدى الجامعات الكثيرة التي يعج بها لبنان؛ لكن من الصعوبة بمكان أن يجري قبولك أوتوماتيكياً في عصبة المثقفين. ذلك لأن الأستاذ الجامعي في لبنان محترف تعليم، وكتبه تقنية الطابع، وهو ليس على وعي قوي بفوائد وسائل الإعلام في حين لا يفعل المثقف شيئاً غير التجول بين الصحف والمجلات ودور النشر عارضاً عضلاته، منادياً بالويل والثبور وعظائم الأمور.

III

يواجه صاحب الدعوى الثقافية في لبنان إذاً صعوبات خاصة لا يُعرف بعض منها في المجال العربي؛ لكن له أيضاً ميزات لا يتمتع بها أكثر المثقفين العرب. تكمن الصعوبات المتعلقة بالمثقف في لبنان في خصائص المجتمع اللبناني ونظامه السياسي. فالمجتمع طائفي، وكذلك النظام. ولذا لا بد من أن تحسب حساباً للأمر، وتعد له عدته سلباً أو إيجاباً؛ إذ ستطويك سائر الأطراف ضمن الطائفة التي ينتمي إليها والدك، سواء اعجبك ذلك أو لا.

وكان اليسار ينقذك بدءاً إذا انتميت إليه بعدم الاضطرار للانتماء إلى إحدى الطوائف؛ وهذه فضيلة له لا يمكن إنكارها. فلما انهار اليسار الثقافي اختفت المظلة، وعادت ضرورات الحماية ضمن الطوائف.

وقد أنقذني من هذا المصير مصير مثقف الطائفة تربيتي المصرية، وسوء أوضاع الطوائف وخاصة الطائفة السنية أثناء الحرب. فبعد مجيئي من ألمانيا أصدرت الطوائف الاسلامية وثيقة «الثوابت العشر» التي كان من ضمن بنودها اعتبار لبنان وطناً نهائياً لجميع بنيه. وقد أزعجتني مسألة «النهائية» كثيراً برغم معرفتي بالظروف الضاغطة التي أفضت إليها. وعندما ناقشت المسألة مع المفتي السابق الشيخ حسن خالد، والشيخ شمس الدين، سخرا من مثاليتي؛ في حين كنت أرى أن الانحصار في الكيانية اللبنانية سيؤدي الى مزيد من تطييف المسلمين وشرذمتهم؛ فلا ينبغي المصير إلى أطروحات كيانية ضيقة بسبب الظروف الضاغطة للحرب وأطروحاتها. على أن الإصغاء من جانب السنيين للمطالب التي فرضتها النزاعات الداخلية لم يحم جانبهم أو مدنهم وخاصة في مراحل الصراع بعد الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢. وهكذا فإنهم ما كانوا قادرين على تطوير أطروحات ومصالح تحتاج الى مثقفين للدفاع عنها، أو يمكنها أن تحتضن مثقفين. أما تربيتي المصرية فقد أفقدتني الإحساس بالخصوصيات اللبنانية سواء أكانت إسلامية أم مسيحية. ففي مصر وألمانيا درست الإسلام باعتباره حضارة عالمية تاريخية شهودها اليوم زهاء خُمس سكان العالم. ولذا فقد كان يزعجني وما يزال أن يُكتب في أوراقي الشخصية انني سُنّي أو محمدي أو مسلم سني. ومع ذلك فما أحسب أنني خسرت كثيراً بعدم الحرص على الانتماء الطائفي حسب الترتيبات اللبنانية فقد حظيت برعاية المسلمين السُنّة وتقدير مؤسساتهم منذ عدت إلى لبنان؛ أفأكون واهماً بالزعم أنني تمردت على الانتماء الطائفي؟!

IV

... ومع ذلك كله، أو برغم ذلك كله، فإن بيروت رائعة للمثقفين. فقد وجدت عملاً في الجامعة بمجرد عودتي، وخلال عامين توليت تحرير مجلة مشهورة وقتها هي مجلة **الفكر العربي**، ثم في النصف الثاني من الثمانينيات أصدرت بالاشتراك مع الوزير الفضل شلق مجلة **الاجتهاد** التي ما أزال أحررها حتى اليوم. والنشر سهل جدا في بيروت. فقبل أن تنتهي من كتابة مقالة تتلقى عدة عروض للنشر، وتستطيع أن تتقاضى أحياناً مبلغاً من المال مقابل نشر كتاب. وعندما زارني في بيروت عام ١٩٨٦ اثنان من زملائي السابقين بجامعة الأزهر، ورأيا مكتبتي وما أصدرت من كتب ومقالات؛ اعتبرا النجاح السريع الذي تتيحه بيروت مضراً بالمستوى الأكاديمي، فضلاً عن أنه يجعل المثقف يبالغ في تقدير إمكانياته العلمية. على أن الكتب والمجلات التي أصدرتها بلبنان، وما أزال، تُقرأ في الأعم الأغلب في بلدان الوطن العربي وليس في مكان الصدور. أدركت ذلك منذ الثمانينيات عندما بدأت أقرأ عروضاً لكتبي ومقالاتي في المغرب ومصر والعراق وتونس. ثم بدأت الجامعات العربية تدعوني للمحاضرة أو للتدريس في حين ظل أكثر طلابي بالجامعة اللبنانية حتى مطلع التسعينيات يجهلون ما كتبته أو ما أهتم به. أما كتاباتي في الصحف اللبنانية فتقرأها قلة قليلة فقط إلا ما تعلق بموضوع لبناني. فعندما زرت إيران قبل شهر أقبلت على كتابة مقالات حول الوضعين الثقافي والسياسي هناك؛ فلم أتلق أي استفهام حول ما كتبت؛ في حين حظيت مقالة كتبتها عن هجرة المسيحيين العرب بتعليقات كثيرة سلباً أو إيجاباً أو إضافة.

أما العلاقات مع الأساتذة والمثقفين فإنها لم تتطور الى علاقات صداقة إلا مع قلة قليلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليدين. ويرجع ذلك في جزء منه إلى أنني لم أدرس في الجامعة اللبنانية في الستينيات والسبعينيات شأن الكثرة الساحقة منهم؛ فلم تكن لدينا ذكريات مشتركة. إذ تعرفت على أكثرهم بعد مجيئي من ألمانيا مع ما أحاط بهويتي الثقافية في السنوات الأولى من التباسات. والحقيقة الأخرى أن الزملاء في لبنان لا يقرأ أحدهم للآخر. قال لي زميل كنت قد تعرفت عليه عام ١٩٧٨: لماذا هذا الاهتمام الطائفي بل المذهبي المستمر في كتاباتك؟ وكان يعني بذلك أنني شيعي متحمس! فسُررت لأول وهلة ظناً مني أن ذلك يعني أنه لا يمكن معرفة طائفتي من خلال كتاباتي! لكن صديقاً متابعاً أقسم لي أن الزميل القديم لم يقرأ شيئاً من كتاباتي باستثناء العناوين ذات الموضوعات الإسلامية؛ ولأن الإسلامية تتماهى مع الشيعية في أذهان المسيحيين اللبنانيين؛ فإن صاحبنا اعتبرني كذلك!

لكن وكل شيء في لبنان لا بد فيه من لكن.. عندما نشرت الدار التي أخرجت كتابيَّ الأخيرين في صيف العام ١٩٩٧ إعلاناً في الصحف أنني سأوقعهما في معرض الكتاب الذي أقيم أواخر العام الماضي، أقبل زهاء ثلاثمئة في عشيتين على شراء الكتابين والمجيء بهما إليّ للحظوة بتوقيعي!

ذكر أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب **الأغاني** عن عائشة زوج النبي (ص) أن أعرابياً كان يمر ببابها يومياً منشداً:

على بكر أخي فارقتُ بكراً وأيُّ العيشِ يصلحُ بعد بكرِ

وعندما طال عليها الأمر استدعته إليها وخاطبته قائلة: أتقول إن عيش الناس لن يصلح بعد موت أخيك بكر؟! أنا أرى أن كل العيش صالح بعد بكر حتى الخبز المالح. **والأمر على النحو نفسه في بيروت: كل العيش صالح فيها وعذب برغم الصعوبات المحيطة بأوضاعنا باعتبارنا مثقفين، وبرغم وجودنا نحن المثقفين المزعجين والمنزعجين.**

(رضوان السيد، «السفير»، ١٩٩٨/٤/٣)

المسرح بين التجريبية والكلاسيكية والحداثة

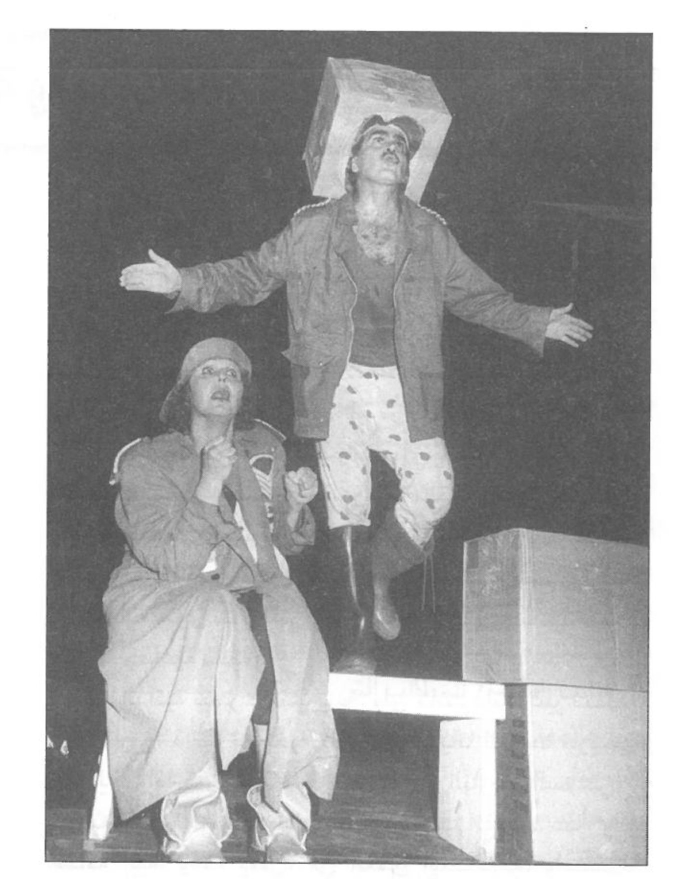
لا حدود ولا تخوم ولا قوانين ولا أعراف ولا قواعد ولا ثوابت يمكن أن تحدد التجريبية، سواء في المسرح أو في السينما، أو في الشعر أو في الرواية، إنه فضاء شاسع محدود مليء بالمتناقضات والمفارقات، متحرك أبداً، لا يتوقف عند إنجاز، أو عند كشف، أو عند تجديد، أو ثورة. ابن اللحظة، سمه، ابن الحاضر (الزمني) وهنا (اللازمني) هناك، وهذا يعني أن شيئاً أساسياً يسم أي تجريب، هو الاحتمال الدائم للحظة تتحرك في كل الاتجاهات، لحظة متجددة، أو تدعي القطيعة مع الماضي، أو الالتحام الحي بالماضي، أو استشراف المستقبل، أو تأكيد التراث تأكيداً مختلفاً، **هذا هو التجريب: البحث غير المشروط في أفق لا يحد.**

ولكن هل يعني ذلك أن التجريب وخصوصاً في المسرح، باعتباره تجلياً، أو آلية، أو وجهاً من وجوه التحديث (والحداثة، أو الحداثية، أو الاستحداث)، أهو، في جوهره، محاولة نسيان، أو بالأحرى محاولة إحراق ذاكرة، أو ماض، أو موروث، أو سائد هل التجريب، كي يكون، فعلاً تجريبياً، لا بد من أن ينطلق من العدم أو أن يحطم الموروث، والتراكمات، ويخرج متطهراً في حركة لا زمنية، في أبهة المعجزات والخوارق؟

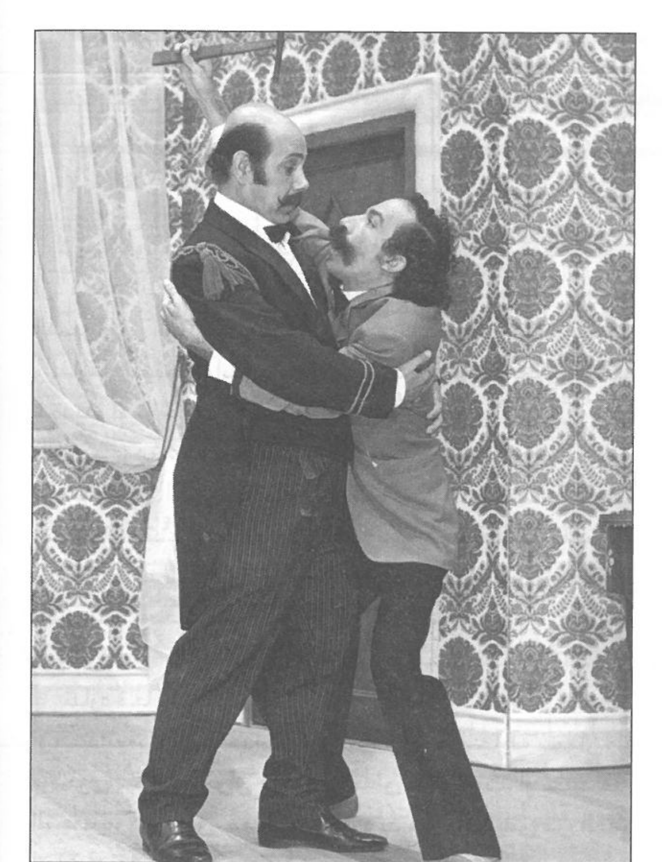
قيل بين ما قيل أن «التجريب خروج على كل قاعدة»، وقيل «ثورة تأكل نفسها باستمرار»، «وإنجاز لا ينتهي»، و«حركة لا تنقطع»... وقيل أيضاً «قطع مع السائد» و«الماضي»، و«الموروث»، وكسر «البنى» والعلاقات القائمة... كل ذلك قيل، وجرت محاولات تطبيقية له، منها ما فشل، ومنها ما نجح جزئياً، ومنها ما نجح نجاحاً كبيراً، ومنها ما تطور، ومنها ما لم يتطور... لكن، واختصاراً - وكي لا نقع في تكرار أقوال شاعت، أو انخرطت في ذاكرة نقدية، أو حتى جماعية، يمكن أن نشير إلى أن التجريب، **أي تجريب، لا سبيل له إلى قطع نهائي مع معطيات الماضي** أو مع إنجازاته، ولا يمكن أن يبدأ أي تجريب، من الصفر، أو لا يمكن أن تكون كل محاولة بداية. ونظن في هذا الإطار، أن التجريب يقوم على أساس بلورة التراكمات الخاصة والعامة، الراهنة والسابقة، التاريخية والاجتماعية، الفردية والجماعية، وهذا يعني، أن طبيعة العلاقة التي تنسج بين العناصر المسرحية (كمعطيات خاصة) وسواها، هي التي تميز توجهات التجريبية المتنوعة. من هنا، أن لا مادة يمكن أن تكون خارج التجريب، حتى ولو كانت سائدة، أو موروثة، أو بالية، لا مواد قديمة في المسرح، ولا مواد جديدة (حاسمة). والتاريخ لا يلغى هنا، وإنما يستخدم في هذه العملية، لكن يستخدم كمادة أولية، لا كبيئة مغلقة، كنص مفتوح لا كنص مغلق، أي كعنصر منتهك، لا كعنصر مقدس. المسرحي عندما يتعامل مع موروث تاريخي، لا يتعامل معه كي يؤكده في طبيعته النهائية، وإنما كي ينفيه، أي يحوله من مادته الأولى إلى مادة أخرى إلى تشكيل جديد، إلى بنية جديدة، تتحدد من ضمن منظور، ومفهوم، وخصوصية المسرحي، لهذا يمكن القول إن هذا التعامل لا يقوم على الحذف أو الالغاء فحسب، وإنما على تحويل المعطى من طبيعة إلى أخرى، أو من تحويل دلالاته (الأصلية) و(العامة) إلى دلالات (راهنة) وخاصة، أي يصبح الموروث العمومي الشائع، ذا هوية خاصة، ذاتية، فردية، فالتجريب، في هذا الإطار، يكون تحقيقاً خاصاً، وذا حساسية خاصة، لموروث عمومي. فالتجريب، أياً كان شكله أو انتماؤه أو مصدره، أم مصبه، لا يكون في النهاية سوى نتاج ذاتي (حتى ولو كان عملاً جماعياً، فيصبح عملاً ذا جماعية ذاتية).

بهذه الذاتية تتحرك التجريبية، وإن كانت ذاتية غير منفصلة عن التاريخ، ذاتية تاريخية وإن أدت أحياناً إلى «لا تاريخية» ظاهرية. وإذا كان ثمة تجاوز ما لمعاني التاريخ (المسرحي) أو لقوالبه، أو لبناه، أو لأعرافه، فلا يعني ذلك انفصالاً عنه، وإنما إضافة إليه، ومنه يعني، في العمق استخدامه، واستغلاله، وامتصاصه، في خدمة الذاتية المتبلورة بمنظور، أو بنظرية، أو بمختبرية، والمتصلة باللحظة - العصر الذهبي ذروة الذاتية ومحولاتها الثقافية والايديولوجية، والسياسية والفنية والدينية والاجتماعية والطقسية. ولهذا نرى أن الموروث الجماعي لا ينحصر فقط في الظواهر - المعطيات التي تتمثل في التاريخ: أحداث، عادات، طقوس، وإنما أيضاً في الأعمال والآثار المسرحية ذات الإنجازات المكرسة. وهكذا تصبح الحدود غير واضحة بين معطى ديني مثلاً وبين نص لسفوكل، بين ظاهرة اجتماعية (كالحكواتي) وبين نص لشكسبير، بين حكاية شعبية (كألف ليلة وليلة) وبين نص لغولدوني، أو لموليير، أو للجاحظ (كمعطى)، أو لأبي حيان التوحيدي، أو حتى للقصائد والمعلقات، فكلها «نصوص» قابلة للمسرحة، أي قابلة لممارسة التجريب عليها.

وفي هذا الإطار يمكن أن يؤدي القول أن لا زمن للتجريب، ولا مكان له، ولا شيء «يتمرد» على «مرماه» أو ينجو من شباكه، فالمهم هو العلاقة الجديدة التي يقيمها المسرحي، سواء أكان كاتباً أم مخرجاً أم ممثلاً أم سينوغرافياً، بين هذه العناصر، فالتجريب بهذا المعنى هو الكيفية التي تبرز فيها هذه العناصر في فضاء جديد، وفي هاجس جديد. وهكذا يمكن أن نجرب مواد جديدة (تكنولوجية) على مادة قديمة (نصوص أم ظواهر)، أو أن نجرب مواد قديمة على نصوص جديدة، أو مواد قديمة على مواد قديمة من ضمن رؤيا جديدة. وهذا، كما قلنا، ينطبق على كافة العناصر المسرحية، فالقطع مع الماضي أو الجاهز، أو السائد، في عملية



نضال الاشقر خلال عرض لمسرحية «الحلبة» مع الممثل رفيق علي احمد



شوشو في احدى مسرحياته

التجريب أمر يكاد يكون غير موجود، فلا شيء يضيع في المسرح. ولهذا السبب يقال أفلام قديمة، أو قصائد قديمة، ولا يقال مسارح قديمة، كأن كل عنصر من عناصر المسرح هو عنصر «أبدي» و«حي»، و«كامن» يحتاج دائماً إلى من ينقب عليه وفيه لاستخدامه واستغلاله. وإذا أخذنا مختلف الحركات «الثورية» و«التجريبية» في المسرح العالمي الحديث نجد أن هذه العلاقة هي التي تتحكم بالمادة، وليس العكس.

على صعيد النص المسرحي تبقى نصوص سوفوكل ويوريبيدس وأخيل مثلاً ذا قابلية للاستغلال في مجال التجريب الكتابي (أو الارتجالي). يونسكو نفسه أحد الكتاب التجريبيين بقيت بنيته عموماً متصلة بالبنية التاريخية العامة، ولم تمنعه ثوريته من الاستناد إلى «مكبث» شكسبير ليقتبس مكبثه منها. برشت أيضاً قارب كورليانوس شكسبير، و«انطيغون» سوفوكل. جان انوي لم يستطع مقاومة «انطيغون»، حتى كامو كتب مسرحيته انطلاقاً من رواية «الممسوسون» لدوستويفسكي، وكاليغولا. وسارتر أخذا شخصيات من الأسطورة الإغريقية في «الشيطان والاله الطيب»، ونذكر أيضاً جان أنوي، وجيرودو اللذين استفادا من معطيات التاريخ الإغريقي وأساطيره ومسرحه ليخوضا تجربتهما الخاصة. وفي القرن الماضي فاغنر استمد من الاساطير والحكايات الألمانية وسواها مواضيع لكتابته. بول كلوديل استغل المانع التوراتي والإنجيل لينسج من كتاباته المسرحية.

عندما أول مسرحية عربية لمارون النقاش كانت اقتباساً من المادة الكلاسيكية: موليير. واظن أن مسرحية النقاش هي مسرحية تجريبية لأنها تجرب المسرح كنوع للمرة الاولى، ولانها تكشف بنية جديدة له. يعقوب صنوع اقتبس وترجم موليير وغولدوني، والفرقة القومية للتمثيل في مصر قدمت السيد لكورني، (ترجمة خليل مطران)، وأوديب مكنا (ترجمة طه حسين). جلال خوري اشتغل على نص لبرشت فكانت «جحا في القرى الامامية»، **وشوشو قدم مسرحيات غربية لبننها بعض الكتاب كفارس واكيم، من هذه المسرحيات لموليير وابسن. ريمون جبارة اقتبس مسرحية رجل المانش، ودونكيشوت وصارت صانع الاحلام»...** وصلاح القصف أعاد كتابة «الملك لير» لشكسبير، فالمادة النصية الكلاسيكية أو المكرسة، كانت كما رأينا مادة تجريبية نصية، وكذلك النصوص الدينية، أي كانت، معطيات اتخذت تقاسيم وملامح ورؤى وصوغ الكاتب. وهنا تبرز التجريبية، أي بالإضافة الذاتية، وكذلك بالأداء الكتابي (البنية، تركيب الشخصيات، اللغة...)، فانطيغون أنوي تختلف عن أنطيغون برشت. وهكذا دواليك، هذا الاختلاف يشكل المادة التجريبية.

وينسحب التجريب إلى علاقة المخرج (أو المدير، أو معيد القراءة، أو التوزيع) بالنصوص الكلاسيكية، وهذا المجال ارتبط بتطور الدور الإخراجي من الغياب أو شبه الغياب في القرن التاسع أو سلطة المخرج المطلقة في القرن العشرين، حيث ينشغل النص (الناجز) من

ملكية كاتبه كأثر إلى ملكية المخرج كمفسر، وكموول، وكرؤيوي، وكمحول أي يصبح النص هنا ذريعة (إخراجية)، وهناك مادة مفتوحة. وهكذا يصبح النص (الكلاسيكي) خاضعاً لتشكيل المخرج، أي خاضعاً لرؤية المخرج التجريبية في النهاية أو خاضعاً للرؤية الجماعية إذا كان العمل جماعياً، يفقد استقلاليته، يفقد توقيعه الوحيد، يصير بتوقيعين أو بتواقيع عدة. فنقول مثلاً «هملت» كريغ (قدمها في موسكو بدعوة من ستانسلافسكي عام ١٩١٢)، أو «الملك لير» صلاح القصب، أو «مكبث» غروتوفسكي (حيث المثل هو المركز الدرامي الأساسي، ومجال الاختيار الذي يتركز على التلوين البلاستيكي والتمارين الصوتية، والإيقاعية، والرياضية، والبهلوانية...). ويقال دون جوان موليير، وميديا كما رآها جهاد سعد أو المنجي ابراهيم، وفاوست غوته يصبح «فاوست» منير أبو دبس، و«أوديب ملكاً» سوفوكل يصبح «أوديب ملكاً» أبو دبس أيضاً، وموليير بأعماله يصبح موليير اريان منوشكين.

وهكذا دواليك فشكسبير أو غولدوني أو موليير أو بومارشيه وسوفوكل، واخيل، ويروبيدس، ولوركا، وحتى يونسكو... (الذي صار كلاسيكياً) أو أي نص ناجز، يتحول، عبر الرؤيا الإخراجية إلى آخر، **إلى معنى آخر، إلى دلالات أخرى، فيتحرر التجريب من اعتبار المادة النصية مادة نهائية، إلى اعتبارها عجينة، أو عنصراً (أعزل) لميدان تجريبيته.**

ويمكن القول أيضاً، وبالإيجاز الشديد، أن المعطيات الاجتماعية والسياسية والدينية والطقوسية والعادات المتأصلة، تشكل مواد للتجريب، ونذكر خيال الظل والاراكوز، الخلواتي، الطقوس الدينية والعشيرية، والفولكلورية، التي شكلت عند كثيرين من أصحاب الاحتفالية والفرجة الشعبية معطيات للشغل على النواحي التشكيلية والإيقاعية والسينوغرافية والدلالية أيضاً لتجريب هذه المواد في إطار مسرحي متجدد.

ولا يمكن أن نتجاوز استفادة عدد كبير من كتابنا ومخرجينا المسرحيين أحداثاً، أو آثاراً، أو مؤلفات أو حكايات، وأساطير، وشخصيات تاريخية ودينية، ونصوصاً قديمة عربية وغير عربية، لينطلقوا منها في كتاباتهم، كألفرد فرج وسعد الله ونوس، وعلي سالم، وفوزي فهمي، والطيب الصديقي، سعدادرش، وكرم مطاوع، وعز الدين المدني، ويعقوب الشدراوي، والمنصف السويسي، ويوسف العاني، وابراهيم جلال وعبد القادر علوله، ومصطفى كاتب، وعبد العزيز السريع وصقر الرشود. إن مختلف هذه المعطيات قديمة، سواء كانت نصوصاً أم ظواهر، أم حكايات، أم أزياء، وتشاكيل، واستعملت في هاجس تجديدي، حداثي أي استعملت كمادة قديمة أم للتعبير عما هو «جديد»، أو لابتكار جديد، وهذا يعني في العمق، أن المسرح أياً كانت أشكال ومستويات تجريبيته، من الصعب جداً أن يقطع مع الماضي، إلا عندما يتقدم هذا الماضي كبنى مغلقة، لا كاحتمالات مفتوحة.

التجريب، هو، أن تحول «الماضي»، والتراث والظواهر إلى هم معاصر، حي، إلى لغة متجددة.

أي أن تحوله إلى لحظة راهنة مكتنزة بالإيحاءات والإسقاطات، والمعاصرة، أي من تاريخ عمومي، شائع، وإلى تاريخ خاص، ذاتي... أي قطع المسافة من الإخلاص لذلك التاريخ إلى خيانته.

تحويل الماضي إلى حاضر.

(بول شاوول، مدخل قدم في الندوة الفكرية لمهرجان القاهرة المسرحي الخامس، «السفير»، ٢١/٩/١٩٩٣)

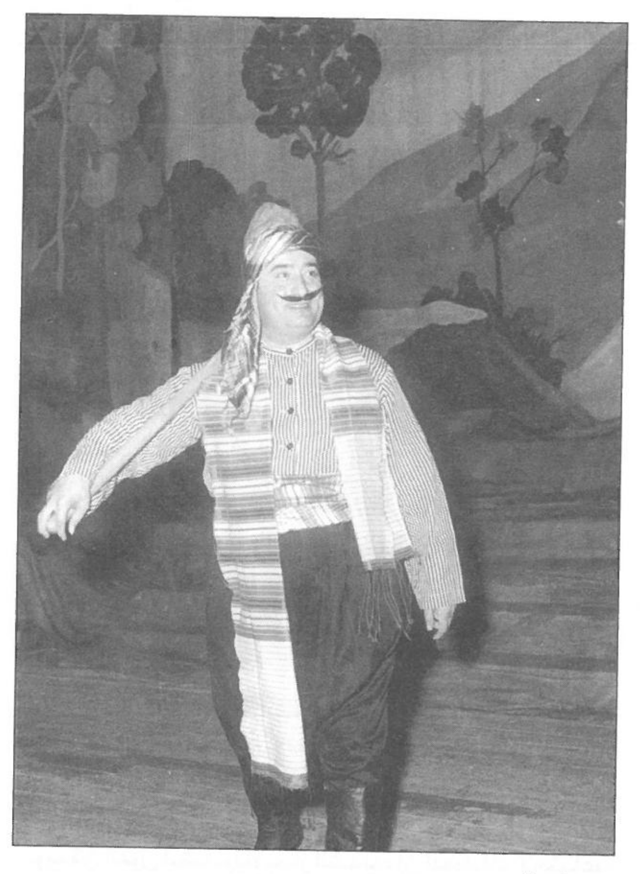
لبنان يستعيد جانباً من دوره الثقافي والفني المميز في عام التحرير

منذ القرن التاسع عشر شكل لبنان واحدة من أبرز الساحات الثقافية على امتداد الوطن العربي. فبالإضافة إلى مدارس الإرساليات الأجنبية والمدارس الخاصة التي تعنى بالعلوم العصرية شهدت بيروت ولادة أولى الجامعات الحديثة في العالم العربي وهي الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٨٦٦، وتلتها جامعة القديس يوسف في بيروت أيضاً عام ١٨٧٥ وكانت ولادتها بالارتباط مع جامعة ليون الفرنسية. **وساهم اللبنانيون بنشاط كبير في ولادة وتطوير الحركة المسرحية، والفنية، والموسيقية، والصحفية، وحركة الترجمة، والطباعة والنشر في لبنان وكثير من الأقطار العربية، وقد ساعدهم في ذلك الحيز المقبول من مناخ الديموقراطية في لبنان ومصر،** بالإضافة إلى ارتباطهم الوثيق والمباشر بالثقافات الغربية ولغاتها الحية.

ومن المعروف جيداً أن اللبنانيين لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط الثقافة والفنون في الوطن العربي وكان لبنان من أبرز مراكز الإنتاج الثقافي والفني المميز في هذه المنطقة منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب الأهلية الطويلة ١٩٧٥-١٩٩٠. وقد عبرت تلك الحركة عن نفسها بالمهرجانات الثقافية والفنية التي استمتع بها اللبنانيون وضيوفهم العرب طوال السنوات التي سبقت الحرب الأهلية، وبشكل خاص مهرجانات بعلبك الدولية التي استقطبت كبرى الفرق الفنية والمسرحية في العالم وباتت معلماً مهماً من معالم التواصل الثقافي والفني ما بين العرب والعالم.



فيروز مع نصري شمس الدين



وديع الصافي

لكن الحرب الأهلية وسيطرة دويلات الميليشيات الطائفية المسلحة ضربت ركائز الوحدة الوطنية في لبنان وكانت الثقافة والفنون من أبرز ضحاياها. فقد استشهد أو توفي عدد كبير من المثقفين والفنانين اللبنانيين في ظروف الحرب الاهلية الطويلة، وسدت أبواب العمل في وجه عدد آخر فاختاروا طريق الهجرة إلى الخارج والاستقرار هناك حتى انتهاء الحرب الاهلية القذرة. **وتدنى مستوى الأعمال الفنية بشكل مريع نتيجة صمت الفنانين الكبار من أمثال فيروز والرحابنة ووديع الصافي وكبار المسرحيين. ولم تحظ الأعمال الفنية الجادة بأي تمويل، وامتلأت الساحة الثقافية والفنية بفرق مرتجلة غايتها الترفيه عن الناس، وامتلأت الساحة الفنية بعدد كبير من المطربين الجدد الذين اعتمدوا أسلوب الضجيج الموسيقي المستوحى من الموسيقى الغربية الصاخبة** مع غياب شبه تام للأعمال الموسيقية والفنية الجادة باستثناء الأغنية السياسية التي لاقت رواجاً كبيراً في ظروف الحرب الأهلية. وقد استمر هذا الوضع ضاغطاً على الساحة الثقافية والفنية اللبنانية طوال ربع قرن ١٩٧٥ـ ٢٠٠٠ حين بدأ لبنان يستعيد فعلاً عافيته في هذا المجال.

تجلى ذلك في المهرجانات الفنية الراقية التي شهدتها معظم المناطق اللبنانية في صيف عام ٢٠٠٠. وهذا يتطلب وقفة مطولة لإبراز الظروف الموضوعية التي ساعدت على تصحيح مسار الحركة الفنية والثقافية في لبنان في هذه المرحلة بالذات.

لعل أهم تلك الظروف على الإطلاق أن الساحة اللبنانية قد عاشت عرس تحرير جميع الأراضي اللبنانية من دنس الاحتلال الإسرائيلي. فقد شاهد اللبنانيون ومعهم جميع المهتمين بالشأن اللبناني هزيمة إسرائيل وخروجها مع القوى العميلة المرتبطة بها من جيش لبنان الجنوبي في ٢٤ مايو ٢٠٠٠. وليس من شك في أن فرحة التحرير شكلت جامعاً مشتركاً بين اللبنانيين، وبدأ التحضير الجدي للبنان ما بعد الحرب الاهلية، وقيام دولة القانون والمؤسسات، وتنمية القطاعات الإنتاجية، ورفع مستوى التعليم في جميع المجالات، وإعادة تنشيط الحركة الثقافية والفنية، وغيرها.

بعبارة موجزة، أدرك اللبنانيون بحق أنهم حققوا إنجازاً كبيراً في تصديهم للاحتلال الإسرائيلي وإجبار إسرائيل على الخروج من لبنان دون قيد أو شرط، واستعادة جميع الاراضي اللبنانية المحتلة منذ اتفاقية رسم الحدود بين لبنان وفلسطين في ظل الانتداب البريطاني عام ١٩٢٣. وارتفعت أصوات المثقفين والفنانين تنادي بأن شعب لبنان الذي قدم جميع التضحيات المكنة ونال إعجاب كل أحرار العالم يستحق أن يستعيد عافيته الفنية والثقافية لأن لبنان فسحة كبيرة للثقافة والفنون العصرية الراقية أكثر مما هو مساحة جغرافية ضيقة. وبالتالي، يجب أن يعاد الاعتبار للإبداع الفردي والجماعي، وأن ينال الفنانون والمبدعون كل أشكال الدعم من الدولة والقطاع الخاص، وأن



صباح

مارسيل خليفة

تتوقف بعض القوى المتحكمة بالإعلان عن دعم الإنتاج الفني الرديء الذي يسيء إلى سمعة لبنان على المستويين الإقليمي والدولي، ويساهم في نشر ثقافات استهلاكية خطرة ومسيئة جداً.

من نافل القول أن معظم البرامج الثقافية لصيف عام ٢٠٠٠ كانت قد أعدت قبل عملية التحرير التي أنجزت في أواخر شهر مايو من هذا العام، إلا أن المناخ العام الذي رافق ذلك الإعداد قد أخذ بعين الاعتبار مسألة الانسحاب الإسرائيلي الذي تحدد في ٧ يوليو ٢٠٠٠ كحد أقصى للانسحاب من لبنان. وبالتالي فإن معدي البرامج الثقافية والفنية قد استعدوا للاحتفال بهذا النصر الكبير عن طريق اختيار أفضل الفرق الفنية اللبنانية والعربية والعالمية. ويكفي التذكير هنا ببعض تلك الاستعدادات.

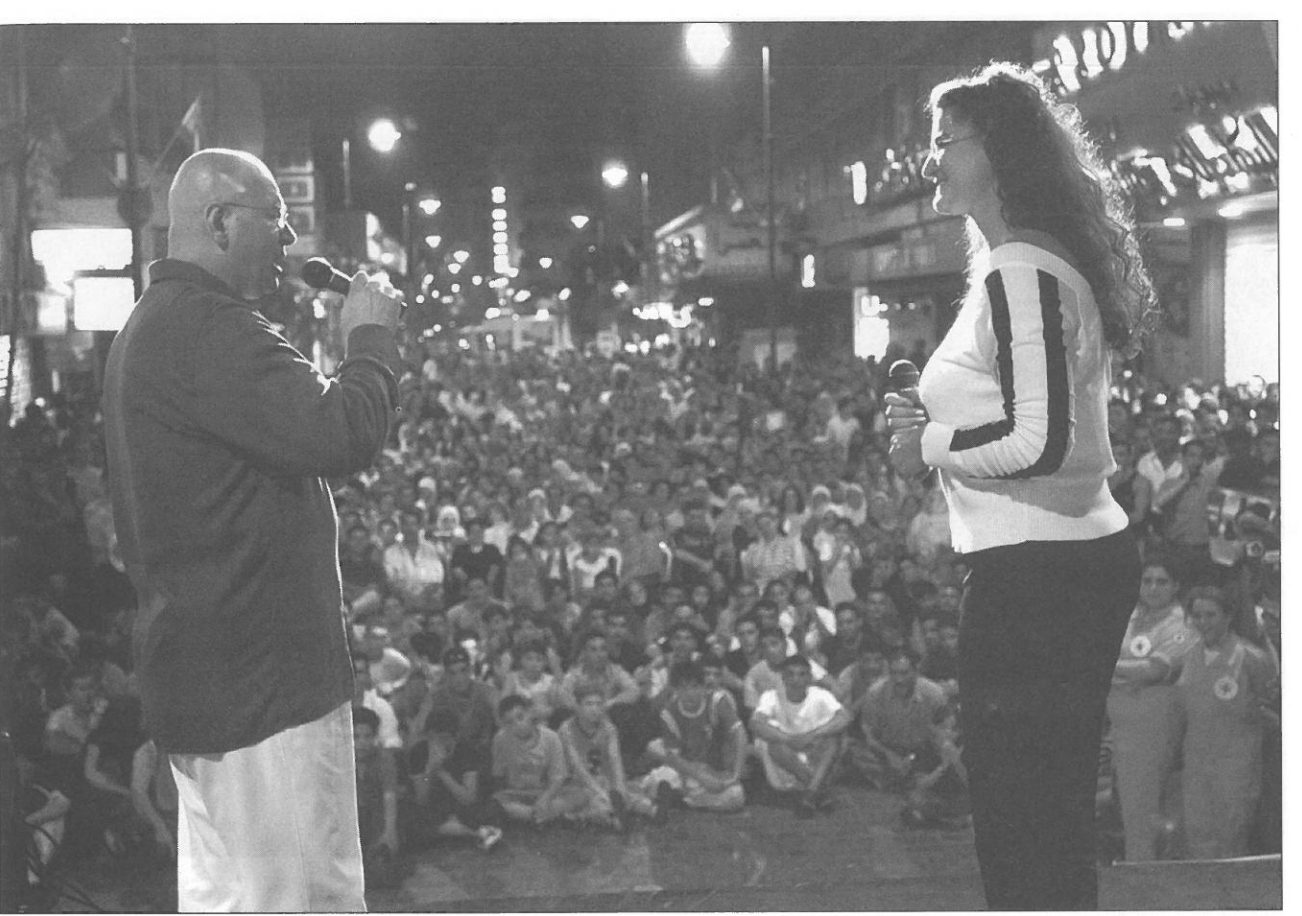
تم التعاقد مع المطربة فيروز بالاشتراك مع الفنان زياد الرحباني لإحياء مهرجانات بيت الدين، هذا بالإضافة إلى عدد من أشهر الفرق الفنية العالمية التي شاركت في إحياء ليالي بيت الدين الفنية التي شهدت إقبالاً قل نظيره في السابق.

تم التعاقد مع الفنانين مرسيل خليفة، وزاد ملتقي، والفنان المبدع وديع الصافي، وفرقة فهد العبد الله للفنون الشعبية، والمطرب عبد الكريم الشعار وغيرهم للمشاركة في إحياء مهرجانات بعلبك الدولية. وقد شاركت في أيام بعلبك فرق فنية عالمية.

أحيت الفنانة الكبيرة جوليا حفلة فنية مجانية في بلدة أرنون المحررة حضرها أكثر من خمسين ألف شخص، واعتبر المهرجانات بمثابة عرس فني للتحرير والانتصار.

من ناحية أخرى، يستمر عرض مسرحية عبد الحليم كركلا الرائعة «بليلة قمر» في لبنان منذ أشهر عدة بعد أن بدأت عروضها على مسرح كازينو لبنان. كذلك يعرض الفنان منصور الرحباني مسرحيته المتميزة «وقام في اليوم الثالث» على مسرح كازينو لبنان منذ فترة طويلة. ويستعد الفنان المبدع رفيق علي أحمد لإعادة عرض مسرحيته الجميلة «قطع وصل» على مسارح بيروت بعد أن لاقت نجاحاً كبيراً في ربيع عام ٢٠٠٠. وإذ فاق نجاحها توقعها مؤلفها وممثلها، توقفت المسرحية لأسباب إدارية بسبب ارتباط المسرح بعروض أخرى، وسيعاد تمثيلها في مطلع الموسم الفني القادم بعد نهاية العطلة الصيفية. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الأعمال الفنية الجادة التي يجري التحضير لإطلاقها في الأسابيع القليلة القادمة والتي تؤكد على أن لبنان قد بدأ يستعيد فعلا جانباً من الدور الثقافي المميز الذي اشتهر به وذلك باستثناء فترة الحرب الأهلية التي عطلت كل الأدوار التي تميز بها لبنان طوال القرن العشرين.

تبقى ملاحظة أساسية في هذا المجال أن تنشيط الأعمال الفنية الإبداعية في لبنان صيف عام ٢٠٠٠ كان له تأثير كبير ومباشر على جميع النشاطات الفنية الأخرى التي ضج لها لبنان في ظروف الحرب الأهلية. فلم تعد الحفلات الصيفية لغالبية



حفل غنائي لعبد الكريم الشعار وابنته رنين في مهرجان الحمراء

«المطربين الجدد» تثير اهتمام اللبنانيين. وتراجعت نسبة حضور حفلاتهم بشكل حاد، وغابت صورهم بشكل شبه تام عن لوحات الإعلانات بعد أن حلت مكانها صور المرشحين لانتخابات لبنان عام ٢٠٠٠ التي غطت كل الساحات، والأعمدة والأشجار، وواجهات المنازل وغيرها. وتواجه الحركة الفنية والثقافية في لبنان انتقادات حادة للتمييز ما بين الأعمال الفنية الجامعة والأعمال الفنية المعدة للاستهلاك. ومن المتوقع أن يزداد الاهتمام، الرسمي والشعبي، بالحركة الثقافية والفنية التي تعيد للبنان دوره الرائد في هذا المجال.

ونظراً للإمكانيات الإعلامية والإعلانية التي تتمتع بها الساحة الفنية اللبنانية ذات الصلة الوثيقة بالمراكز الفنية العربية والعالمية، فإن مناخ الحرية المتسع في لبنان بعد تحرير أراضيه من الاحتلال الإسرائيلي يساعد على تنشيط حركة ثقافية وفنية تكون لها نتائج إيجابية ليس على الساحة اللبنانية فحسب بل على مستوى الوطن العربي كله.

دليلنا على ذلك أن عدداً كبيراً من الفنانين العرب والأجانب بدأوا يتوافدون إلى لبنان للمشاركة في النشاطات الفنية فيه. وهي ظاهرة إيجابية يمكن الاستفادة منها لتنشيط دور لبنان الثقافي والفني المرتقب على أسس جديدة.

ختاماً، لقد بدا واضحاً من خلال هذا العرض السريع والمكثف **أن هناك روابط وثيقة ما بين العمل الفني والثقافي الجاد ومشكلات بناء الوطن. ويقدم لبنان نموذجاً بالغ الدلالة في هذا المجال.** فحين كانت الساحة اللبنانية أسيرة الصراعات الداخلية والميليشيات الطوائفية المتناحرة تدنى مستوى التعليم، والثقافة، والإبداع الفني إلى الحدود الدنيا. ونشطت الفرق الفنية التي تروج للثقافة الاستهلاكية التي تعتمد أسلوب الترفيه السهل على حساب الثقافة الفنية المعمقة والارتفاع بوعي الناس نحو مرحلة أرقى باعتبار أن الفن متعة ورسالة الثقافة في آن واحد. وليس من شك أن محصلة العام الأول للتحرير كانت إيجابية على المستوين الثقافي والفني حيث استعاد لبنان جزءاً من دوره القديم في هذا المجال، في وقت تراجع بشكل ملحوظ دور الثقافية الاستهلاكية المعدة للترفيه والإمتاع. إلا أن محصلة عام واحد لا تكفي للحكم على مسار الحركة الثقافية والفنية الجديدة في لبنان «لأن سنونوة واحدة لا تكفي للدلالة على فصل الربيع»، كما يقول أرسطو. لذا لا بد من انتظار محصلة الأعوام القادمة للتأكد من أن لبنان قد استعاد دوره الثقافي والفني المميز على أسس جديد تتلاءم مع التطورات الإقليمية والدولية في عصر العولمة والنظام العالمي الجديد على مشارف القرن الحادي والعشرين.

(مسعود ضاهر، «الاتحاد»، ٢٠٠٠/٨/٢٨)

ساحات بيروت



ساحة البرج



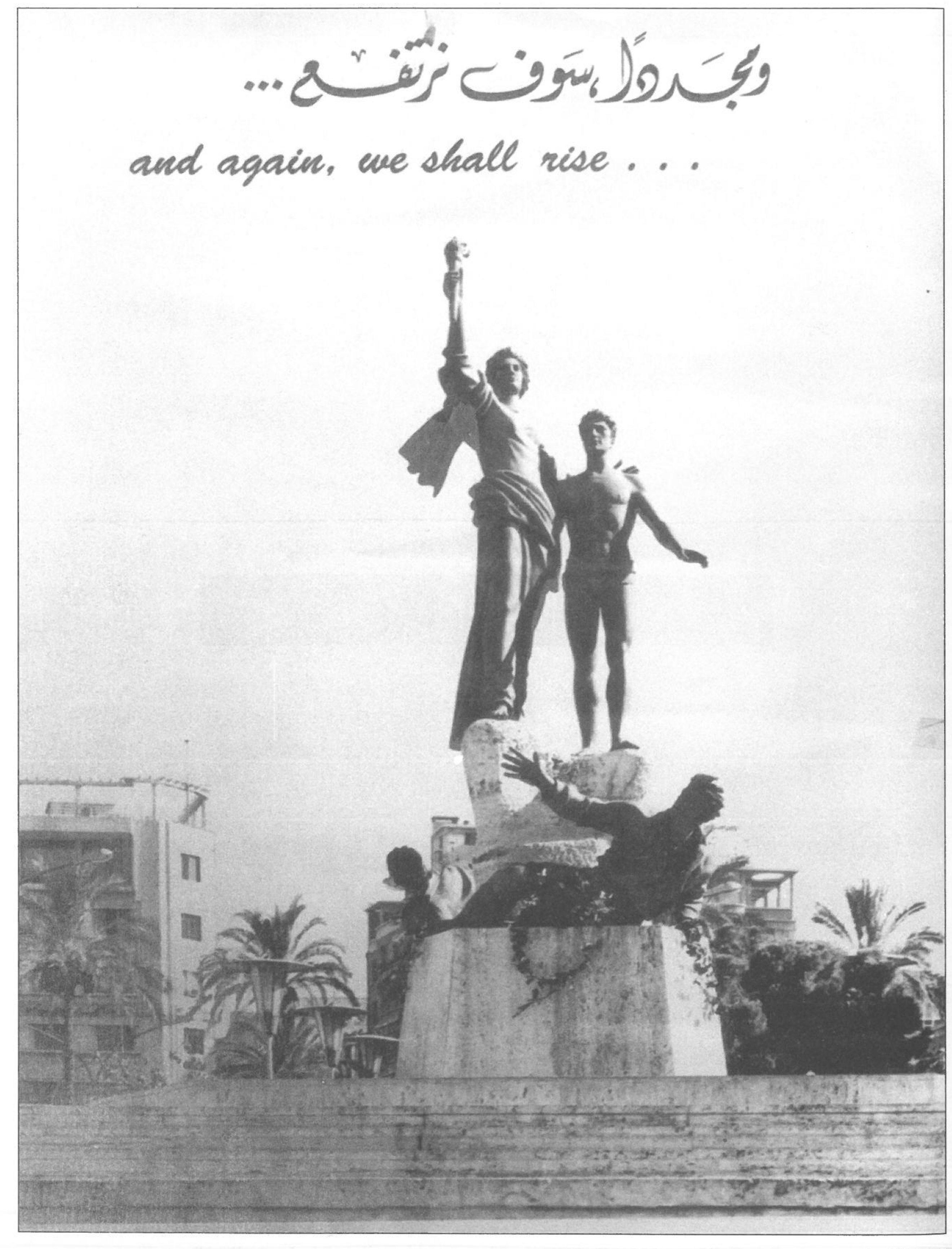
ساحة الدباس



ساحة رياض الصلح بعد إعادة إعمارها.



ساحة النجمة اليوم.



تمثال الشهداء

الدراسات (*)

(*) إن الدراسات والمقالات الواردة هنا تعبّر عن آراء كتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء تتبنّاها «معلومات» أو «المركز العربي للمعلومات».

بيروت في الأسطورة والتاريخ (*)

رجا حوراني (**)

في الأسطورة

في الأسطورة، واستناداً لمؤرخ فينيقي من مواطني بيروت اسمه (Sanchoniathon) أن الإله (Ilorillion) ملك جبيل هو الذي بنى المدينة، وأطلق عليها اسم زوجته بيروت.

وهناك اختلاف حول كلمة «بيروت»، فمنهم من يقول إنها مأخوذة من كلمة «بيروتاي» (Berothai) الواردة في التوراة، سفر صموئيل الثاني الأصحاح الثامن والعدد الثامن. ومنهم من يقول إنها مأخوذة من كلمة «بيروتاه» (Berothah) الواردة في سفر حزقيال، الأصحاح السابع والأربعين، العدد السادس عشر. ومنهم من يقول إنها مشتقة من كلمة «بياروت» (Bearoth) العبرية، ومعناها آبار، فالمنطقة كانت غنية بآبار الماء، وبقيت كذلك حتى جرّت إليها مياه نهر الكلب.

أما موقع بيروت، فقد كان في الأرجح إلى الجنوب من رأس بيروت على طريق صيدا. قرب نهر الغدير حيث اكتشفت مقبرة فينيقية. وهي تبعد قليلاً عن شاطئ البحر، قليلاً خوفاً من أمواجه العاتية في فصل الشتاء التي كانت تجرف الزوارق القريبة من الشاطئ.

في التاريخ

المعلومات حول بيروت نستقيها من اللوحات الصخرية التي لا تزال قائمة في منطقة نهر الكلب، وكذلك من اللوحات المنقوشة التي اكتشفت في منطقة «تل العمارنة» في مصر في العام ١٨٨٦. واستناداً إلى هذه اللوحات التي أمكن حل رموز إحداها يمكننا القول، وباختصار كلي، أن بيروت، وكذلك المدن الفينيقية: جبيل وصيدا وصور وقعت تحت حكم المصريين والآشوريين والحثيين والبابليين والفرس.

وسوف نعرض فقط لعلاقة بيروت بمصر لنؤكد أن بيروت تتمتع بمركز مرموق تحت السيادة المصرية، لكن دون مركز جبيل التي كانت مرتبطة بمصر بمواثيق سياسية، وكانت تتمتع باستقلالها إلى حد ما.

وفي ما يلي نص رسالة بعث بها أحد حكام بيروت ـ وهو من أبنائها ـ الى وليه حاكم مصر:

«الى الملك، نسمة حياتي أمونيرا (Amonira) خادمكم، غبار اقدامكم، على قدمي مولاي الملك انحني سبع وسبع مرات.

(*) نشرت في «السفير»، ٢٤ و٢٦ / ١١ / ١٩٩٠. والعرض التاريخي عن بيروت ـ بحسب الكاتب ـ مقتبس من مخطوطة إنكليزية تعود إلى العام ١٩١٢ وهي من تأليف الدكتور هارفي بورتر، أحد أساتذة الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية حالياً) وهي تتناول تاريخ بيروت من أقدم العصور حتى أوائل القرن العشرين.

(**) صحافي لبناني، اسس مجلة «الطليعة» عام ١٩٣٥.

وعند تفهمي كلمات لوحة مولاي الملك ابتهج قلبي وشع فرحاً. بالإضافة، إني أقيم حراسة مشددة وأراقب بيروت لصالح مولاي الملك. والى أن تصل جيوش مولاي الملك. بالإضافة، في ما يخص هذا الرجل من جبيل الذي هو في حوزتي وأنا فعلاً أقيم حراسة عليه حتى تصدر أوامر الملك بخادمه. بالإضافة، ليعلم مولاي الملك بما قام به أخوه الذي هو في جبيل، وأنه سلم أولاد رب أدي + (RIB ADDI) الى الملك آموري (Amorri). بالإضافة أنا حقاً وضعت نفسي وخيولي ومركباتي وجميع ما أملك تحت تصرف جيوش مولاي الملك . مرة ثانية أنحني على قدمي مولاي الملك سبع وسبع مرات».

بيروت الرائدة في مجال التجارة

مما يدل على ضلوع بيروت في النشاط التجاري الذي كانت تتصف به المدن الفينيقية هو ما نراه في النقود المسكوكة التي يظهر فيها إله البحر (Poseidon) راكباً عربته التي تجرها أربعة جياد بحرية تمخر عباب اليم. وهو ماسك بإحدى يديه سمك الدلفين (Dolphin) وبالأخرى الرمح المثلث الشعاب. ويظهر في نقود أخرى حاملاً «عروس البحر نيمفا» (Nymph) بيده اليمنى والرمح المثلث الشعاب بيده اليسرى.

وهنالك نقود أخرى ترمز إلى إله البحر بوسيدون الذي كان موضع تكريم واحترام من قبل سكان بيروت الذين توغلوا في تجارتهم بحراً، وكان إكرامهم إياه ليبقى راضياً عنهم، وليمنع الأمواج العاتية من إغراق زوارقهم وإتلاف تجارتهم. وهناك آلهة أخرى كان لها مقام رفيع في بيروت وهي «عشتاروت» ذات الصلة الوثقى بالإلهة فينوس (Venus) الرومانية. وقد بُني هيكل فينوس العظيم في أفقا حيث ينبع نهر إبراهيم. وكان أهالي جبيل قديماً يحتفلون بأعياد فينوس وأدونيس. وقد عرف نهر إبراهيم بعد ذلك باسم «نهر أدونيس».

وجدير بالذكر أن كلمة «بعل» تعني سيداً أو معلماً أو رئيس الآلهة. وقد تشعبت أسماء «بعل» حسب المناطق وحاجة الشعب. ففي بيروت أسموه «بوسيدون» إله البحر، وفي صور أسموه «هرقل» (Hercules) أو «ملكارت» (Melkarth). وهذا الاسم الأخير أطلق على البقعة المعروفة والكائنة حالياً في بيت مري حيث بني «دير القلعة» وكان مكرساً لعبادة «بعل مرقد» (Baalmarkod) وأرجح أن كلمة مرقد (Markod) هي فينيقية ومشتقة من كلمة «راكاد» (Rakad) وتعني القفز والرقص. وكان أهالي بيروت يقصدون هذا المقام، ويقومون بالطقوس المتوجبة عليهم، ويقدمون الأضاحي إيفاء لنذورهم.

الإسكندر المقدوني الكبير

من المعروف أن الإسكندر الكبير لدى اقتحامه الشاطئ الفينيقي في طريقه إلى مصر خضعت له جميع المدن من دون مقاومة ما عدا صور، ولكنه استولى عليها وهدمها. وبعد وفاته في العام ٣٢٣ ق.م استولى البطالسة (Ptolemies) في مصر على فينيقيا، وكانت بيروت ذات شأن تحت حكمهم كما يستدل من النقود التي صُكت في عهدهم، والتي كانت تحمل شعار «الرمح المثلث الشعاب» وهو شعارها أيام ازدهارها وعزها.

في العام ٢٠٠ ق.م اقتحم السلاجقة (Seleocids) الشاطئ الفينيقي وطردوا البطالسة من جميع مدنه حتى نهاية حكمهم في العام ٦٥ ق.م.

أما بيروت فقد قاومت الجيش المعتدي، ولكنه تمكن من التغلب عليها ودكها أرضاً. ولم يمض أكثر من عشرين سنة حتى نهضت بيروت من تحت الأنقاض، وتدريجياً عادت إلى نشاطها التجاري. يستدل على ذلك من قطعة معدنية تحمل تاريخ ١٢٨ ق.م. ويبدو أن هذه القطعة كانت لوزن المبيعات والمشتريات، وقد حفر عليها كلمة «Nikon» الذي هو أغورانوموس (Agoranomos) أي المسؤول عن السوق التجارية ومراقبة الأسعار لحماية المستهلك، فتعيين رجل لهذه المهمة يدل على النشاط التجاري للمدينة. **وقد وجدت نقود صُكت في بيروت بين الأعوام ١٧٦ ـ ١٤ ق.م. منها ما كان يحمل شعار إله البحر «Poseidon» ومنها شعارات أخرى تدل على أن بيروت كانت تتمتع بمركز تجاري مهم**

بالنسبة إلى جميع المدن الفينيقية.

بيروت تحت حكم الرومان

بعدما استولى بومبي (Pompey) في العام ٦٤ ق.م. على مملكة السلاجقة نيابة عن روما، قضى فترة الشتاء في دمشق لتسوية أوضاع سوريا، وقد انعكس هذا على بيروت بصورة إيجابية مما أهلها لأن تلعب دوراً، تحت حكم الرومان، لم تعرفه من قبل. وعندما اعتلى الأمبراطور أغوسطوس (Augustus) العرش الروماني جعل بيروت مستعمرة رومانية ورفعها إلى أعلى المراتب بين المدن السورية، وبعدما زوج ابنته جوليا إلى فاسباسيانوس أغريبا (Vaspasianos Agrippa) عينه حاكماً على مدينة بيروت. وكان من نتيجة هذا الزواج أن أطلق على بيروت اسم: كولونيا أوغوستاجوليا فليكس (Colonia Augusta Julia Felix) وصكت النقود بهذا الاسم. وقد اهتم (Agrippa) بمدينة بيروت ورفعها إلى أعلى المراتب بحيث احتلت مركز الصدارة بالنسبة إلى جميع المدن في الأمبراطورية الرومانية. وأصبحت مركزاً تجارياً مهماً وبخاصة كمركز ومرفأ لأسطول سوريا البحري، وقد شمل نفوذها جميع المدن المحيطة بها والقريبة منها وامتد حتى البقاع وبقي كذلك حتى أوائل القرن العشرين. في هذه الفترة بنيت القصور الفخمة وزينت المدينة بعواميد «الغرانيت» (Granite) التي كان مصدرها مصر.

مدرسة الحقوق العليا

أسس الرومان في بيروت مدرسة الحقوق العليا ما لبثت أن أصبحت الأولى في الأمبراطورية الرومانية إذا ما قورنت بمثيلاتها في الإسكندرية وروما والقسطنطينية. واستقطبت طلاباً من جميع أنحاء الأمبراطورية. وقد ازدهرت مدرسة الحقوق بوجه خاص في عهد الامبراطور (Alexander Severus) وإلى جانب الحقوق وفرت بيروت الفرصة لكثير من الرجال الذين برزت أسماؤهم في مجالات أخرى، نذكر منهم العالم النحوي الشهير (Valerius Probus) الذي عاش في زمن نيـرون، وكذلك المشترع الكبير (Ulpian) الذي أصبح مستشاراً قانونياً للامبراطور ألكسندر سيفيروس (Alexander Severos) «واولبيان» هو من مواليد صور وتلقى علومه في مدرسة الحقوق في بيروت.

وفي التاريخ أن فسباسيان أغريبا خلال حملته على اليهود في العام ٦٩ الميلادي نودي له، من قبل جنوده أمبراطوراً وفي طريق عودته إلى روما توقف في بيروت فاستقبل بحفاوة كبيرة.

وجاءت وفود من سوريا ومن مقاطعات أخرى تحمل إليه تيجانها وتقر له بسلطته المطلقة. وأكد له حاكم سوريا، موسيانوس (Mucianus) ابتهاج أهالي المنطقة بكاملها حين علموا بترقيته لرتبة أمبراطور. وقد خلف فسباسيان ولده تيتوس (Titus) الذي رقي إلى رتبة أمبراطور فقام بجولة تفقدية في جميع أنحاء البلاد، وكان يقابل بالترحاب من قبل الاهالي تعبيراً عن فرحهم لترقيته لرتبة أمبراطور. ولما وصل إلى بيروت مدد إقامته فيها بضعة أيام، وخلال هذه المدة صادف عيد ميلاد والده، فاحتفل بهذه المناسبة وأقام الزينات والمهرجانات بشكل لم تألفه بيروت من قبل. وقد نفذ تيتوس ما عهد إليه والده بالنسبة إلى الأسرى اليهود، حيث جمعهم في الملعب الكبير وأفلت عليهم الوحوش الكاسرة التي مزقتهم إرباً.

خليج مار جريس

وفي الأسطورة أن وحشاً مفترساً ـ يسمى «التنين» أيضاً ـ كان يظهر على شاطئ بيروت يهدد الأهالي بالدمار والخراب إن لم يقدموا له فتاة عذراء تكون فداء لهم ولأملاكهم. وكانوا يذعنون له خوفاً منه واتقاء لشره، ويرمون بين يديه كل سنة فتاة عذراء.

وفي إحدى السنين وقعت القرعة على ابنة الحاكم لتكون الفداء. فأخذت الفتاة تصلي وتطلب من اللـه أن ينقذ حياتها. وفي اللحظة التي ظهر فيها الوحش تصدى له فارس شجاع وطعنه بالرمح طعنة نجلاء قضت عليه وأنقذت الفتاة. على أثر ذلك بنى الحاكم، والد الفتاة كنيسة عرفت باسم مار جريس إذ اعتبر الاهالي أن الذي تصدى للوحش هو القديس جاورجيوس، وكان الاهالي من مسيحيين ومسلمين في العصور الوسطى يحجون إلى هذه الكنيسة. وقد أطلق على المكان اسم «خليج مار جريس». ولكن الكنيسة تهدمت اثر الزلزال الكبير في العام ٥٥١.

تعرضت بيروت لعدة هزات أرضية أولاها كانت في العام ٣٤٩ حيث هدم قسم من المدينة. وقد خاف الأهالي كثيراً خصوصاً أولئك الذين كانوا لا يزالون يعبدون الأوثان. بعدها أصبحت بيروت في أكثريتها مسيحية. وتعرضت بيروت كذلك لهزتين في عامي ٤٩٤ و٥٠٢ ولكنهما لم تحدثا دماراً كبيراً. **ولكن الهزة الأرضية الكبرى التي ضربت بيروت في العام ٥٥١ كانت القاضية. تلك الهزة لحقت بالمنطقة بكاملها وكانت في بيروت على أشدها. وفي التفاصيل: تراجعت أمواج الشاطئ إلى داخل البحر مسافة ١٧٠٠ متر ثم ارتدت إلى اليابسة بقوة هائلة فجرفت المباني والأشجار وجميع الزوارق في المرفأ، وقضت على الألوف من الأهلين. ولم ينج سوى القليل من الذين تمكنوا من الهرب إلى صيدا وبينهم بعض الأساتذة.**

وما كانت بيروت تنهض وتبنى من جديد حتى تعرضت إلى حريق هائل دفنها تحت أنقاضه. وقد قضى على مدرسة الحقوق نهائياً وتقلص عدد سكان بيروت، وأصبحت لمدة طويلة من دون شأن إطلاقاً.

وقد تخيل الشاعر اليوناني يوانس باربوكالوس - وهو من معاصري هذه الكارثة - بيروت تنتحب، فقال:

«هاأنذا..المدينة الناعسة..أرقد في الخراب
أبنائي صاروا أمواتاً، واحسرتا!
إله النار قضى علي بعد الهزة التي أحدثها
إله البحر بوسيدون.
يا لتعاستي..لقد صرت رماداً بعد أن كنت مثالاً للأناقة والجمال.
اندبوا حظي، واسكبوا دمعة حرّى تكريماً
لبيروت التي امحّت.
أين «أفروديت» حامية المدينة لتلقي نظرة
على الأموات الذين لا غطاء لهم.
بعد الأبهة والعظمة أصبحت مقبرة لرجال
لا قبور لهم.
ونحن الألوف من أهالي بيروت صرنا رماداً نغطيهم
انقشوا - أيها الأحياء - علي حجر كبير
هنا ترقد بيروت المدينة المأسوف عليها
والمدفونة فوق الأرض».

بيروت في عصر الإسلام

بعد انتشار الدعوة الإسلامية في سوريا في أوائل القرن السابع لم تكن بيروت مدينة كبيرة. كانت تلملم أشلاءها بعد الهزة التي أصابتها في العام ٥٥١.

وفي التاريخ، كما يخبرنا صالح بن يحيى في مخطوطة عربية تتناول تاريخ بيروت في القرون الوسطى أن أمراء إقطاعيين تناوبوا على حكم بيروت وكان مركزهم في عرمون.

وبعدما فتح المسلمون دمشق في العام ٦٣٥ عين يزيد حاكماً على سوريا، وخضعت له المنطقة بكاملها بما فيها

بيروت. وبدأ المسلمون يحلون محل المسيحيين تدريجياً حتى أصبحت بأكثريتها مسلمة، وكانت تدفع الضريبة للخليفة في دمشق.

الإمام الأوزاعي

ومن الشخصيات المهمة التي يذكرها صالح بن يحيي الإمام عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، وهو من مواليد بعلبك في العام ٧٠٢. وكان يعتبر من أبرز العلماء، خصوصاً في الفقه والشرع الإسلامي والحديث الشريف، وبقي مرجعاً للمسلمين مدة مائتي سنة. وكان العرب في إسبانيا يعتبرونه مرجعاً لحل مشاكلهم. وكان يتمتع بسلطة أقوى من سلطة الخليفة. وبعد وفاته في العام ٧٧٤ دفن في محلة الأوزاعي قرب بئر حسن، وأصبح قبره مزاراً يؤمه المؤمنون.

بيروت مرفأ دمشق

كانت بيروت أيام الخلفاء الراشدين مرفأ لدمشق، وبقيت كذلك حتى الثلث الأول من القرن العشرين.

وفي التاريخ أن الخليفة الوليد الأول الذي تولى الحكم عام ٧٠٥ نظم أشعاراً يمدح فيها بيروت، وأنه أنشأ أسطولاً في بيروت كان يغزو به قبرص وجزر الأرخبيل اليوناني.

وفي التاريخ أيضاً أن «الحاكم بأمر اللـه»، السلطان الفاطمي بعد اعتلائه العرش في مصر أسس الطائفة الدرزية. وحين مجيئه إلى لبنان خضعت المنطقة لسلطانه الذي امتد من العام ٩٠٩ إلى ١١٧٢ وكانت بيروت ضمن هذه المنطقة.

في عهد الصليبيين

استولى الصليبيون على بيروت في العام ١١١٠ بعد مقاومة ضارية استبسل فيها الشعب وقتل منه عدد كبير وأسر آخرون.

في التفاصيل: حسب ما ذكره المؤرخ «وليم الصوري»، اتفق بالدوين (Baldwin) ملك القدس مع أمير طرابلس على محاصرة بيروت براً وبحراً إلى أن تستسلم، وقاومت المحاصرين بعناد وعزم لم يسبق لهما مثيل.

وقد تمكن بعض جنود العدو من أن يقفزوا من أعلى السور إلى الداخل حيث فتحوا أحد الأبواب فدخل الغزاة المدينة، ما أدى إلى ارتباك في صفوف المحاصرين وهربوا باتجاه البحر، لكن العدو كان قد توقع هذا فواجه الهاربين بقوة كبيرة. ووجد الأهالي أنفسهم بين نارين. ودارت معركة كبيرة قتل فيها عدد كبير من الأهالي، وأسر آخرون.

بقيت بيروت بيد الصليبيين حتى العام ١١٨٧ وكانت تحصل معارك جانبية بينهم وبين بعض الزعماء الإقطاعيين نذكر منهم الإقطاعي بحتر (Buhtur) ومركزه عرمون، والذي سجل انتصاراً باهراً على أعدائه في «معركة الغدير» في العام ١١٥١.

صلاح الدين يواجه الصليبيين

وجاء البطل صلاح الدين الأيوبي الذي انتصر على الصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧ وكانت هذه بداية النهاية للغزو الصليبي. وعلى أثرها خضعت له فلسطين وجميع مدن الشاطئ ما عدا صور التي هاجمها ولكنها عصيت عليه.

أما صيدا فقد فتحت له أبوابها وبيروت رفضت الاستسلام ثمانية أيام. واتصل به الإفرنج وطلبوا الوقوف على شروطه.

وتم الاتفاق على أن يخرج الأجانب من بيروت، ويلجأوا إلى صور.

وبعدما خضعت بيروت له، أقام عليها حاكماً يتولى شؤونها، فيما توجه هو لملاقاة الحملة الصليبية الثالثة التي دارت رحاها حول عكا. وفي أثناء هذه المواجهة ترامى إليه أن الملك فريدريك بربباروسا قادم من الشمال على رأس جيش لجب من الألمان. وتحسباً منه لما قد تجره المواجهة مع هذا الجيش أمر بهدم الأسوار حول مدينتي صيدا وجبيل ونقل أهاليهما إلى بيروت. **إذ أنه كان يعتبر بيروت المدينة الأقوى والأهم بين مدن الشاطئ.** ولكن فريدريك بارباروسا لقي حتفه غرقاً وهو يعبر نهراً في قلقيلية، وتفرق جيشه قبل وصوله إلى عكا. ولم تر بيروت إلا فلول هذا الجيش الذي لم يستطع القيام بأي هجوم يذكر.

ولقد فرض صلاح الدين شخصيته على أعدائه وأبرم مواثيق معهم مع نده ركاردوس قلب الأسد. وكانوا يحترمونه كثيراً ويثقون بكلامه. وفي أواخر هذه الحروب التي دامت مائتي سنة زار صلاح الدين بيروت واستقبل فيها بوهومود (Bohomod) الثالث أمير أنطاكية وأبرم معه معاهدة صداقة، وكانت هذه آخر مرة تتشرف بيروت بزيارة صلاح الدين لها، فقد غادرها إلى دمشق حيث وافته المنية، اثر حمى انتابته لمدة اثني عشر يوماً، وكان له من العمر خمس وخمسون سنة، ولا يزال قبره قائماً بجوار الجامع الأموي قبلة للزائرين.

بعد وفاة صلاح الدين دبت الفوضى في الحكومة واسترجع الإفرنج بعض المواقع التي كان صلاح الدين انتزعها منهم، فاحتلوا صيدا وتقدموا نحو بيروت التي كانت بقيادة حاكم جبان اسمه «أسامة». فقد فرّ من المدينة وسلمها للأعداء قبل وصولهم إليها.

بعد هذه الواقعة حاصر الإفرنج تبنين الواقعة الى الجنوب الشرقي من صور. وقد اتصل أحد الظرفاء بقائد حامية تبنين وحضه على الاستسلام للإفرنج على نمط ما فعله أسامة في بيروت قائلاً له بسخرية: «سلم القصر..فهذا لن يثلم سمعتك..إن من يطلب السلم لا يلام عليه..استسلام الحصون من دون حرب أو خصام هي القاعدة التي سنها أسامة في بيروت».

وفي العام ١٣٠٣ اقتحم الإفرنج منطقة الدامور التي كان يحكمها أمير إقطاعي ، وتمكنوا من أسر أحد أبنائه بعدما قتلوا حراسه. وبعد مفاوضات تم الإفراج عن الابن مقابل فدية وقدرها ثلاثة آلاف دينار.

بيروت في عهد المماليك

وفي التاريخ: استولى المماليك على عرش مصر في العام ١٢٥٠ وتدريجياً بسطوا سلطتهم على سوريا بكاملها، لما اعتلى السلطان بيبرس العرش (١٢٦٠ - ١٢٧٧) استولى على أكثر مدن الشاطئ. أما خليفته قلاوون فقد استولى على طرابلس وهدمها، ولكنه أبرم معاهدة مع بيروت وجبيل تقضي بأن تعترفا بسلطته.

وفي العام ١٩٢١ اندلعت الثورة في عكا فحاصرها السلطان «الملك الأشرف» وقضى على أهلها ذبحاً، ما أدخل الرعب في جميع المدن الأخرى التي كانت متعاطفة مع ثورة عكا. وقد فرّ الأهالي من هذه المدن خوفاً على حياتهم.

أما بيروت فقد رأت أن تستسلم في أثناء حصار عكا آملة أن تنقذ شعبها، لكن السلطان الملك الأشرف - وبعدما كانت صور قد أخضعت له - أوفد ممثله سنجر لاستلام السلطة في بيروت، فخرج إلى استقباله حاكم بيروت على رأس مجموعة من الخيالة الذين قاموا باستعراضات فروسية تدل على مهارة فائقة. وعندما دخل سنجر القصر أمر بأن يؤتى بجميع الأهالي من رجال ونساء وأطفال. فاعتقد الأهالي أن هذا الإجراء انما هو للمحافظة عليهم من اعتداءات العسكر. وبعدما تجمعوا داخل القصر أمر بأن يلقى بالرجال في خندق الماء المحيط بالقصر، أما الشيوخ والعجائز والأطفال فقد أسروا وأرسلوا إلى دمشق ومنها أرسلوا مشاة إلى مصر حيث توفي عدد كبير منهم في الطريق.

وقد سمح لمن بقي على قيد الحياة بالرجوع إلى بيروت أو بالذهاب إلى قبرص. وقد أمر سنجر بهدم التحصينات خوفاً من أن يحاول الإفرنج العودة وتثبيت أقدامهم ثانية على الشاطئ.

هذا الخوف لم يكن في غير محله، ففي العام ١٢٩٩ جهّز الإفرنج حملة مؤلفة من ثلاثين مركباً بحيث كان المركب

الواحد يحمل ٧٠٠ مقاتل وما كادوا يصلون إلى الشاطئ حتى هبت عاصفة بحرية عاتية قلبت مراكبهم رأساً على عقب، فاضطروا إلى الانكفاء عن مغامرتهم تلك.

مرفأ بيروت

في العام ١٠٤٧ مرّ في بيروت سائح فارسي اسمه أبو معين ناصرين خصرو، وقد وصف قوساً كبيراً قائماً على مدخل المدينة الشمالي يرتفع حوالى ٢٥ - ٣٠ متراً مبنياً على حجارة بيضاء كبيرة جداً، وزن الواحد منها حوالى طن ونصف الطن. وعلى قرني القوس عمودان من الحجارة لا يقل طول العمود الواحد عن أربعة أو خمسة أمتار بقطر ثلاثة أقدام ويزيد. وإذا أريد تطويق العمود الواحد فذلك يستلزم رجلين يمدان ذراعيهما إلى أقصى حد كي يحيطا بالعمود. ويقدر وزن الحجر الواحد من هذا القوس بعشرة أطنان. وجميع الحجارة منحوتة بشكل رائع. ولعل هذه الحجارة أخذت من المباني الفخمة التي جاء بها الامبراطور «هاروداغربّا» لبناء مسرح أبو حمّام.

وكان مرفأ بيروت محصناً جداً إبان وجود الصليبين، وذلك استناداً إلى ما ذكره يوانس فوكاس في العام ١١٨٥ قبيل أن استولى عليها صلاح الدين. فهو يصف المرفأ بقوله: إنه مبني على شكل هلال ويقوم على كل قرن منه برج عال، والمرفأ مجهز بسلسلة من حديد تربط قرني الهلال وتحمي مدخله وقد أهمل هذا المرفأ بعد جلاء الصليبيين عن بيروت.

وفي العام ١٤٢١ زار بيروت جون بولونر فوصف مرفأها بأنه مقيت وبحالة يرثى لها. ولعل هذا ناجم عن سياسة المماليك التي أبقت بيروت غير محصنة خوفاً من أن يستولي عليها الإفرنج ويجعلوها حصناً ومنطلقاً لغزو مدن الشاطئ.

لكن، في العام ١٤٣٢ زار بيروت برترودون دو لابراكيير ووصف مرفأها بأنه جميل ومياهه عميقة وتؤمن الحماية للمراكب التي ترسو فيه.

ويصف هذا الزائر مهرجاناً أقامه أهالي بيروت بمناسبة أحد الأعياد، فيقول كان الأهالي يغنون ويهتفون بأعلى أصواتهم، وكانت المدافع تطلق من القصر. وكانت الأسهم النارية ترتفع الى علو شاهق. ولها قوة الإنارة التي تفوق أكبر القناديل. وقيل له إن هذه الأسهم النارية تلقى باتجاه مراكب الاعداء فتحول دون نزولهم الشاطئ. وقد حاول التعرف على المواد التي تركب منها الأسهم النارية، لكنه لم يوفق.

وفي الأسطورة: نقرأ في كتاب **دليل السائح في العام ١٣٥٠** عن بيروت ما يأتي: «مدينة غنية جداً وهي مشهورة كونها تحتوي على أيقونة أو بالأحرى صورة للمسيح يقول عنها فتيللوس أنها من رسم نيكوديموس. وقد أحدث فيها ثقباً تفجر منه الدم والماء. وإن نقطة من هذا الدم تشفي المرضى.

ويقول جون بولونير إن هذه الصورة كانت في غرفة تحت الأرض ثم نقلت إلى روما.

وكثيراً ما كان الحجاج إلى الأرض المقدسة يزورون بيروت باعتبارها مركزاً تجارياً، فضلاً عن أنها محطة يمكن الانطلاق منها إلى مختلف موانئ البحر المتوسط.

وفي التاريخ: بعدما استولى «القبارصة» على الإسكندرية في العام ١٣٦٥ أمر سلطان مصر ببناء أسطول في بيروت بهدف اجتياح الجزيرة. وقامت ورشة عمل كبيرة في بيروت، ولكنها أوقفت بناء على أوامر السلطان الجديد الذي قدّر أن شعبه لن يكون ندا للإفرنج في البحار.

وفي العام ١٣٨١ هاجم أسطول من جنوى مدينة صيدا ونهبها. وعلى الفور أرسلت بيروت إشارة إلى دمشق تعلمها بهذا الاعتداء، فجهزت دمشق فرقة من الخيالة لدعم صمود بيروت. وكان هذا الإجراء في محله إذ ظهر أسطول العدو قبالة الشاطئ. ولكنه ما لبث أن ابتعد عنه بعد اكتشافه أن المدينة محصنة جيداً، ويبدو أن هذا الابتعاد كان للتمويه والخدعة فقط. فهو بعد تأكده من أن بعثة الدعم من دمشق قد غادرت بيروت، عاد وانقض عليها ودارت معركة هائلة بين «حامية» بيروت الصغيرة والجيش المعتدي الذي كان يمطر الحامية بالحجارة الثقيلة والرماح الخفيفة والسهام الريشة

مما اضطر المدافعين إلى الاختباء وراء الحيطان، فتمكن العدو من النزول من مراكبه واقتحم المدينة. لكن المسلمين تنادوا إلى الجهاد والصمود وجابهوا العدو بعزم وقوة، وأجبروه على الانكفاء إلى مراكبه، بعدما فقد عدداً كبيراً من رجاله.

وكان في طليعة المجاهدين والد صالح بن يحيى ـ وهو كما أسلفنا الذي أرّخ بيروت في العصور الوسطى ـ ولا بد أن والده أطلعه على تفاصيل هذه المعركة. اما فرقة الخيالة التي أوفدتها دمشق فقد وصلت في مساء اليوم التالي، ولكنها لم تشترك في المعركة التي حسمت لصالح المسلمين.

ومما يجدر ذكره أن وسائل الاتصال بين بيروت ودمشق كانت تتم إما عن طريق إشعال النار على قمم الجبال أو بواسطة الحمام الزاجل المدرب على الطيران البعيد المدى حاملاً الرسالة بعنقه.

الإفرنج يفضلون الاستقرار والتجارة

بعد هذه المعارك الضارية، رأى الإفرنج أن من مصلحتهم الاستقرار والمتاجرة مع أهل البلاد. وهكذا وصل مركب قبرصي يحمل بضائع من البندقية لاقت رواجاً كبيراً في بيروت مما أدى إلى نشاط تجاري، وهذا شجع تجار قبرص والبندقية على الاستيطان في بيروت. وما لبثوا أن أسسوا محلات تجارية، وكذلك بنوا الكنائس لممارسة شعائرهم الدينية.

وقد أدى ازدهار التجارة إلى إنشاء «مصلحة جمارك» كان الفائض من عائداتها يرسل إلى دمشق. وهكذا نهضت بيروت وعلا شأنها، وأقيمت التحصينات حولها.

وفي التاريخ: كانت بيروت تحت حكم المماليك الذين حكموا مصر وبقيت كذلك إلى أن اعتلى العرش العثماني السلطان سليم الأول فطرد المماليك واستولى على مصر، وأصبحت سوريا إحدى ولايات الامبراطورية العثمانية. وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية الأولى وكانت بيروت منفذها إلى البحر.

وفي التاريخ: واستناداً لما دونه هنري موندريل وهو سائح أوروبي زار بيروت في العام ١٦٩٧ إبان عيد الفصح، وقد أشاد بما رآه من عمران، وأعجب بنوع خاص بالينابيع الموزعة في جميع انحاء المدينة والتي تجر إليها المياه المتدفقة من التلال المجاورة.

ويصف هذا السائح قصر الأمير فخر الدين أمير الدروز الذي نشر سلطته على البلاد من بيروت إلى عكا وجعل مركزه في بيروت، لكن السلطان العثماني مراد ـ لعله مراد الرابع ـ اجبره على الانكفاء إلى الجبل.

يقول هذا السائح في وصف القصر: كان موقعه في الشمال الشرقي من المدينة. حين تدخله ترى الماء يتدفق من فوهات رخامية جميلة جداً. وفي القصر قاعات عديدة، بعضها كان متداعياً او ربما لم يكتمل بناؤه. وكان هنالك اسطبلان، ومرامح للخيول، وعُرُن للاسود، وللحيوانات الأخرى المفترسة. ويمكن القول إن هذا القصر، وبما يحيط به لم يكن ليقل عظمة عن أي قصر من قصور أمراء المسيحية في العصور الوسطى.

ويصف هذا السائح بستان البرتقال القريب من القصر بقوله: إنه قطعة كبيرة من الأرض مربعة الشكل ومقسمة الى ست عشرة قطعة مربعة، وكل قطعة مقسمة الى قطع صغيرة كل أربع منها في صف واحد، وجميع هذه المربعات محاطة بحجارة حفر في وسطها قناة لتوزيع المياه. وفي هذه المربعات تنمو اشجار البرتقال التي تتدلى منها «الفاكهة الذهبية». حقاً إنه لمنظر رائع لسائح أوروبي عادي.

ويضيف قائلاً إن ما شاهده في هذا القصر ومحيطه كان على الأرجح نسخة طبق الأصل عما شاهده الأمير فخر الدين في إيطاليا، وأراد نقله الى بلاده. ويبدو أنه كان ينوي إقامة التماثيل على مدخل القصر بدلالة انه بنى القواعد لتلك التماثيل. وفي هذا دلالة على انفتاح فخرالدين وعدم تعصبه بالنسبة الى إقامة التماثيل، والتي ليس لها شبيه في تركيا.

ويأتي موندريل على ذكر كنيسة قديمة كانت مكرّسة للقديس يوحنا، ولكنها حوّلت إلى مسجد. وقد شاهد كنيسة صغيرة كانت لا تزال بيد اليونانيين. وهي تحوي كثيراً من الصور والأيقونات، بينها واحدة تحمل اسم كوارتوس

(Quartus) أول رئيس أساقفة لبيروت. وهنالك صورة لقديس له لحية كبيرة متدلية حتى قدميه تليق بمركزه المحترم. وكان يتوق ويتحرق للحصول على هكذا لحية. وذات يوم جاءه الشيطان وهو عارف مدى كآبته فحاول إغراءه ووعده بأن ينيله مبتغاه إذا وافق على اقتراحات تقدم بها الشيطان، لكن القديس أبى هذا العرض، وفضل أن يبقى مدى حياته من دون لحية على أن تكون له بشروط مذلة لن يقبلها عقله.

ويذكر موندريل أنه شاهد في الجهة الشرقية من بيروت سبعة أو ثمانية أعمدة جميلة من «الغرانيت» قطر العمود حوالى ثلاثة أقدام، وقد حفر عليها كلمات باللغتين اليونانية واللاتينية (يوجد في حرم الجامعة الاميركية ثلاثة من هذه الأعمدة).

بيروت في القرن الثامن عشر

تقلصت بيروت في مطلع القرن الثامن عشر إلى مدينة صغيرة، متأخرة، عدد سكانها خمسة آلاف، بيوتها مبنية من الحجر الرملي والطين. شوارعها ضيقة. مرفأها طافح بالرمال.

ثورة محمد علي باشا

بعد قيام ثورة محمد علي باشا في مصر في العام ١٨٣٢ ضد تركيا أصبحت سوريا تحت حكمه وضمناً بيروت. وبقيت كذلك حتى العام ١٨٤١ حيث تحالفت تركيا مع بريطانيا. وقد حاصرت بريطانيا بيروت من أوائل أيلول حتى العاشر من شهر تشرين الأول ١٨٤١ وأمطرتها بالقنابل التي أحدثت أضراراً كبيرة في المباني فضلاً عن هدمها قصر الأمير فخر الدين.

بعد هذه الواقعة أخذت بيروت تلملم أشلاءها وعادت إلى نشاطها السابق. واستعادت مركزها التجاري الذي كان لها، وأصبحت المرفأ الرئيسي لسوريا، فضلاً عن المركز العلمي الجامعي. ويذكر أن «الكلية السورية الإنجيلية» (الجامعة الاميركية حالياً) اسست في العام ١٨٦٦ في بيروت.

المدينة ذات السّاحتين (*)

جاد تابت (**)

بالإمكان قراءة مدينة بوصفها تجميعاً لعدة عوالم، تتمفصل حول أنساق مبنية ونطاقات مفتوحة. ومن شأن هذه الاماكن المتنوّعة: شوارع وساحات وأحياء، أن تؤلف شذرات من واقع ما، كما من شأنها أن تعبّر عن صور مختلفة تدفعنا إلى معايشة أزمنة أخرى ـ أو عوالم أخرى ـ ماضياً أو مستقبلاً.

ومن شأن هذه الصور أن تمتلك، إلى هذا الحدّ أو ذاك، طاقة تحفيز واستقراء، وبفرادتها تسم الحيّز المديني وتفسحُ في المجال، وفق وتائر خاصة، امام ضبط الابعاد المتعدّدة للمدينة. وبعض هذه المدن، إذ تقف عند تقاطع عوالم مختلفة وحيث تتراكم أزمنة عمرانية مختلفة، من شأنه أن يكون الأمكنة الأكثر دلالة:

اي تلك التي نشير إليها بوصفها المثال الشامل للمدينة وحيث يبين عصر كامل ويتجسد.

هكذا تكون جادة فؤاد الاول، حرفياً، هي إسكندرية داريل، وساحة المدينة القديمة هي براغ كافكا، ونهج نيفسكي هي سان بطرسبرغ غوغول ودوستويفسكي. وما عاد ممكناً الانحدار من جادة بونوفيل إلى باب سان دوني، أو التجوال على غير هُدى في معابر حي الاوبرا، دون أن تقفز إلى مخيلتنا باريس السريالية، باريس بروتون وأراغون.

ومن خلال سحر الإيحاء في الاسماء، ولكن أيضاً عبر ما يظهره الجانب المرئي من الاشياء، مجسّم واجهات البناء أو ثبات النُصُب، ترتسمُ تجربة معمارية وثيقة الصلة بالسينما لقدرتها على بعث التواريخ الخاصة بالأمكنة عبر الأشياء.

ثمة ساحتان في بيروت: ساحة الشهداء وساحة النجمة. ولا تبعد إحداهما عن الأخرى أكثر من مئتي متر، غير أنهما ينتميان إلى عالمين مختلفين من التعبير العمراني، ويظهر فيهما أسلوبان مختلفان من العيش.

إنهما تشكيلان مختلفان، وتنظيمان للحيّز يبدو انهما لم يتقاطعا على الإطلاق، وعالمان ينبض كل واحد منهما بوتيرته الخاصة.

أليست الصلات الغريبة التي تُنسجُ بين هذين المكانين هي التي ترسم مصير تلك الضيعة الصغيرة على الساحل السوري التي تلقت منذ قرن من الزمن صدمة الحداثة؟ أليس هذا ما سطر تاريخ بيروت الحديث، وأقام نسقاً من المركزية تتوالد منه ألف صورة وصورة لمدينة ضائعة بين عالمين؟

وأخيراً، ألم تندلع هناك المأساة النهائية التي ستدمر وسط المدينة وتؤدي، عبر التفتيت العمومي للحيّز المديني، إلى انفجار المجتمع بأكمله؟

ولادة ساحة مركزية

حتى منتصف القرن التاسع عشر، بقيت بيروت ضيعة ساحلية صغيرة تحميها أسوار وتحولها جنينات وبساتين التوت.

(*) كتبت في باريس في شباط ١٩٩٣، ونشرها «ملحق النهار»، ١٠/١٢/ ١٩٩٤، وقد ترجمها عن الفرنسية بسام حجار.

(**) مهندس معماري.

مدينة كثيفة، ذات شوارع ضيّقة ومتعرّجة، وحيث المنازل مُربّعة ذات سطوح مستوية تُشيّد حول فناءات داخلية. حيّز خلو من أي زَرْع أو بنيان يحدّها من الشرق، يعود اسمه إلى حصن صليبي قديم دمّر مرّات وأعيد بناؤه: البرج.

وسرعان ما تضيق المدينة بمساحتها داخل الأسوار: ذلك أن التغلغل الغربي الذي لا يُقاوم، والذي سيؤدي إلى إلحاق بلاد الشام بالنظام الرأسمالي، سيوطد نفسه عبر تكثيف التبادل لصالح أوروبا وتحويل مختلف النشاطات من الداخل العربي إلى الساحل.

فتصبح بيروت عندئذ مرفقاً إجبارياً، ومعبراً وحيداً بين البحر والجبل.

وبعد أن عسكرت قوات الحملة الفرنسية في البرج ونصبت مدافعها فيه عام ١٨٦٠، أصبح «ساحة المدافع» (ساحة الشهداء)، أي أصبح حيّزاً لا شكل محدوداً له غير أنه بدأ بالتشكل شيئاً فشيئاً: المرفأ، وهو على مقربة، تمّ توسيعه وتحديثه ليصبح الثغر الرئيسي للداخل السوري على البحر، عام ١٨٦٣ ويتم توسيع شارع دمشق الذي أنشئ فيه، كدليل على الاهمية المتزايدة لهذا المرفأ في الدور الجديد الذي ستلعبه المدينة.

ومن علامات الزمن الفارقة، سوف يتم تنظيم «**ساحة الشهداء**» عام ١٨٨٤: فيشيّد بناء على الطراز الكلاسيكي المحدث عند طرفها الشمالي، هو مبنى السرايا الصغير، مقرّ حكومة ولاية بيروت.

وأنشئت في امتداد منبسطها حديقة عامة «على النمط التركي» مع أحواض وأكشاك موسيقى، مهداة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وهكذا أصبحت ساحة المدافع ساحة الحميدية. وسف يتبدل اسمها مجدداً عام ١٩٠٨، خلال إعلان الدستور من قبل انصار «تركيا الفتاة» لتصبح ساحة الحرية والاتحاد، **إلى أن أصبحت عام ١٩١٩، «ساحة الشهداء» تخليداً لذكرى الوطنيين اللبنانيين / السوريين الذين أعدمتهم السلطات التركية في بداية الحرب العالمية الأولى.**

ذلك أن الميدان الذي يقع خارج أسوار المدينة العربية قد أصبح، في الأثناء، الساحة المركزية لبيروت. وأصبح ذلك المكان، منذ ذلك الحين، الوسط الرمزي للمدينة، حيث تتبدّى النزاعات على السلطة التي تنخر «الرجل المريض» عبر تاريخ أسماء المواقع الجغرافية (Toponymie): لقد ترافقت إذا نشأة ساحة المدافع مع نشأة بيروت الحديثة. فهي تشكل، على نحو ما، بؤرتها المؤسسة.

خلاء بين موقعين مأهولين، تحدّ هذا المركز الرمزي من الغرب حركة الأسواق التقليدية القديمة، ومن الشرق الأجواء المحمومة للأحياء الحارة، التي تمتد من خلفها، على تلة الاشرفية، المناطق السكنية الجديدة ببيوتها المنعزلة ذات القرميد الأحمر والتي تحيط بها الحدائق. فتكبر المدينة وتتسع رقعتها، وسرعان ما تلحق بها ضياع البسطة والباشورة وزقاق البلاط، وتزدهر حول جون ميناء الحصن وعلى طول شارع دمشق.

غير أن هذا النمو المشهود، لن يبدّل شيئاً من معالم «بيروت القديمة» حتى الحرب العالمية الأولى: فلن يطرأ تبدّل كبير على نواة المدينة العربية القديمة، وسوف تغزو المستجدات العمرانية تدريجاً المشهد المديني، فتحتل الأراضي الأكثر قابلية للعمران، سواء بسبب من طوبوغرافيتها أم لقربها من خطوط المواصلات.

ولن تعمد السلطات العثمانية إلى الشروع في تطبيق سياسة جذرية لتحديث وتجديد المدينة القديمة، إلا في عام ١٩١٥، استناداً إلى نصائح خبراء عمرانيين ألمان. فتم تدمير الأحياء القديمة، وتفكيك البنية المدينية. وحين نزلت القوات الإنكليزية والفرنسية على الشواطئ عام ١٩١٨، إثر هزيمة العثمانيين، لم تجد أمامها إلا وسطاً شبه مدمر، ونسيجاً مدينياً لا بنية له، ومدينة قد فقدت هويتها.

وسيحاول الانتداب الفرنسي، في أقل من عقد من الزمن، أن يكسب المدينة معالم جديدة، وأن يؤسس ـ عبر الخطط العمرانية التي سيعمل على تنفيذها ـ لبداية أزمنة حديثة.

الصعود الذي لا يقاوم لساحة استعمارية

من خلال الثغرات التي خلفتها السلطات العثمانية، ستجهد السياسة العمرانية للانتداب في سعيها لإقامة مشهد جديد، يحتكم، ليس فقط إلى مناطق الدمار، بل أيضاً إلى التأكيد الاستعراضي لقوة هذا الانتداب، واستلهام تقليد

فرنسي من «الإنشاءات الكبرى» و«التشكيل المتوازن» وفق معايير كلاسيكية القرن السابع عشر المرسوم بالهوسمانية (Hanssmanisme) وحسّ الفنون الجميلة.

وقد وضعت لهذا الغرض مخططات متعامدة جديدة، وشقت طرقات جديدة حملت أسماء المنتصرين: شارع اللنبي، شارع المارشال فوش، وشارع ويغان. أما ما تبقى من النسيج المديني القديم فقد ترك لعناية معاول الهدم، وقد استبدل بشبكة متشعبة تصب متفرعاتها عند ساحة جديدة، **ساحة النجمة**، وهي نسخة مصغرة عن الساحة الباريسية التي تحمل الاسم نفسه.

تظهر في هذه المشاريع العمرانية الموضوعات الرئيسية التي تميز العمران الكولونيالي، وفي طليعتها الرغبة في إعطاء دور هائل للمباني الحكومية ولأعمال التمدين. عمران المخططات الكبرى، والجادات المستقيمة والمصفوفات، ذلك أن من واجب فرنسا أن تظهر للأهلين، كما للقوى الاستعمارية المنافسة، أنها هي وريثة الرومان والعرب والأتراك في هذه المنطقة من العالم.

ورمز هذا العصر الجديد الذي تُفتح آفاقه أمام دول المشرق، هو المعرض الدولي الذي أقيم عام ١٩٢١ في الأماكن التي وسمها العمران الاستعماري بسمته: الناحية الشمالية لشارع اللنبي والتي أصبحت شارع «المعرض»، كما تعمد الوكالات والمصارف الأجنبية وشركات النقل البحري إلى افتتاح فروع لها في الحي الجديد. إذ أصبح لزاماً على بيروت أن تظهر بمظهر واجهة النمو على الطريقة الغربية.

إن هذا المشهد الجديد الذي أقيم في ساحة النجمة، وفي الأحياء التي أعيد تنظيمها في محيطها، يبدو قبل أي شيء آخر، مشهد تصوّر ما. فما يتم تشييده تدريجاً هو صورة المدينة التي تتباهى باتصال واجهات مبانيها، وحيث يغلب تتابع منافذها. هكذا تجمع المباني الجديدة المشيدة في الحي الذي أعيد تنظيمه، النماذج النيوكلاسيكية إياها للمباني الحكومية إلى الإيحاءات الأكثر كوسموبوليتية لمدينة مشرقية بكل مراجعها المعمارية، الإيطالية المنحى غالباً، والزخرفة الباروكية، وميلها الصريح إلى الاقتباس والمحاكاة: تناغمات عمودية هائلة من الحجر الامغر، قناطر متكررة، وأروقة تجوّف بحثاً عن الظل، تتخللها المشربيات القوسية والدربزين المنقوش، واجهات مبان يجري الشغل عليها، وتصبح اشد تعقيداً، في انعكاس ظاهر لسعر الأرض الذي يرتفع تدريجاً. **هكذا، ومن خلال هذا المشهد المعماري الذي يُشيّد خلال العشرينات، تتبدّى صورة مدينة أريد لها أن تكون حديثة، إذاً، منظمة.**

ولكن، إذا كان من شأن كل حيّز عمراني منظور أن يرمز بحدّ ذاته إلى مظهر من مظاهر المدينة أو إلى حقبة متعينة من نموّها، فإن الطبيعة الدفينة لهذا الحيز غالباً ما تتبدى من خلال شيء مخصوص، من خلال غرار فريد يبدو وكأنه يلخص جوهر خطابه. كما لو أنه يحتاج إلى وسيط من شأنه أن يسلط الضوء على ما يظل غامضاً من دونه.

هكذا يبدو أن تشكيل ساحة النجمة يتمحور حول مبنى البرلمان، وهو عمارة على الطراز النيوكلاسيكي، ذي جدران شاهقة صماء، والذي يحدّد بتصدره نطاق الساحة. فإذا كانت كتلته الهائلة ذات الخطوط المتوازية بدقة تبدو منفصلة عن صف المباني الذي يحيط به، فلكي تزال كافة الالتباسات، وإظهار ما قد شهدناه بما لا يرقى إليه شك: إن هذا الحيّز هو أولاً حيّز لسلطة سياسية جديدة.

ذلك أن قيام الدولة اللبنانية وتبني نظام برلماني «على الطريقة الغربية» ليشيران إلى قطيعة جذرية مع الماضي: لقد جُرّدت المدينة القديمة من كافة وظائفها الرمزية، وأصبحت ساحة النجمة من الآن فصاعداً هي التي ستجسد الأزمنة الجديدة.

لقد اتخذ العمران الانتدابي إذاً موقفاً ملتبساً حيال المركز القديم للمدينة، أي ساحة الشهداء، وبالطبع فقد استبدل تنظيم الحديقة «على الطراز التركي» بتنظيم أكثر «حداثة» يلحظ أحواضاً وبقعاً مشجرة على غرار النمط الفرنسي للحدائق. غير أن شيئاً لم يتبدل لا في محجامية الساحة ولا في واجهاتها أو النسيج المديني الذي يحيط بها. وإذا عمد حاكم لبنان الكبير إلى اتخاذ السرايا الصغير مقراً له، فإن هذا المبنى سيفقد مكانته تدريجاً إلى أن يتم هدمه بُعيّد الاستقلال. فقد أصبح حيّز السلطة في موضع آخر.

والحقيقة، أنه على الرغم من التعدّيات ومقدار الدمار الذي لحق بها، فإن المدينة القديمة تحافظ على ستاراتها. وعلى

الرغم من الحصار فما زالت تقف على مشارف الساحات والجادات الجديدة التي شُقّت باسم السلطة والاصطفاف: إن مخطط ساحة النجمة لن يُنجز، لأن إنجازه كاملاً يتطلب هدم جامع وكنيستين. وستظل النجمة إذاً مبتورة من متفرّعين، وسيفسد موقع الكنيستين المتبقيتين، على نحو يثير السخرية، تناغم التشكيل المثالي. وهكذا سيتم الحفاظ على منطقة الأسواق القديمة، غرب ساحة الشهداء، كما لو أن المدينة القديمة المستقرّة حول ساحتها المركزية تقاوم مقاومة ضارية وغامضة وغير رسمية عمليةَ التحديث العمراني.

وإذ ذاك أصبحت الساحتان متخاصمتين، تتجاهل إحداهما الأخرى، وقد فصلت بينهما كتلة صماء لا منافذ فيها: حيزان خصمان، يتواجهان منذ نشأتهما، كما لو أن قدرهما أن يظلا على طرفي نقيض.

الحوار المستحيل بين الشقيقتين العدوتين

هكذا نرى أن عبر تطوّر الساحات التاريخية طرحَت مسألة الرمزية العمرانية. فالساحة قد تشيخ، وتفقد مكانتها وتُهملْ، أو قد يتم إحياؤها ويتعاظم دورها ويتسع نطاقها، وينشط دورها. وإذا أمكن لساحة تاريخية أن تبقى فريدة، فإن أقطاباً مستجدة قد تحل محل الأقطاب الجديدة، وتنتزع منها بعض وظائفها.

وعلى هذا النحو فإن التنافس الضاري بين ساحتي بيروت سيغلب على المشهد العمراني للمدينة حتى أواخر الخمسينات. هناك، بالطبع، أماكن أخرى ستنمو، وتصبح حاملة صور، وتكتسب نوعاً من الاستقلالية: محلة باب ادريس، رائدة النزعة المشرقية، بمكتباتها، ومحال الأسطوانات، ومصورّيها، ومحال الحلوى حين تلتقي نخبة أبناء المدينة، ثم محلة الزيتونة التي تعج بعلب الليل الباذخة والتي تبرز صورة مضاءة لبيروت - في - الليل قبلة السياح. غير أن هذه ليست سوى أدوار ثانوية تترجح حول الثنائي - النجم، والذي من خلاله ينتظم الحيّز العمراني (المديني) برمته.

وفيما تعتكف ساحة النجمة، متعالية، في وظائفها الرسمية الجديدة، تحاول ساحة الشهداء، على الرغم من كل شيء، أن تثبت موقعها كنطاق للمركزية العمرانية في مدينة تشهد، خلال ثلاثة عقود من الزمن، نمواً لا يني يتعاظم.

أليس فيها يتقاطع خطا الترامواي الذي يجوب العاصمة ويربط أحياءها المختلفة بالوسط؟

بالطبع، ليس في نطاق هذه الساحة أي مبنى رسمي، أو ديني من شأنه أن ينافس خطوات نظيرتها. ما من مصرف، أو مؤسسة ذات صيت يقيم له (أو لها) فرعاً في نطاقها، الامر الذي قد يكسبها هالة من علو الشأن والاحترام. كما أن واجهات المباني التي تحيط بها لا توحي، هي أيضاً، بالاتساق أو الجلال اللذين ينبغي أن يميزا أي ساحة مركزية لعاصمة في حميا ازدهارها.

غير أن الأسواق الشعبية القديمة موجودة فيها، وهي لم تفقد شيئاً من حركتها الناشطة، وكذلك الأمر بيوت الدعارة التي لها حيّها الخاص، بلافتاتها المضاءة.

وإذا كانت ساحة النجمة تبدو نطاقاً متمحوراً على تشكيل ناجز يتوجه مقرّ البرلمان، فإن المبنى المعلم في ساحة الشهداء هو عمارة قديمة مربعة، يعلوها سطح من القرميد الاحمر: قهوة الزجاج.

إنه حيّز لعبي بامتياز. وهو خصوصاً حيّز تواصل وتبادل، حيث تنمو «ثقافة الشفاعية» تلك، الخاصة بالحضارات المتوسطية، ثقافة مبنية على المساومات، و«الهاتف العربي» و«القيل والقال».

ألعاب طاولة وكلام حول ألواح الرخام المرصوفة على طول الواجهات المزججة أو في الصالات الخلفية، حيث يدخن الزبون النارجيلة ويلعب لعبة الزهر أو الورق. ألعاب الصباح، واستراحة ما بعد الظهر، ما بعد القيلولة، أو ألعاب المساء التي تمازج الليل. إن ساحة الشهداء تعج بمثل أماكن اللقاء هذه حيث تمحي الفروقات الاجتماعية وتنشب النزاعات، عبارة طقوس العيش المشترك والانقسام: مقاه تقليدية تجاوز عتبتها لتحتل الرصيف أحياناً، مقاصف شعبية وملاه ليلية حيث يحتفى بالشهوة الناضحة من صوت المطربات، أو من ثنيات أجساد الراقصات الشرقيات، ولكن أيضاً، بعد سنوات، موطن محال السندويشات المؤثثة بالمعدن والفورمايكا حيث يستمتع شبان يرتدون الجينز بموسيقى الجوكي بوكس الصاخبة.

بدءاً من الثلاثينات، راحت الحداثة تقرع أبواب هذا الحيّز، وبدّلت شيئاً من مظهره. وذلك مع ولادة السينما التي تجتذب

الجمهور، وراحت الصالات المعتمة تنمو عند أطراف الساحة مفرطة في إشهار علامات حضورها: وصارت صور نجوم السينما العملاقة تغطي واجهات المباني، ملصقات هائلة من الورق المقوّي المثبتة على هياكل ضخمة من الخشب، محاربون ذوو عضلات مفتولة يحملون كائنات هشة ذات شعور دقيقة وخفيفة، نساء فاتنات بشفاه لحيمة وصدور باذخة تدغدغ أحلام الفتيان. كل أسبوع يتبدل المشهد المعماري ويتحول بسحر هذه الصور الخرافية المعلقة على الجدران. وحين تمّ هدم السرايا الصغير عام ١٩٥١، شيدت في مكانه صالة سينما، صالة الريفولي الشهيرة، التي احتلت بمبناها الكبير واجهة الساحة.

لا استقرار ولا سكون ولا امتلاء إذاً في هذا الحيّز الذي يصعب تحديده أو الأحرى، يصعب أن يكون نهائي التشكيل. إذ يغزوه هياج حركة متواصلة، وسط صخب منبهات العربات وصراخ الباعة الجوالين وسائقي سيارات الأجرة، وازدحام آلاف الموظفين والعاملين، وأبناء المدينة، والمتنزهين المتسكعين الذين يجذبهم ما لا يدرون مما يجعل من مكان ما قلباً للمدينة. وحين ينسحب النهار وتخفت معه صيحات باعة الصحف وما سمي الأحذية وباعة اليانصيب، يخلو المكان لطائفة من أهل الظل، يسعون تحت الأنظار الحذرة كرجال مخفر الدرك الذي أقيم في الساحة: متسكعو الساعات المتأخرة، عمال المساء، ورواد حفلات السينما الليلية المتأخرة، ولكن أيضاً رواد البارات وبيوت الدعارة، ورواد المقاصف والقوادون والمهربون من كافة الأنواع، الذين يجدون في هذا الحيّز مكاناً لا يعرف النوم. فهل يعقل أن يتوقف قلب مدينة عن الخفقان؟

في المقابل، ترى ساحة النجمة بعين الاستهجان إلى هذا الحيّز الذي لا يعرف الراحة، بحركته الصاخبة، وألوانه الفاقعة، وسوقيته الاستفزازية التي تكاد أن تخدش حدود الاحتشام. ففي تمسكها بالقيم الراسخة التي تتقوّم بها صورتها المعروفة، تؤثر، ساحة النجمة، على صحبة منافستها المزعجة، صحبة «تليق» بها، كمثل شارع المصارف الجديد الذي راح ينمو عند واجهتها الغربية. وإذا كانت قد تمكنت من الحفاظ، بشق النفس، وحتى أواخر الخمسينات، على طابعها كساحة «رسمية» حيث مكاتب المحامين والكتاب العدول وأصحاب المهن الحرّة، فبفضل صراعها المستميت لحماية نفسها من أي تجاوز، ـ وذلك من طريق الحد، ما أمكن، من أي تبديل في أشكالها العمرانية: ألن تحافظ، إلى النهاية، على صفّ أشجار التين المشذبة بعناية والتي تحيط بوسطها المشيد؟ ألن تطالب حين نزعت منها ساعتها القديمة لاستحالة إصلاحها، بأن تستبدل بأي شيء مماثل لا نفع منه، حتى ولو كان البديل بضعة أعمدة رومانية معروضة في جوف حفرة؟

مكانان إذاً، يعبّران عن رؤيتين متعارضتين للمدينة، عن تصورين مختلفين للمركزية العمرانية. وإذا كانت ساحة النجمة لم تحظ إلا باسم واحد، في كافة اللغات، فإن ساحة الشهداء تأبى، في ما يعنيها، أن تقصر ذاتها على تسميتها الرسمية، وأن تتخلى عن الأسماء التي كانت لها سابقاً:

فهي إذاً ستبقى «ساحة المدافع» للناطقين باللغة الفرنسية، وقد تسمر «البرج» في الكلام الشعبي، وحتى أحياناً «البلد»، كأنها بذلك، وبسحر أصول الأسماء، تعبّر عما تطمح لأن تمثله في الواقع.

ذلك أن هذا هو جوهر الرهان في هذا الحيّز المتعدّد الوظائف الذي يؤكد ذاته في وقت معاً على أنه المكان المركزي في المدينة وبوابتها. إنه محطة المواصلات الرئيسية في بيروت، منه تنطلق وفيه تصب كافة خطوط الباصات وسيارات الاجرة، الدينية منها وما بين المدن وتلك التي تربط المناطق بالعاصمة. والريفيون الذين يفدون إلى الساحة للمرة الاولى سرعان ما يستغرقهم مناخ العاصمة: إذ يتكشف أمام أعينهم المذهولة عالم نابض وحيوي تنعكس فيه كافة أسربة الحياة المدينية.

فمن بين كافة الاماكن في المدينة القديمة، وحدها ساحة الشهداء استطاعت أن ترمز إلى غرار من المركزية التي، عوض أن تنمو وفق سيرورة مستقلة ومغلقة، بدت وكأنها محل الدربة المتعدّدة، واستراتيجيات الارتقاء الاجتماعي الذي يضمن، بوتائر متنوعة، اندماج الوافدين الجدد في المدينة: إنه حيز الاندماج الممكن لمكوّنات عدة، ومحلّ تمفصل معقد لممارسات مختلفة في كنف حيّز مشترك.

يوميات انفجار معلن

بدءاً من أواخر الخمسينات، أصبح غرار أو نمط مركزية الموقع هذا، الذي يبدو حتى هذا التاريخ ملائماً نسبياً لسياق

نمو المدينة، أصبح هذا النمط إذاً في موضع الشك. فبيروت التي تقع على خاصرة عالم عربي يسعى إلى الوحدة، آلت على نفسها أن تصبح مركزاً اقتصادياً ومالياً يليق بهذه السوق المشتركة الضخمة التي من شأنها أن تتخطى الحدود وتوحد شعوب المنطقة من «الخليج إلى المحيط». وكان تحقيق مثل هذا المشروع يقضي بالتخلي عن النمط العمراني السابق، ومعاودة بنية مجمل التكتل السكني البيروتي لجعل العاصمة حاضرة الستينات الكبرى.

وبيروت التي كانت، حتى ذلك التاريخ، تسعى لأن تكون الإسكندرية المشرقية، أصبحت تراودها فكرة أن تكون مونتي كارلو الشرق أوسطية، وستسعى لأن تلعب دوراً مماثلا لدور هونغ كونغ التي تقع على خاصرة العالم الصيني.

وسرعان ما تبدى أن وسط المدينة غير قابل على الإطلاق للاضطلاع بهذه الوظائف الجديدة. وعلى الرغم من الخطط التي وضعت لتجديد بعض أحيائه لكي يضفي عليها المظهر المراد لهذا الشأن، وعلى الرغم من التخطيط لإزالة المباني في غلغول والصيفي، لإنشاء تجمعات تكون أكثر مطابقة لوصفات «حداثة» تلك الحقبة، فإن هذه الخطط والمشاريع لم تتعد مرحلة الرسومات على الورق.

فالواقع أن نواة المدينة القديمة قد بدأ بالتفكك: المكاتب والمصارف والمتاجر الفخمة راحت تنتقل تدريجاً من وسط المدينة القديم **لتستقر في شارع الحمراء الجديد، بالقرب من الجامعة الأميركية التي شيّدت مبانيها الفخمة على طول دروب ريفية، حوّلت، بسرعة، إلى شوارع معبدّة.** ورائحة الثروة النفطية تخيم على هذه المنطقة. وسط مشهد عمراني غريب يجمع إلى «الحياة على الطريقة الاميركية» مزيجاً من الارتجال ولفت النظر المشرقي، فيما ارتفعت فيها أسعار الأراضي حتى صارت توازي أبهظها عالمياً.

وكذلك الأمر راحت بعض المراكز التجارية الصغيرة تفتتح في «بدارو» و«الروشة» أو على طول شارع «فردان»، مستقطبة الزبائن الذين يبحثون عن المحال التي تعرض كل ما هو جديد. وهكذا تحوّلت صالات السينما والمقاهي في «ساحة الشهداء» تدريجاً إلى أماكن ترتادها «البروليتاريا»، بعد أن هجرها جمهور الطبقات الميسورة الذي ما عاد يرى فيها سمة «الحداثة» التي جذبته من قبل، كما أصبحت ساحة النجمة تبدو أشبه بسيدة عجوز مُفلسة لم تحتفظ من ماضيها المجيد إلا بحليها العتيقة.

ومع ذلك سرعان ما ستظهر حدود هذا النمو العمراني الذي يرى أن الجوهر هو المظهر والاستعراض الباذخ: إن حرب الأيام الستة، الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، وبروز الرهانات الجديدة المرتبطة بحلول عصر النفط، سوف تحدث انقلاباً في مجمل المعطيات الإقليمية وتقوّض مرتكزات الحلم البيروتي.

فحيث أراد تكنوقراطيو الستينات أن يشيّدوا حاضرة حديثة، لم تر النور سوى مدينة عالمثالثية بكل ما تحتضنه من مشكلات وتناقضات ونزاعات وعنف. وتحوّل لبنان إلى مجتمع مديني شديد الكثافة بحيث إن نسبة المقيمين في المناطق البيروتية بلغت تقريباً نسبة واحد من كل اثنين، ومقابل رخاء الاحياء الجديدة التي تستعرض فخامتها وثروتها، تشكل حزام بؤس يطوّق المدينة: ضواح من الاكواخ وبيوت الصفيح، وحركة إعمار فوضوية تتغلغل بين فراغات وفرجات النسيج الإنشائي، حيث تتوالد المباني أسفل الوهاد وعلى منطقة الرمال التي تحيط بالمطار.

ذلك أن انهيار المركزية القديمة لا يوّلد نمطاً جديداً من المركزية. وهكذا يجبه النمط العمراني في بيروت بأزمة، وسوف يتصدّع هذا النمط مع تفاقم النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وبروز المقاومة الفلسطينية المسلحة على الساحة اللبنانية اللذين سيكشفان مواطن ضعف النظام، ويظهران مدى قابليته للتصدّع. وعندما اندلعت الحرب، فاصلة المدينة عن وسطها، كان ذلك إيذاناً ببدء عملية تفتيت شاملة وجذرية للحيّز: وعندئذ، انفجرت بيروت، وانقسمت وتبعثرت إلى عدد لا يُحصى من مناطق النفوذ المعزولة. وراحت الميليشيات تقتطع منها بالعنف مناطق نفوذها الطائفية التي تنغلق على ذاتها تدريجاً، وتسوّر نفسها بحدود فاصلة، وتولي ظهرها «الطرف الآخر» الذي أصبح مصدراً للخطر والعدوان..

وسط هذا المشهد الجديد القائم، يبدو أن وسط المدينة القديم، نواة بيروت ما قبل الحرب، قد تحوّل، على مرّ الأعوام، إلى مكان فارغ، إلى ثقب أسود يتلاشى تدريجاً من ذاكرة ساكنيها. ومع ذلك، فما إن تصمت المدافع حتى يتضح، وهنا المفارقة، أن الانطلاقة الجديدة ينبغي أن تكون من هناك: على هذا الأساس الذي ينهار ما زال الواقع العمراني،

وفي غمرة تصدّعه بالذات، قائماً وما زال يتكثف، ومن هذا الفراغ ينبثق تكثيف الرغبة في العمران، كأن المدينة تبعث من الفراغ، في معالم غيابها بالذات.

إعادة إعمار المدينة؟

من خلال المجابهة بين الساحتين، تبدّت لنا صورتان نقيضتان للمدينة، إحداهما أرادت أن تكون حيّزاً مدروساً ومخططاً له «بشكل مسبق»، كبنية توحيدية من شأنها تنسيق العناصر المتنافرة للعمران في تنظيم متحيّز ومتناغم. أما الأخرى فكانت بالأحرى حيّزاً مشرّعاً وديناميا من شأنه أن يستمد حيويته من طاقاته على صنع الصور المختلفة، واحتواء كافة أنواع الاجتماع والتقاطع والقطيعة، وضمان مفصلة الممارسات المختلفة في نطاق حيز مشترك.

لطالما كانت المجابهة قائمة بين هذين النمطين في تاريخ بيروت العمراني، ولطالما ولد النمطان أشكالاً مختلفة من الممارسات العمرانية، واستملاك السكان لحيّز المدينة. غير أن مرور الزمن يمحو التناقضات، ويلين التعارضات ويقلل من حدّة الإفراط في كل شيء. وكما ينبغي لبهلوان الحبال أن يتقدّم بمشقة على الحبل المشدود، كذلك الأمر يتوجب علينا، من الآن فصاعداً، أن نواجه ضرورتين متعارضتين في الظاهر: أن نحث على نوع من التخطيط للحيّز، ما يشكل اليوم شرطاً لبقاء المجتمعات، وجعل الإعمار مجدّداً مدعاة للذة ما وحاملاً لما هو غير متوقع.

وبصرف النظر عن السبل الملكية أو الكليانية التي تمرّ بتطبيق القواعد أو بإعادة إنتاج النماذج القارة، وبصرف النظر عن السبل الهامشية للحنين أو لغابة الفوضى، يتوجب علينا أن نسلك دروباً أخرى من شأنها أن تتيح لنا، ودون أن نهدم أشكال الماضي أو أن نعيد إنتاجها آلياً، يتيح لنا إذاً أن ندرك، ربما، المبادئ التي أعانت على تخيلها، للشروع في رهان الخوض في حداثة جديدة.

وعوض أن نتخيل، في سعينا لإعادة إعمار بيروت، أشكالاً مثالية لن تلبث أن تصبح عرضة للمساءلة بفعل غليان الحياة وتناقضاتها، وعوض أن تحنّط الأشكال العمرانية في جادات ضخمة أو في محاور رمزية كبرى ليست، في المحصلة، سوى إخراج مسرحي للمظهر، ألا يجدر بنا أن نبتكر نطاقات من طبيعة مغايرة، وأمكنة قابلة لإنتاج الصور، لإنتاج الفراغات التي تفصل وتصل؟

وبصرف النظر عن التعارض العقيم بين ساحة النجمة التي أعيد تأهيلها وأعيد إليها الاعتبار عبر إخراج مسرحي لمدينة تراثية أصبحت موضوع استهلاك، وبين ساحة الشهداء التي جعلت سوية الأرض بهدف تحويلها إلى جادة شانزيليزه أخرى، ألا يجدر بنا أن نعيد للمدينة طاقتها الانفعالية التي ترفدها ذاكرة عميقة الغور، وطاقتها على إدهاشنا؟

ذلك أن التشكيلات العمرانية تبقى مجردة من المعنى إلا إذا استجابت لضرورات ذات طابع عملي أو روحاني يشعر بها البشر الذين يعيشون فيها. وهذه الضرورات ليست برسم الابتكار: إنها موجودة وترتبط بالرغبات المتعينة، اللاواعية، المكتومة أو المكبوتة التي تراود أبناء المدن، والتي تظهر من خلال ممارساتهم العمرانية وتلامس أحياناً مكامن خبيئة أو ذكريات غابرة.

هذه الضرورات المضمرة تبدو اليوم مقنعة بكافة أنواع الاعتبارات، القانونية والاقتصادية أو السياسية، وربما أيضاً، لا بل خصوصاً، بالمتطلبات اليومية الملحّة لفترة ما بعد الحرب، والتي لا تدع مجالاً للحلم ولا للمخيلة. ومما لا شك فيه أنه يستحيل على نحو معقول، حيّز المدينة الذي سيعاد إعماره، إلا بالنحو الذي ستتمكن فيه الحياة الاجتماعية من الاطلاع بمسؤولياتها التاريخية.

وهو أمر قد يستغرق ردحاً من الزمن. وهو أمر يتطلب، على نحو خاص، الكثير من طول الأناة والتواضع: فما يثير الكثير من الضجيج يتبع الدرجة (الموضة) دائماً ويبقى هشاً زائلاً، أما ما يبشر بحلول المستقبل فيكون حلوله هادئاً، دونما صخب، كهبوب نسم الهواء.

غير أن هيغل كان قد قال لنا: إذا كان التاريخ بطيئاً، فإن طول الزمن، قياساً بمقاصد الروح، إنما هو أمر نسبي.

مثيلة روما بعد سقوط القسطنطينية
المثقفون العرب ومدينة بيروت (*)

صقر أبو فخر (**)

المدن في العالم العربي كثيرة، لكن العواصم تكاد تكون معدودة. ولعل دمشق هي العاصمة الوحيدة في هذه المنطقة التي كان لها شأن خطير ومستمر منذ ألفي عام. وهي امتلكت، منذ زمن غابر، القاعدة المادية للتمدن والتحضر والتوسع. كانت دمشق عاصمة بلاد الشام قاطبة، وعقدة التجارة الدولية مع العراق وآسيا الوسطى ومصر معاً، وكانت فتحتها البحرية تمتد من الإسكندرون في الشمال حتى غزة في الجنوب، وكانت، تقريباً، مثل حلب مدينة كوزموبوليتية اجتمعت في أرجائها أقوام وجماعات كالاكراد والشركس والتركمان والروم واليونان والداغستان والارناؤوط والابخاز والهوارة واليهود والارمن واليوغسلاف والمغاربة والعجم. لكن هذه الفتحة البحرية راحت تضيق رويداً رويدا منذ منتصف القرن التاسع عشر، حتى إذا أطل القرن العشرون كانت ضربة قاصمة تتهيأ للانقضاض على دمشق مثل الضربة التي تلقتها حلب عندما شُقت قناة السويس سنة ١٨٦٩، فتفككت ولايات سوريا كلها بدخول الجنرال اللنبي إلى فلسطين في عام ١٩١٧، ثم انتزعت اتفاقات سايكس ـ بيكو منها الساحل الفلسطيني بما فيه ميناء حيفا، ثم الساحل اللبناني بما فيه ميناء صيدا وميناء بيروت، ثم منطقة الإسكندرون بما فيها ميناء الإسكندرونة، ولم يبق لها إلا فتحة صغيرة واقعة بين راس البسيط وطرطوس.

تحولت دمشق، إذن، عاصمة لبلاد شبه برية، وفقدت بذلك طابعها التعددي تماماً مثلما فقدت مدينة الإسكندرية نسقها الكوزموبوليتي، وتحولت مدينة محلية كبيرة تقوم بمهمات التجارة والاصطياف البحري فقط. لاحقاً، **اقتنصت بيروت هذا الدور وراحت تتحول، تدريجاً، مدينة متعددة ذات شأن وأثر، وصارت، بعد انحطاط الإسكندرية وتراجع دمشق وحلب، المدينة الكوزموبوليتية الوحيدة في المنطقة العربية** [1].

كانت صيدا هي الميناء التجاري الاول لسوريا في القرن التاسع عشر، ويأتي مرفأ حيفا في المقام الثاني. أما مرفأ بيروت فلم يكن إلا مرسى متواضعاً للبواخر العابرة وللسفن الحربية في وقت الازمات. وعندما أنشأت شركة «ديليجانس» الفرنسية سكة حديد بيروت ـ دمشق عام ١٨٩٢ كان ذلك إيذاناً ببداية ازدهار هذه المدينة الساحلية النائمة عند أقدام جبل لبنان. وفي ما بعد عندما أنشئ مرفأ بيروت الجديد في عام ١٨٩٤ راحت المدينة تتوسع ببطء لتلبي بعض احتياجات سوريا في التصدير والاستيراد، وافتتح التجار الدمشقيون فيها مكاتب لتيسير شؤونهم، وسكنتها عائلات دمشقية وحلبية كثيرة. وراحت بيروت تحل، شيئاً فشيئاً، محل صيدا في الأهمية والمكانة.

دشن إعلان «دولة لبنان الكبير» في أيلول ١٩٢٠ بداية التوسع الجديد لمدينة بيروت. ومع ذلك ظلت حتى أوائل

(*) نشرت في «النهار»، الملحق الأدبي، ١٧/٤/١٩٩٩.

(**) باحث، وصحافي في جريدة «السفير».

(١) يعتقد، إلى عهد قريب، أن مدينة «بيروتي» الواردة في النصوص الأوغاريتية هي نفسها بيروت الحالية. لكن تبين أن «بيروتي» هي مدينة أوغاريتية تقع على رأس ابن هاني حالياً الذي يبعد أربعة كيلومترات عن أوغاريت ونحو عشرة كيلومترات إلى الشمال من اللاذقية. وقد بُنيت «بيروتي» (أي مدينة الآبار) في نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد عند رأس على خليج بحري يؤمن رسواً آمناً للسفن (انظر: عدنان البني، «قصر الملكة في بيروت الأوغاريتية»، جريدة «الحياة» ٢٤/١١/١٩٩٨). وفي هذه الحال يجب إعادة النظر في تاريخ بيروت كي لا يختلط تاريخ المدينتين.

الأربعينات مدينة نشطة اقتصادياً، لكنها بسيطة التكوين ومتواضعة الدور، مثلها مثل لبنان كله الذي لم يكن حتى ثلاثينات القرن العشرين إلا مجموعة متناثرة من القرى الجبلية ذات الهواء الصحي المنعش. ومهما يكن الأمر فإن بيروت، حتى قبل أن تصبح عاصمة لدولة لبنان الكبير، إنتعشت وازدهرت بفضل نزول أهل الجبل لاستثمار أموالهم فيها، وتعليم أبنائهم في جامعاتها، وبفضل مينائها الذي أوقف خدماته في التجارة على دمشق والداخل العربي، وبفضل النشاط التعليمي والتبشيري للإرساليات الغربية. **كان لبنان «رئة العالم العربي» باعتباره مقصد المصدورين العرب الذين وجدوا في صنوبراته ما يشفي صدورهم وأوجاعهم، ثم صار رئة ثقافية حقيقية للعالم العربي تنفس بها العرب بعض نسائم الحرية.**

لم يبدأ الازدهار اللبناني، فعلاً، إلا بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨. ففي ذلك العام تدفق على لبنان أكثر من مئة ألف فلسطيني حملوا معهم نحو ١٥٠ مليون جنيه استرليني مرة واحدة. وأطلق هذا التدفق فورة اقتصادية شديدة الفاعلية. فاليد العاملة الفلسطينية المدربة ساهمت في العمران وفي تطوير السهول الساحلية. والرأسمال النقدي أشاع حالاً من النشاط الاستثماري الواسع. **وكان لقفل ميناء حيفا ومطار اللد شأن مهم جداً في الازدهار اللاحق لميناء بيروت، وعلى الفور بوشر في إنشاء مطار بيروت الدولي بعدما كان مطار بئر حسن محطة متواضعة لاستقبال الطائرات الصغيرة.** وفي عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨ استقبل لبنان آلاف السوريين الذين انتقلوا بأموالهم إلى مصارف بيروت للحيلولة دون تأميمها في دمشق، فكانت القفزة الثانية في الازدهار اللبناني. وفي مطلع الستينات راحت أموال النفط تغرق المصارف اللبنانية فكانت القفزة الثالثة والأخيرة. ولم يكد العام ١٩٦٦ ينحسر حتى كان الازدهار اللبناني قد بدأ يتراجع. ففي ذلك العام شهد لبنان أكبر أزمة في تاريخه الحديث حيث جرى إفلاس بنك انترا الذي أسسه الفلسطيني يوسف بيدس، وسجل العام ١٩٦٦ أول عجز في الميزان التجاري. لكن العام ١٩٦٧ الذي حمل معه الكارثة الكبرى للعرب، اي حرب حزيران، حمل معه أيضاً تنشيطاً للاقتصاد اللبناني بل إنقاذاً له. فمع قفل قناة السويس عادت تجارة منطقة الخليج العربي لتتزاحم، كلها، على ميناء بيروت.

سوريون وفلسطينيون

لعل من الملائم في هذا المقام، ولو من باب السرد فقط، أن نشير إلى أسماء بعض رجال المال والاقتصاد ممن لمعوا في سماء لبنان. فمن السوريين برز كل من إدمون صفرا (أحد رجال المال المشهورين وهو يهودي امتلك مصرفاً في سويسرا) وسيف الدين الخوجا (صاحب الدولتشي فيتا)، ونعمان الازهري (وزير التخطيط السوري السابق ورئيس مجلس إدارة بنك لبنان والمهجر في لبنان)، وجورج عشي (الرئيس السابق لجمعية المصارف)، وجورج ابو عضل (تاجر وناشر مجلة **الأسبوع العربي**)، وعبد الرزاق ادهم وابنه عمران ادهم (مؤسسا الصناعات الغذائية ـ الكونسروة)، وانطوان الصحناوي (نائب ووزير في عام ١٩٦٤) وشقيقه خليل الصحناوي، وموريس صحناوي، وعائلة بوبس (أصحاب الماندارين وفندق الكومودور)، وعائلة فتال (رجال أعمال) وناظم الشمعة ومصطفى البرازي وأرنست عبديني وحسام الصمادي ورفقي المجتهد وشكري الشماس وممدوح النملي وعبد الهادي الدبس وروبير دباس (صاحب شركة «النار والنور») وسليم عبد الرحيم دياب ونبيل الكزبري وعهد بارودي وغيرهم كثير بالطبع.

ومن الفلسطينيين برز كل من: يوسف بيدس (مؤسس بنك أنترا وكازينو لبنان وطيران الشرق الأوسط وستوديو بعلبك)، وحسيب صباغ وسعيد خوري (مؤسسا شركة اتحاد المقاولين)، ورفعت النمر ورامي النمر (بنك بيروت للتجارة)، وبدر الفاهوم وباسم فارس (الشركة العربية للتأمين)، وأسعد نصر وعبد المحسن القطان وتيوفيل بوتاجي وعطا الله فريج وتوفيق غرغور وأدوين أبيلا ومحمود ماميش وجورج عويضة ورضا إيراني وفؤاد سابا وغيرهم أيضاً.

في موازاة الازدهار العمراني والمالي والاقتصادي، شهد لبنان تجربة ثقافية مميزة وفريدة وشديدة الأثر. فمدينة بيروت التي كانت شبه هادئة ووادعة في الثلاثينات من القرن العشرين صارت مدينة مزدهرة ومتوثبة وحالمة ومشاكسة في منتصف الخمسينات فصاعداً. وكان للمثقفين العرب شأن كبير في هذه التجربة، وهم الذين هجروا أوطانهم قسراً او

طلباً لمساحة أوسع من الحرية. **إن سقوط النظم البرلمانية في سوريا ومصر والعراق في أوائل الخمسينات وأواخرها جعل لبنان، وبيروت تحديداً، موئلاً لهؤلاء العرب الباحثين عن الدعة والأمان والتعبير الحر.**

كانت بيروت إلى حد ما، وللمقارنة الشكلية فقط، مثيلة روما بعد سقوط القسطنطينية. ومثلما كان سقوط القسطنطينية حدثاً جللاً في التاريخ الأوروبي الوسيط أدى إلى هجرة المفكرين والعلماء إلى الغرب وإلى التمهيد لبزوغ عصر النهضة، كان سقوط فلسطين وانهيار التجارب البرلمانية والتأميمات واموال النفط ثم نكبة حزيران ١٩٦٧ وغيرها عوامل حاسمة ساعدت لبنان في انطلاقته الاقتصادية وفي نهضته الثقافية، فتدفقت عليه، فضلاً عن الاموال، جموع من المثقفين والمفكرين والفنانين والكتّاب والمبدعين والصحافيين العرب ساهموا، مع أبناء البلد، في إطلاق الحركة الثقافية في لبنان، وأوصلوها إلى ما وصلت إليه من زهو وروعة وتوثب. فمجلة **شعر** التي اسست لتيار جارف في حركة الشعر العربي المعاصر أنشأها سوريون في الدرجة الاولى: يوسف الخال من بلدة عمار الحصن بالقرب من حمص، وأدونيس من بلدة قصابين بالقرب من اللاذقية، ومحمد الماغوط من السلمية في محافظة حماه، ونذير العظمة من دمشق. وسار إلى جانب هؤلاء رياض نجيب الريّس من حماه وفؤاد رفقة من صافيتا وكمال خير بك من القرداحة. ومجلة **حوار** اصدرها الشاعر توفيق صايغ، وهو سوري من قرية خربا في محافظة السويداء، غادر مع أهله إلى فلسطين في عام ١٩٢٥ ثم عاد فلجأ إلى لبنان في عام ١٩٤٨، فهو سوري وفلسطيني ولبناني في آن واحد، مثله مثل أشقائه الذين لمعوا في سماء لبنان أيضاً وهم: فايز صايغ ويوسف صايغ وانيس صايغ. ولا أعلم ما يمكن أن تكون عليه حال الثقافة في لبنان لو لم يكن فيه التالية أسماؤهم. فمن السوريين: صادق جلال العظم، ادمون رباط، قسطنطين زريق، عمر أبو ريشة، نزار قباني، غادة السمان، قدري قلعجي، جميل صليبا، سامي الجندي، إنعام الجندي، عاصم الجندي، ياسين الحافظ، مهى بيرقدار (زوجة يوسف الخال)، خالدة سعيد (زوجة أدونيس)، جورج طرابيشي، بطرس ديب، نقولا الشاوي، عبد اللـه المشنوق، رياض نجيب الريس، رفيق خوري، وليد الحسيني، صلاح الدين المنجد، منير بشور، جبرائيل جبور، الياس مقدسي الياس، نصير سبح، يوسف ايبش، حليم بركات، أمل جراح، ياسين رفاعية، موسى المعماري، معن بشور، ايتل عدنان، سيمون فتال، هنرييت عبودي، انطوان بطرس، محمد رضا، عايدة باقي، يوسف قزما الخوري، نذير العظمة، حنا خباز، الفرد بخاش، موسى برنس، سمير المقدسي، بشار القوتلي، القس رياض جرجور، حسني زينة، ديزيريه سقال، معتز ميداني، زكية حمدان، كروان، محمد محسن، خالد أبو النصر، وداد، نازك، جورج وسوف، فريال كريم، نور الملاح، نادر الأتاسي، تحسين القوادري، تحسين خياط. حتى أن أول موديل عارية في لبنان، مريم خيرو، سورية من حوران عملت مع قيصر الجميل منذ عام ١٩٣٩. ومن الفلسطينيين: وليد الخالدي، محمد يوسف نجم، سمير صيقلي، يوسف شبل، نقولا زيادة، غانم الدجاني، إحسان عباس، محمود شريح، نبيل الدجاني، راجي صهيون، مروان جرار ووديعة جرار، برهان الدجاني، زين نور الدين زين، صلاح الدباغ، غسان كنفاني، جوليانا سيرافيم، مليحة أفنان، كميل حوا، بول غيراغوسيان، إسماعيل شموط، جمانة الحسيني، تمام الأكحل، مارون طنب (والد رونزا وفادي الحاج وسمير طنب)، ناجي العلي، نبيل خوري، آل سحاب: سليم والياس وفيكتور، محمد العدناني، أحمد شفيق الخطيب، جهاد الخازن، خازن عبود، ألبير أبيلا، الياس صنبر وسمير صنبر، حليم الرومي، رياض البندك، سلفادور عرنيطة (عم المطربة مادونا)، محمد غازي، عبد الكريم قزموز، عبود عبد العال، جهاد عقل، كامل قسطندي، صبري الشريف، ناهدة فضل الدجاني، عفيف بولس، حنا السلفيتي، ماجدة الرومي، محمد الشاعر، غسان مطر، محمود سعيد، سليم العشي (الدكتور داهش)، وغيرهم كثر.

بيروت هل تستعاد؟

في أرجاء بيروت تزاحم اللبنانيون والعرب معاً وتساجلوا كثيراً. وفي أحيائها عاش أبناء العربية الذين تقاطروا على هذه المدينة سعياً وراء هامش من الحرية، ومجال أوسع من الديموقراطية. وفي جاداتها وأحيائها الصاخبة تدامجوا وتزاوجوا. وفي هذه الأفياء أبدع العرب كثيراً في لبنان، وأسسوا تيارات فكرية ونقدية وثقافية شتى، فضلاً عن العمران

والاقتصاد، وكان لهم شأن كبير في ذلك الازدهار الثقافي الجميل وفي الحركة الثقافية التي تألقت بهاء وروعة ومشاكسة.

لا أجد، بعد هذا الانهيار الكبير الذي يلف العالم العربي اليوم، مدعاة للقول إن من المكن أن تتكرر هذه التجربة في بيروت بأي صورة من الصور. لن تتكرر تجربة بيروت ثانية، ولن تتمكن أي عاصمة عربية أخرى من اقتناص هذه التجربة أو استعادتها. ذلك لأن العناصر الموضوعية التي توافرت للبنان، في خمسينات وستينات القرن العشرين فصاعداً، من المحال أن تعود مجدداً. فلبنان الذي كان مقصداً للعرب في استشفائهم وتعليمهم ما عاد رائداً في هذا المجال قط. فها هو الجيل الثالث في دول النفط العربية يتخرج في أرفع جامعات العالم، وصار لا يحتاج إلى جامعات لبنان ومشافيه، وباتت دول النفط هذه تمتلك أفضل المستشفيات التي يديرها أمهر الأطباء العرب والأجانب. والأثرياء العرب، إلا القليل منهم، ما عادوا يأنسون جبال لبنان وهواءه المنعش لاصطيافهم ولهوهم بعدما أدمنوا مصايف سويسرا وإسبانيا وأمواج هاواي ومرابع لندن وموناكو وماربيا. وما عاد العرب يحتاجون إلى الوسطاء اللبنانيين لتدبير مستورداتهم وتشغيل أموالهم، فهم يمتلكون الآن أهم مركز مالي وتجاري في المنطقة، أي مدينة دبي التي بلغ ناتجها من التجارة وحدها (عدا النفط) أكثر من ٤٠ مليار دولار، أي ما يعادل الناتج القومي اللبناني كله، مضروباً بثلاث مرات.

كانت بيروت مدينة كوزموبوليتية متعددة اللغة واللسان، والدولة اللبنانية التي أنتجها الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠ لم تكن دولة كليانية ذات سطوة وسيطرة وحضور. وغياب الدولة هذا وعدم تدخلها كثيراً في الشؤون العامة وفي الحياة الثقافية تحديداً، ربما كان لهما الدور الأبرز في إطلاق الإمكانات الإبداعية وفي تفاعل الآراء المختلفة. فالنظام اللبناني اعترف بثماني عشرة طائفة. أي أنه اعترف، سلفاً، بثمانية عشر رأياً على الأقل. في حين أن الدول العربية الحديثة أممت الثقافة، في جملة ما أممت، واقامت خديعة، أو وهماً، مضمونها أن الكيان السياسي والاجتماعي متحد غير منقسم، بينما كان النسيج الاجتماعي، بالفعل، شديد التباين والاختلاف والانقسام. ويظهر هذا الأمر، بوضوح تام، في مرحلة تفاقم الأزمات. وأفضل برهان عن تهتك هذا النسيج هو ما يجري الآن في العراق وما جرى في الجزائر، ومثلما ظهر جلياً في اليمن. لقد أتاح النظام اللبناني حرية واسعة للآراء، وقيد حرية الدولة في التدخل في شؤون الرأي. أما في البلاد العربية فكان الأمر على عكس هذا المنوال.

لكن بيروت الرحبة التي كانت تفتح ذراعيها لكل جديد ومشاكس وممنوع، بيروت التي دافعت عن صادق جلال العظم عندما سجن بعد نشره كتاب **نقد الفكر الديني** سنة ١٩٦٩، وبيروت التي أصدرت كتاب **أين الخطأ؟** للشيخ العلامة عبد الله العلايلي، وأتاحت لنجيب محفوظ أن يصدر فيها **أولاد حارتنا**، إن بيروت هذه اليوم صارت ضيقة الصدر، قليلة الطمأنينة، شديدة العصبية، وباتت لا تطيق كتب الصادق النيهوم ولا مجلة رياض نجيب الريس (**الناقد**) ولا روايات سلمان رشدي، ولا أغنية مارسيل خليفة «أنا يوسف يا أبي» ولا فيلم «المهاجر» ليوسف إدريس، وراحت الدولة تحاول أن تمارس حضورها في مختلف جوانب العيش والأمن والاقتصاد كأنها أرادت الالتحاق بالدول العربية في الحقبة التي بدأت الدول العربية إياها رحلة العودة عن سطوتها وسيطرتها الشاملة.

إما أن تكون بيروت مدينة ذات دور وحضور، وإما أن تصبح مدينة مكتظة بالدور. وكي يكون لها دور، يفترض أن تعود مدينة حرة ومتعددة ومنفتحة وديموقراطية إلى أبعد الحدود، وملاذاً للباحثين عن الحرية والدعة والطمأنينة. وفي ما عدا هذا المشروع ستصبح، بالتأكيد، مدينة بلا دور، أي صناديق أسمنتية للعمل والنوم فقط. وهذا يعني أن تتحول من مدينة فاتنة ووثابة ومتحضرة (مثلما كانت في الخمسينات والستينات والسبعينات) إلى تجمع متوتر لبشر يلهثون وراء العمل المأجور، ولأفراد ينشدون اقتناص الثروات السريعة، أي مجرد تجمّع بشري لا همّ لأفراده إلا المطعم والمشرب والمنكح والمقصف، تجمع يضمحل في أرجائه الذوق والجمال، وتختفي فيه الفرادة والمتعة والثقافة، تجمع تنحسر فيه الجادات الراقية والمقاهي اللاهبة، تجمع يحتاج، أول ما يحتاج، لا إلى الثقافة والعلم والمعرفة والمغامرة، بل إلى بقائه البيولوجي القطيعي كالمطاعم السريعة ومستوعبات القمامة والمراحيض الكثيرة، ولا بأس بعد ذلك بصحف يومية ومدارس وجامعات وأحزاب ونقابات وتظاهرات ناعمة ومتممات الحال!

من عصر الذهب إلى عصر الرصاص
المدينة الوسيطة (*)

سمير قصير (**)

منذ انتهاء الحرب، تتكرر المناسبات، في لبنان والخارج، التي تبدو كأنها تستلزم استحضار ذكر العصر الذهبي لبيروت: مواسم ثقافية، معارض صور، ندوات، أعداد خاصة لمجلات متخصصة، موت شاعر، افتتاح مقهى... آخر هذه المناسبات الثقافية أدى قسطه بدوره. فعلى هامش معرض «لبنان الضفة الأخرى» الذي أقيم في «معهد العالم العربي» في باريس، الخريف الماضي، استحوذت بيروت الستينات والسبعينات، رغم أنها لم تكن الموضوع الأساسي للتظاهرة، على جزء وفير من الاهتمام. كذلك، بقيت بيروت الأمس ترخي بظلالها على بيروت اليوم المحتفى بها «عاصمة ثقافية للعالم العربي» ربما بسبب خواء الشعار. لكن الأهم أن «بيروت الذهبية» تبقى رغم هذه الوفرة موضع تساؤل. تكثر الشهادات والصورة تظل على الدوام مجتزأة. باستمرار تتأرجح بيروت في عصرها الذهبي بين صورتين تتناتشها الخيالات، لبنانيين وأجانب، عرباً وغربيين: صورة المدينة المكرسة كلياً للعروبة، إلى درجة اعتبرت مهداً للثقافة العربية المعاصرة، وصورة مدينة انفتحت أمام كل الرياح، فامتلكت من الكوزموبوليتية ما مكنها من استنباط ثقافة كأنها قائمة بذاتها مجبولة بازدواجية اللغة، بل قل بالفرنسية، من دون كبير علاقة مع ما يحوط بها. نوع من إسكندرية لم تجد لورنس دريل جديداً يصقلها.

والحقيقة، على الأرجح، تقع في منتصف الطريق.

لا القاهرة ولا الإسكندرية، فبيروت كانت خليطاً منذ البداية. في السياسة كما في الهندسة، في الأدب كما في الاقتصاد، وحتى في نمط عيشها كانت بيروت مدينة تأقلم أكثر مما كانت مدينة تكوّن، مكان توليف أكثر من كونه مكان إبداع.

وإذا وضعنا الشعر الذي سطع نوره الحديث من بيروت جانباً، فإن الأعمال العظيمة التي ولدت فيها نادرة. وأكثر ندرة كان عدد المفكرين الذي أنتجتهم، رغم أنها استقبلت الكثيرين منهم وطبعت لهم وطبعتهم.

هذا لا يعني قصوراً منها، بل على العكس من ذلك، فإذا كانت دمشق، كما يقال غالباً، قلب العروبة النابض، وإذا تجسد الرأس في القاهرة، فإن بيروت سرعان ما تحولت الرئة. وفي هذا كانت فريدة، ولا بديل منها.

تأتي فرادة بيروت، بين جميع مراكز الثقافة العربية، من تاريخها الحديث نسبياً.

يجب أن لا يخدعنا قدم الانغراس الإنساني في هذا الموقع الذي ظل مسكوناً باستمرار منذ آلاف الأعوام، فالمدينة التي نعرفها اليوم وُلدت في القرن التاسع عشر. وإذا عرفت الثقافة في الماضي لحظة تألق مع مدرسة بيريت للحقوق، التي كانت أحد المواقع الرئيسة التي صاغت القانون البيزنطي قبل الهزة الأرضية الكبرى في القرن الخامس، فإن غياب التواصل مع المدينة الحديثة، التي امتلكت بدورها مدرسة حقوق كبيرة، لا يفوت إلا الذين يستمرون في اعتبار الجغرافيا تاريخاً.

أما بالنسبة إلى الثقافة العربية الكلاسيكية، فتكاد بيروت لا تظهر فيها. كانت بلدة صغيرة زمن الفتح العربي، وبقيت كذلك قروناً، فلا نجد لها مكاناً في الحوليات الثقافية إلا بوصفها استقبلت العالم الإمام الأوزاعي، الذي أعطى اسمه للضاحية التي

(*) نشرت في «ملحق النهار»، ١٩٩٩/٨/٧.

(**) صحافي وأكاديمي بارز.

دُفن فيها، من دونِ أن يترك أثراً موازياً في الممارسة الفقهية. وكان لا بد من انتظار أواسط القرن العشرين، حتى يكون لبيروت عالم كبير آخر، كالشيخ عبد اللـه العلايلي، الذي رحل قبل عامين، بعدما شكل أحد آخر الوارثين للإصلاح الإسلامي، مع الملاحظة أن شهرته بسبب عمله على اللغة العربية كانت أكبر من شهرته بسبب كتاباته الفقهية. لكن بيروت لم تعد المدينة نفسها، وربما لم يعد الإسلام نفسه أيضاً. إذ كانت المدينة قد عرفت النهضة وغذتها وتغذت منها.

لم يكن عدد سكان بيروت في بداية القرن التاسع عشر يتجاوز بضعة آلاف. وإذا كانت قد عُرفت كإحدى أساكل الشرق التي استخدمها التجار الجنويون ثم البندقيون، قبل أن يصل إليها الفرنسيون، فإنها بقيت تعيش طويلاً في ظل صيدا، التي ازدهرت في شكل خاص في القرن الثامن عشر، وطرابلس. وحتى وقت متأخر، أي حتى عام ١٨٣٠، بقيت تعتبر ميناء سيئاً بحسب ما كتب دومينيك شوفالييه.

إلا أن بضع عشرات من الأعوام ستكون كافية كي تتحول المدينة رأساً على عقب: توسيع المرفأ، فتح الطريق نحو دمشق، وسكة حديد في الإتجاه نفسه، خرق الأسواق المتداخلة بشوارع وجادات، وكلها مشاريع أكدت استهواء تجارة الحرير لمصلحة الصناعة الأوروبية وسهلتها. وفي الوقت نفسه حصل تورّمها الديموغرافي، لتتحول مدينة تضم مئة ألف نسمة في نهاية القرن.

ولكن في هذه المواجهة بين «غرب لا مفر منه وشرق يقاوم»، كما وصفها شوفالييه، فإن بيروت لم تكن فقط موطن قدم لهذا النوع الجديد من الغزاة. إذ أخذ العثمانيون يولونها الاهتمام. وفي العام ١٨٨٠ أعلنت بيروت عاصمة لولاية واسعة (تمتد من اللاذقية إلى نابلس)، تحمل اسمها. **لكن بيروت كانت قبل أي شيء أحد الأمكنة الذي تم فيه التعبير، وفي أعلى درجات الحيوية، عن نهضة الثقافة العربية. فبعد قاهرة محمد علي، وفي تزامنٍ مع ما شهدته المدن الكبرى في الداخل الشامي، أخذت بيروت تتذوق النشاط الثقافي: إنشاء جمعيات علمية، تأسيس الصحف الأولى، نشر القواميس، إصدار الترجمات، وصولاً إلى تعريب المسرح مع مارون النقاش.**

هذه «اليقظة» التي تركزت على إعادة إبداع اللغة العربية، أكدت بسرعة بعدها السياسي مع تعميم «المعلم» بطرس البستاني لمفهوم الوطنية، الذي سبق للمصري رفاعة رافع الطهطاوي أن بلوره، لكنه عُمم هنا على البلاد السورية. فالبستاني كان يعتبر نفسه وطنياً سورياً، وعلى هذا الأساس سمّى إحدى المنشورات التي أسسها «نفير سوريا». أما إبراهيم اليازجي، الأكثر نضالية، فمجّد الفضائل العربية ضد الباب العالي المتداعي، وسوف تزين قصيدته البائية أحد أوائل ملصقات الدعاية السرية ضد العثمانيين في بيروت ودمشق، في ما عرف بقضية «المناشير السرية» عام ١٨٨١. غير أن الوجه الكبير الآخر للنهضة، والأكثر ابتكاراً وطرافة على الأرجح، وهو أحمد فارس الشدياق، كان فضل المنفى منذ فترة طويلة هرباً من مجتمعه، فجالَ بين باريس ولندن واسطنبول وتونس حيث اعتنق الإسلام بعد عزله مع الاشتراكية (هو من اشتق الكلمة في العربية)، الامر الذي لم يمنعه من تحقيق انتهاك لن يتكرر قبل زمن طويل، في الرواية - السيرة الذاتية: **الساق على الساق**.

سوف يختار الكثر غيره دروب المنفى، بعد ذلك، وقبلتهم الأولى مصر التي لم تعد أرضاً عثمانية إلا اسمياً، والتي كان الإنكليز، أسيادها الجدد، سعداء باستقبال الصحافيين والناشطين «السوريين» المعارضين لاستبداد السلطان عبد الحميد، على أمل إقامة توازن مع من جذبتهم باريس وساندتهم.

في تلك المرحلة، وجدت النهضة في بيروت إيقاعها، ولكنها فقدت لذعتها فالعملان الأولان للعروبة السياسية: **أم القرى** للحلبي عبد الرحمن الكواكبي، **ويقظة العرب** لنجيب عازوري، سيكتبان وينشران في مكان آخر. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإصلاح الإسلامي الذي أخذ يتبلور بين باريس الأفغاني وقاهرة محمد عبده.

أما في بيروت، فكانت النهضة تتجسد في شكل أقل لمعاناً عبر توسع التعليم في نهاية القرن. وفي هذا الصدد، امتلكت بيروت مؤهلين أساسيين للنجاح بفضل فاعلية الإرساليات الغربية: **الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت لاحقاً)، التي أنشأها المرسلون الأميركيون عام ١٨٦٦. وجامعة القديس يوسف، التي أسسها الآباء اليسوعيون عام ١٨٧٥.**

سوف تضطلع هاتان المؤسستان، ولفترة طويلة، بدور مشاتل الانتلجنسيا العربية في الشرق الأوسط، وسوف يستمر

هذا الدور، حتى بعد الانقلاب الجغرافي - السياسي الذي حصل بعد الحرب العالمية الأولى، محولاً بيروت عاصمة جديدة لدولة جديدة هي دولة لبنانِ الكبير، ولاحقاً الجمهورية اللبنانية.

بيروت التي أصبحت مقراً للمفوضية السامية ولمكاتب الانتداب (على لبنان وسوريا)، عرفت تطوراً كبيراً تحت السيطرة الفرنسية. غير أن الحياة الاجتماعية اللامعة في ما اعتقده روادها «باريس مصغّرة»، لم تجد لها رديفاً ثقافياً. صحيح أن الصحافة شهدت انطلاقة جديدة، لكنها لم تكن تقارن بصحافة القاهرة. أما الأدب فبقي رغم أعمالِ مارون عبود وبدايات سعيد عقل، يغرف من القرن التاسع عشر، بما في ذلك النتاج الفرنكوفوني حيث كان للرداءة أن تسيطر لولا وعود جورج شحادة الآتي حديثاً من الإسكندرية. وفي هذا الوقت، كان الفكر السياسي العربي يصاغ في مكان آخر مع ساطع الحصري في بغداد وميشال عفلق وصلاح الدين البيطار في باريس ثم في دمشق. ولكن يبدو أن سحر بيروت يفيد ذكاءها، فلقد استطاعت في الاربعينات جذب مفكرين كبيرين في القومية العربية الديموقراطية: الدمشقي قسطنطين زريق، الذي سيقوم بتكوين اجيال من طلاب الجامعة الاميركية، والحلبي ادمون رباط الذي سيصبح المرجع في القانون الدستوري في لبنان، بالإضافة إلى أعماله التاريخية اللذيذة باللغة الفرنسية.

بشّر هذان القدومان بنزوح ثقافي عربي إلى بيروت، قامت بتسريعه النكبة العربية في فلسطين (موضوع كتاب أساسي لزريق **معنى النكبة**)، ثم تسلم الأنظمة المتسلطة لمقدرات غالبية البلاد العربية. عندها انفتح العصر الذهبي لبيروت، هذا العصر الذي لم تنته من التغني به. ربع قرن من الغليان، ومن خفة لا توصف في الهواء، على وقع المناظرات الصاخبة والجدالات الصارمة. **جدال بين القديم والحديث أثارته مجموعة من الشعراء تقدّمها السوريان الوافدان يوسف الخال وأدونيس، واللبناني الفتى أنسي الحاج، جدال بين الوجودية والماركسية، جدال بين الناصريين والبعثيين، وبين القوميين العرب الذين اعتنقوا الاشتراكية، والاشتراكيين الذين استفاقوا على القوة المحركة للقومية.**

ولعل ما كان يزيد الصخب أن كل هؤلاء، أكانوا بيروتيين بالتبني أم بالتكوين، كانوا يتبارون على مملكة بمساحة منديل للجيب بللته أحدث عطور باريس الفائحة من جيش من المتحمسات صرن يهوين المناظرة الخطابية مع فنجان القهوة. في النهاية، ربما كان هذا الاختلاط بين اندفاع التفكير وهدوء العيش، هو المساهمة الرئيسية لبيروت في الثقافة العربية. اليس في هذا المزيج نعمة لكل من اعتبر نفسه مثقفاً اينما كان؟ فكيف لا يكون نعيماً للمثقف العربي المفطوم من الحرية والمقموع بالممنوعات المتزايدة. نعيم حقيقي، بعيد بقدر ما هو قريب.

فمع التغرب الظاهر للعادات التي كانت تشجعها الوظيفة الاقتصادية للبلد - المحطة، قدّمت بيروت لضيوفها المنفيين ولمثقفيها إطاراً هو الأكثر اغتراباً والاقل غربة.

مدينة عربية ولكنها مختلفة، مدينة مختلفة ولكنها عربية، بيروت «من تعب ومن ذهب واندلس وشام»، على ما كتب محمود درويش وهو ربما أفضل من وصف المدينة التي أقام فيها عام ١٩٧٢، وفيها حدث تحوله الشعري الأول الكبير.

غير أن مديح ظلال بيروت، وعند الجميع، لم يأت إلا بعد انطفائها. فعندما كانت تدور فيها لعبة الضجيج، فإن الذين استطابوا أهواءها كما الذين ادعوا الترفع عن هذه الخفة، لم يروا في بيروت سوى الحياة الرخية، «الدولتشي فيتا». لكن المقهى الذي حمل هذا الاسم الفلليني، في الروشة، كان أكثر من مجرد إطار لرخاء العيش، فقد أصبح مع بداية الستينات مكان لقاء المنفيين العرب من جميع الأنواع: رجال سياسة، صحافيون، كتّاب كانوا يقدّمون لميشال أبو جودة أستاذ التعليق السياسي اليومي في «النهار»، مادة العديد من الروائع الصغيرة في الأدب السياسي العربي.

تلك المساهمة الثانية لبيروت العصر الذهبي في الفكر العربي: ازدهار صحافة شاهدة، كانت الوحيدة في العالم العربي لم تخضع للرقابة المباشرة. ومع ذلك، لا يمكن الاكتفاء بالقول إن بيروت كانت موطن الإعلام بامتياز، لان بيروت صارت في الواقع، هي نفسها وسيلة إعلام، ولن نعرف قيمتها إلا حين ستنغلق المدينة على انطواء الحرب والعصبيات الصغيرة.

إذ ذاك سندرك أن بيروت لا تستطيع أن تكون نفسها إلا إذا كانت مكاناً مفتوحاً، بل أنها واحدة من هذه المدن التي يصح فيها قول ماك لوهان في وسيلة الإعلام: الرسالة هي في الوسيط نفسه.

والمفارقة، إن هذا ما فهمه جيل كبير من الروائيين أنجبته بيروت أخيراً في عصرها الرصاصي.

شارع بيروت الوطني
ودولة المشاركة والمساءلة والدور القومي (*)

منح الصلح (**)

قد تكون المدينة المستصلحة والمحدثة هي الأحوج من أجل معرفة نفسها الى مراجعة قديم المدينة، ولا سيما عطاءات شارعها السياسي، شارع بيروت العريق والرفيق الملهم لتاريخها ومتلقي كل إشارة مبكرة على طريق النضال والكرامة في مغرب الأرض أو مشرقها.

في محطة النويري البسطة الفوقا وقفت طفلاً أو كالطفل، الى جانب أقرب أعمامي سناً إلي، ننتظر عبثاً وقوف حافلة الترام، فإذا الحافلات تتابع سريعة واحدة بعد أخرى، ولكن دون أن يصعد إليها أحد. ويقول أستاذ من المارة يباسط عمي الأصغر: «إنها الوطنية على طريقة غاندي، لا تكسروا الحافلات ولا ترموا الموظفين بحجر، بل قاطعوا سلمياً، إنها المقاطعة وحدها المطلوبة وهي وحدها تحرر الهند وغير الهند».

بسبب التعدد المركب في صلب التكوين البشري لهذه البقعة من العالم العربي الكبير المسماة بيروت أو لبنان عموماً، وبسبب المدارس والجامعات اللبنانية والاجنبية الراقية والجامعتين الأجنبيتين الرفيعتي المستوى الاميركية واليسوعية، وبسبب كونية الدينين الإسلام والمسيحية، **انغرست في الثقافة الشعبية اللبنانية العربية بعمق وأصالة تلك الحساسية الوطنية والقومية والإنسانية المرهفة إزاء أي ظلم يقع من أقوياء العالم ضد أي كان ولو في أبعد البلدان، فلكل حدث هناك أثره هنا في الصحيفة اللبنانية والنادي والحزب والنقابة والآن في التلفزيون.**

لم تنتظر الظاهرة هذه، أي الشارع السياسي لمدينة بيروت، اكتمال ثورة الاتصالات لتسجل وجودها في تاريخ المنطقة. فسعد زغلول، بكل حجمه ونبل زعامته وقضيته، كان قد تكرس من قبلها عملاقاً ونموذجاً للزعيم في الشارع الوطني اللبناني الذي التقط وغنى هنا في بيروت وطرابلس وصيدا ما غنته لزعيمها القاهرة والاسكندرية والريف المصري: «سعد زغلول ربي يخليك ويوطي نفسك ويعليك».

اختار الشارع السياسي اللبناني منذ ذلك الزمان بث صورة الزعيم الشعبي المطلوب، فهو القوي ضد المستعمر الظالم، ولكن الودود البار في الوقت نفسه في التعامل مع الشعب المظلوم. إنه هتاف وطني يحمل للغريب المحتل الغضب والرفض وللزعيم الوطني تعويذة التحذير من الغرور.

لم يتخلّ شعب لبنان ممثلاً بشارع بيروت الوطني في الشرقية والغربية عن الديموقراطية رفيقة بل شرطاً على القيادات الوطنية وعمقاً فيها ولها. كان بذلك وفي الحالتين صاحب أشواق حضارية وإنسانية لنهضة الشرق والعرب، لا لنفسه فحسب.

لعبت الصحافة والثقافة دوراً سابقاً وأعمق من دور الإذاعة والتلفزيون اللاحق بترشيد السياسة داخل لبنان وفي محطيه العربي ترشيداً إنسانياً ديموقراطياً حضارياً لعله الأقرب الى أن يكون صمام الفعل والأمان على المدى الطويل للبنان والامة العربية.

(*) في الأصل مداخلة ألقيت في ندوة تكريمية للكاتب في النادي الثقافي العربي في بيروت، ونشرتها «السفير» في ٦/ ١٢/ ٢٠٠٤.
(**) مفكر عربي من لبنان.

منذ سعد زغلول وغاندي وصولاً الى ياسر عرفات، وخصوصاً منذ الاحتلال الصهيوني لجزء كبير من فلسطين وقيام الوحدة المصرية السورية بقيادة عبد الناصر، أصبح المطلوب بوضوح على الأرض العربية قيام القيادة الآخذة شرعيتها لا من وطنيتها فقط، بل من ديموقراطيتها أيضاً. كان هذا أوضح ما كان عند انهيار الوحدة المصرية - السورية.

إنه الشارع الوطني اللبناني اليقظ على عوامل الجمع والتفريق في الأمة. اتخذ الميثاقية بوصلة شبه عفوية الى التماسك قبل ولادة الميثاق عند الاستقلال والذي جعل التعدد الإيجابي والطوائف نفسها قوة إضافية في الشعب والأمة. وكان ذلك قد بدأ منذ أواخر العهد العثماني ليأخذ أبرز أشكاله عام ١٩٤٣ في عهد رجلي الاستقلال بشارة الخوري ورياض الصلح.

شارع لبنان السياسي مرآة الضمير القومي والوطني في حقبة طويلة، رديف الفكر ومغذيه بالرؤى المافوق سياسية، حارس السر الخاص بالصحافة والإعلام اللبنانيين، مصوب النظريات ومخطئها ومحك جديتها، الملقي ولو من بعيد ظله بل فاعليته في المبادرات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية عموماً، المؤثر ماضياً وحاضراً في صناعة الأحداث داخل لبنان وفي منطقته العربية، البوصلة التي تساهم في إرشاد الخطى واكتشاف الطريق.

شارع لبنان السياسي أقوى ركائز الديموقراطية تاريخياً ومؤشر النمو الحقيقي في زمن ما، الذي لم يكن كاتب لبناني او فنان أو سياسي أو تاجر أو مهندس يتصور نفسه نامياً وفاعلاً إلا بالإبقاء عليه.

شارع لبنان الحر الذي أعطى اللبنانيين تاريخياً تلك العلاقة الثنائية الخاصة مع كل إنسان متنور في كل بلد عربي، او غير متنور، هو اليوم مهدد بخسارة ألقه، فضلاً عن فعله وربما وجوده إذا هو لم يتجاوز مرحلة الحرية الاغنية التي كان يكفي أن يتفرد بها لبنان، ولا سيما في مرحلة الانقلابات العسكرية في المنطقة، حتى يكون له مبرر وجود وتألق. وقد أعطاه وجود الأنظمة العسكرية والتقليدية في المنطقة شبه فرادة كنظام قائم على الحريات وفرصاً مجانية ومكاسب. ولكن بعد ما يزيد عن ستين عاماً من الاستقلال أما آن الأوان لتقوم دولة الخدمات العامة، دولة الحداثة والمعاصرة، دولة التقدم والمنافسة الحرة، ودولة المساءلة والمحاسبة؟

أقف اليوم وفي ذهني فضل النادي الثقافي العربي الذي أنا اليوم في ضيافته، وفضل الجامعة الأميركية في بيروت في جعل حي راس بيروت، كما قال الكاتب المصري أحمد بهاء الدين، ظاهرة مشابهة للحي اللاتيني في باريس من حيث الطليعية والفكر المتحرر المفتوح على الثقافة الراقية الذي يرسم منذ مدة غير قصيرة آفاق التغيير في أذهان الطلائع العربية، ويبث قيم الوعي والصمود طلباً للتقدم في وجه ظواهر التخلف الداخلية، وأقوياء العالم تحديداً وفي طليعتهم الولايات المتحدة الاميركية. لقد أنفقت في ذلك الحي، رأس بيروت، معظم عمري أطل منه على وطني لبنان والوطن العربي والعالم غير راضٍ كجيلي وإخواني بالنقص والقصور والتخلف والظلم حيث كان في بلادي العربية، ملتزماً كل طريق أراه موصلاً العرب ولبنان الى الحلمين القومي العربي والوطني اللبناني.

ما طال بي الوقت حتى اقنعني زادي الجامعي وجو رأس بيروت بأن التحرر الذي طلبه وطني لا يتحقق إلا بإشباع نزوعين لا نزوع واحد: أحدهما سياسي الى الاستقلال والتحرر والاتحاد، وآخر حضاري ومدني مترافق معه يقوم على محاكاة الغرب في الجوهري والأساسي من مصادر قوته وغلبته.

وقد أسسنا أصدقاء لي وأنا، من موقع الإعجاب، محاولتين فيهما استيحاء لتجربة النادي الثقافي العربي الرائدة «نادي العروة الوثقى» في رأس بيروت بعد أن كانت الجامعة الاميركية أغلقت الجمعية صاحبة الاسم على أرضها، والثانية «دار الندوة».

ما كان يوازي عندي منذ أيام التلمذة سحر الجامعة الأميركية في صفوفها وقاعاتها وشجرها وبشرها ومتعة النمو الذهني والإنساني تبثها فينا هيئتها التعليمية الراقية إلا شيء واحد هو جاذبية ذلك الشارع الخارجي الملاصق بالمعنى المادي والجغرافي للجامعة، الذي ما إن كان ينادينا نحن الطلاب الى التجمع فيه حتى تنطلق منه التظاهرات الشعبية حاملة المطالب التي تتحول بها الحكومات الى محرجة تبحث عن ممثلي التظاهرة لتحاورهم في المطالب الشعبية، وتنشغل الدولة بالوعد بتنفيذ المطالب، ولتضج الإذاعات المحلية والعالمية أخبار المفاوضات بين ممثلي السلطة وممثلي

الشعب أي نحن الطلاب. **إنه شريط في الذاكرة من شارع بيروت السياسي بالمعنى التاريخي القادر آنذاك والمنتصر في الكثير من الحالات، ومطلق الضجيج العربي والعالمي حول قضايانا**، شريك البرلمان، وصاحب الكلمة العليا أحياناً في فرض كلمة الإنسان البسيط على السلطات، وأخذها بجدية بعين الاعتبار.

الى الشارع السياسي العريق لبيروت يعود شيء من الفضل، بل الكثير منه في أن لبنان بقيادة زعمائه كان أول وطن نال استقلاله من شعوب آسيا وافريقيا، وهو مدعو أكثر فأكثر اليوم قبل الغد، بل ما زال مدعواً منذ الاستقلال قبل ٦١ عاماً الى وقفات أبعد مخيلة ونهضوية وأكثر جرأة ليلتزمها لا ليترنم بها وليجعلها قاعدة للطموحات الوطنية العامة ولقياس الخطوات.

أيام الانتداب كان يكفي لتحدي الحاكم الأجنبي ومن معه رشقه بكلمة الحرية والاستقلال، ثم قياس قصور فعله بحجم التحدي الذي تحمله الكلمة. بعد مرور واحد وستين عاماً من الاستقلال أصبح، ويا للظلم والعجز منا، كأنه المسؤول عن عدم تحويل هذه الكلمة، الحرية، من أغنية الى مؤسسة. بعد كل هذا الوقت الطويل من عمر الاستقلال لم يعد جائزاً منا الاكتفاء بالسؤال أين الحرية وماذا فعلتم بها؟ بل أصبح من الواجب الحديث عن دولة المشاركة بالمعنى الواسع والمساءلة والدور القومي والحضاري، هل هي فعلاً موجودة بين الحاكم والمحكوم؟ وهل تعمل بكفاءة وشفافية ولمن تعمل ومع من وبمن؟

مع المنتدب الغريب كان يمكنك أن تصيح - ويجب أن تصيح - «أعطني حريتي». أما مع الحاكم الوطني اليوم فقد بات عليك منذ الاستقلال أن تقول أكثر من ذلك من منظور الدور اللبناني ومصلحته: «أين الديموقراطية وما هي حصتي وحصة غيري أو حزبي أو دستوري وكيف أصبح أنا عن طريق المشاركة في المؤسسة صاحب القرار وتكون يدي حرة وقادرة على التنفيذ؟».

وبات لك - بل عليك - أن تسأل من منطلق التزام أكثر جدية بالواقع اللبناني: هل تحولت الكلمة الى مؤسسة أو اختزلت المؤسسة بكلمة؟

أحياناً نرى حكامنا يتحولون الى شعراء، يتحدثون عن الحرية والمساواة بالكلمات حين المطلوب منهم أن يوجدوا ويعززوا المؤسسات التي تصبح فيها الكلمات كائنات تعمل وتوزع الحقوق.

تحدث عمر فاخوري الذي كنا نقرأ له كثيراً أيام التلمذة في بعض مقالاته عن فجيعته كطفل أمتعه مشهد حجارة جلاها المطر فهي بيضاء تكاد من نصاعتها تضيء، فما إن امسك بها مقلباً إياها حتى تكشفت لعينيه مجاميع من الحشرات والأوساخ. إنها فكرة الشفافية في النظام العام بشّر بها بطريقته الخاصة كاتب لبناني آخر استخدم هذه اللفظة بالعربية للمرة الاولى بعد حرب ١٩٦٧ معلناً أن الشفافية مفقودة في أنظمتنا، وأن النصر لا يمكن تحقيقه على عدو والتكافؤ مع أقوياء هذا العالم لا يمكن أن يقوم دون الشفافية في النظام العربي.

عام ١٩٦٧ عام الهزيمة وفي صحافة لبنان ومنتدياته الشبابية ظهر للمرة الأولى اتهام النظام العربي أو الأنظمة العربية عموماً بانعدام الشفافية. جاءت الشفافية ككلمة وليدة تشخص الداء بعد الهزيمة وتعد بالشفاء مع ترفق نسبي خفر بالأنظمة الديموقراطية البرلمانية على أنها بالأقل تملك هذه الصفة التي ليس عنها بديل. والبعض وجه بهذه المناسبة تحية للبنانيين بأنكم أيها اللبنانيون تملكون دون غيركم هذه المزية في نظامكم ومنهم من سخا فقال: «عندكم الشفافية فماذا تريدون أكثر!». كثيرون من اللبنانيين اكتفوا بمدح نظامهم، ولكن بعضهم، ونحن من هذا البعض، قبل ذلك من زاوية واحدة هي إيجابية استمرار الشارع السياسي اللبناني في إيمانه بنفسه، ولئن شكا من نقاط ضعف كثيرة فإنه موجود في كل وقت ليقول لا او نعم كمرادف ومكمل وكتلخيص وتجسيد مبسط لما كان يسمى في العهد الانتدابي «العمل الوطني من أجل الاستقلال»، واصبح يسمى بعد ذلك «الشارع السياسي اللبناني» بالمعنى العريض الذي يجسد روح ذلك العمل الوطني، ويستوعب رسالته.

إن فشل الأنظمة في حرب ١٩٦٧ كان بسبب عدم وجود ديموقراطية، هذا صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن الحرية في لبنان لم تمنع هذا البلد من أن يعيش حرباً دامت سنوات من العام ١٩٧٥ الى العام ١٩٨٩، بل إن الحلم العربي بالحرية والوحدة والتقدم كما اكتشف اللبنانيون وغيرهم ليس أن نهتف به ولا حتى أن نضمره بكل

صدق بقدر ما هو مسار وطريق مرتبطان بتحقيق نوع من وحدة مصالح في الأنظمة في ظل الديموقراطية. وتجربة الوحدة والانفصال بين قطرين عربيين أساسيين هما سوريا ومصر اثبتت أن أجلّ الخطوات الوحدوية وأكثرها ضرورة وتلبية لإرادة الشعوب تسقط تاركة تدميراً خطيراً إذا ما افتقدت جدية الجهد الحضاري، وحس المنافسة المسؤولة مع الدول المتقدمة. ولقد كان السقوط ذاتياً قبل أن يكون ضحية مؤامرة.

تحقيق النظام الديموقراطي في لبنان نفسه كان وما يزال هدفاً لا بد أن تؤسس له المشاركة، فلا ديموقراطية دون مشاركة بالمعنى المؤسساتي الصحيح. حتى الانشداد الى الحلم العربي دون أن ترافقه الجدية القصوى في بناء نظامنا الديموقراطي مؤذ للعروبة وللبنانية معاً.

الى أن يتجسد ذلك الحلم في نظام ديموقراطي جدي هدفاً وتكويناً أو في أنظمة، علينا أن نصنع شارعنا المثقف وهو يصنعنا كما نريده وكما هو في الجوهر.

ليس لبنان انفصالاً ولا كل أوطان العرب وحدات، ولكنه، أي لبنان، وطن عربي بدولة وشعب من حقه أن يكون من بين أوطان تجمعها رابطة القومية الواحدة ويتشكل منها الوطن العربي الواحد الكبير. لكن على لبنان أن يحذر من السكر بالحرية الى درجة الظن بأنها تغني صاحبها عن كل شيء آخر. **إن ثقافة الحرية هي المطلوبة**، كما تتعالى الاصوات اليوم بين الطلائع اللبنانية الجادة.

لقد أعطى شارع لبنان السياسي قلبه وعقله للقضية الفلسطينية، لثورتها الأولى مع الحاج أمين الحسيني ولثورتها الثانية مع أبي عمار. ومن لبنان أطل ياسر عرفات على العالم وكاد لبنان الشعب والدولة وبيروت يوازي فلسطين نفسها في العطاء لقضيتها وزعيمها الراحل، كما كان شعب لبنان قد نصر فيصل الهاشمي ووحدويته القومية في فترته السورية ومن بعد العراقية، كما نصر ثورة الجزائر وساهم في تعميم وهجها في العالم في روح غيرية فاق فيها العطاء اللبناني حدود القدرة حتى كاد يصح ما قاله أحد رؤساء وزرائه السابقين «إن لبنان تفانى حتى فني أو كاد».

إن الخطر على لبنان، كان وما يزال، ليس من قيام دكتاتورية بقدر ما هو من قيام ديموقراطية ناقصة، وتبقى الديموقراطية غير كاملة في المضمون ما بقي واضحاً في أذهاننا جميعاً نقص المشاركة الشعبية التي مثلها على مدى الأيام الشارع السياسي وغياب التجسيد لمعنى الديموقراطية، وتظل الديموقراطية لا تمثل كل معنى وفعالية الديموقراطية ما لم تتبنَّ المعنى الحقيقي للمشاركة اللازم للديموقراطية الحقيقية بعد أن تسطح هذا المعنى أو ضعف أو بهت أو غاب وربما تحول.

فكم من ديموقراطية بالأشكال والطقوس لا تمثل، وخصوصاً الآن، كل معنى وفعالية الديموقراطية.

أما أن تكون الديموقراطية هي ما نرى: الخيار بين الاخذ بالديموقراطية كما هي أو تركها فهو تفكير خاطئ منغلق في وجه شروط الديموقراطية ولعله منطق الرجعية الأكثر تحايلاً.

تكون الديموقراطية قد نمت من الاسمية الى الفعل بنسبة ما تكون مسكونة بمشاركة ومحاسبة وشفافية ووسائل إعلام مستقلة وأحزاب حقيقية لا تجمعات عصبوية: نظام انتخابي صحيح، مؤسسات مجتمع مدني، بالإضافة الى ضمان الحريات في مختلف المجالات. من المؤلم أن أكثر من ستين سنة من الاستقلال لم تحقق، ما عدا في عهده الأول، أي تقدم ملموس وحاسم في إقامة ديموقراطية صحيحة، بل بالعكس حصل تراجع في قضية الحريات ولا تقدم في عملية بناء النظام الديموقراطي.

لا تقدم عندنا في الاحزاب، وفي المشاركة والمحاسبة، وقد جاءت قوانين الانتخاب هنا وهناك مفصلة بناء على مصالح مسبقة. هل القضاء أفضل؟ هل الفساد أقل؟ هل الصحافة وصلت الى ما تصبو اليه؟ هل الاحزاب موجودة؟ هل الطائفية خفت حدتها؟

منذ انتهاء الحرب اللبنانية ١٩٥٨ وبفعل الوعد الشهابي ولا أقول العهد الشهابي، وخصوصا مجموعة الكلمات والخطابات والرؤى التي أطل بها الرئيس فؤاد شهاب بعيد ما سمي في زمانه بالثورة، نشأت الى جانب الأخطار الحقيقية على الديموقراطية بالمطلق شبه رؤية تصحيحية لم تتجاوز الترداد والاجترار لكلمات مثل المساءلة

والمحاسبة والمشاركة والتعيين بالامتحانات. إلا أن الوعد الشهابي على علاته، ولا أقول العهد الشهابي، لعب دوراً في تخليص الكلام السياسي اللبناني من الترداديّة العاجزة لبعض الكلمات الرسولية كالحرية، والولوج الى كلمات ومفاهيم دخلت كضوابط حضارية في مسيرة الدول والمجتمعات. ولولا الالتباس بين دولة شهاب والعسكرية لكانت الحماسة من أجل إنجاحها أوسع.

إن أبشع ما يمكن أن يحصل في وطننا هو أن يصدق ما قيل إننا بعد عهد الاستقلال الأول ابتعدنا واستمررنا نتبعد أكثر فأكثر مع الزمن عن مشهد الدولة المتقدمة ومقاييسها كما هي في العالم المتقدم الذي ينظر كثير منا اليه على أنه مثال.

إن التقدم في الديموقراطية ومن خلالها وهو وعد اللبناني لنفسه ولشعوب المنطقة غاية لم تتحقق بعد واحد وستين عاماً من الاستقلال، رغم طول المدة، بينما تحولت عشرات الدول في مختلف أطراف العالم من دكتاتوريات الى أنظمة ديموقراطية بسنوات معدودات.

غياب المشاركة أفقد الديموقراطية أحد أهم أسسها. فخلافاً للنظرة السائدة لا تقتصر الديموقراطية على ضمان الحريات وهي التي شهدت عندنا تراجعاً، بل تتعداها، وقد تعدتها في العالم المتقدم الى تأمين المشاركة الشعبية في رسم ووضع السياسات الحكومية من خلال الاحزاب والنقابات والحركات الطلابية والجمعيات الاهلية التي لا تتحقق ديموقراطية بمعناها الصحيح بدونها.

الديموقراطية ليست حرية الشكوى بل القدرة على التأثير في سياسات وقرارات الدولة لإزالة أسباب الشكوى وتغيير الأوضاع المشكو منها.

الديموقراطية هي الإسهام في القرار لا مجرد الاعتراض عليه وانتقاده. والأهم انها نظام المواطنين الطامحين الفاعلين لا الانتظاريين التواكليين فاهمي الحرية على أنها استقالة من المنافسة والاكتفاء بالشعارات والوعود المجانية.

إن تفريغ الديموقراطية من معناها خطر قائم ومستمر، ولعله مقصود، بحيث تصبح في أحسن الحالات مرادفاً للحريات دون تحقيق الشروط الأخرى لقيام دولة تكون دولة وتكون ديموقراطية في الوقت نفسه.

إن أول ما يميز الديموقراطية الحقة عن الديموقراطية الاسمية هو التحدي القادر الذي تحمله في أن تبني باستمرار وبلا هوادة أسسها الاجتماعية والاقتصادية في الوقت الذي هي تعبر عن إرادة الشعب، فإما أن تكون مع الحرية وللحرية دولة نامية منافسة وحضارية بحق أو تخسر ذاتها وتكون دولة طغيان وتخلف وتسيب قد تستمر فيها الحرية ولكن بمفهوم الحرية الأغنية لا بمفهوم ثقافة الحرية.

لا تقتصر الديموقراطية على ضمان الحريات وهي التي شهدت في أكثر من مكان تراجعاً، بل تتعداها الى تأمين المشاركة الفعلية في العملية السياسية بكل مجالاتها لمصلحة النظام الديموقراطي وضمان تطوره بشكل فاعل ومستمر.

إن الحكم الذي لا يحل مشكلة يرسخ اعتقاداً متنامياً ان الديموقراطية والحكم الفعال لا يجتمعان، وهذا يؤخذ كمبرر للحد من الحريات والتضحية ببعضها كوسيلة في زعم أصحاب المصلحة لزيادة قدرة الدولة. هذه النظرة كادت تصبح خطراً على لبنان.

ليست حركة الشكوى معياراً، بل المعيار القدرة على التأثير على سياسة وقرارات الدولة لإزالة أسباب الشكوى وتغيير الأوضاع المكشو منها.

الديموقراطية هي المشاركة في القرار لا مجرد الاعتراض عليه وانتقاده.

تفقد الديموقراطية معناها حينما تصبح مرادفة للحريات دون تحقيق الشروط الأخرى للديموقراطية، وفي طليعتها المشاركة والمحاسبة والشفافية والاحزاب ووسائل الإعلام المستقلة ومؤسسات مجتمع أهلي حرة وفعالة. فهل يسمح اللبنانيون والصادقون ومسؤولو وطلائع التقدم العربي بذلك؟

ثلاثون عاماً من الصحافة العربية: الثابت والمتحول.. (*)

طلال سلمان (**)

قبل ثلاثين عاماً ارتكبت، بمساعدة مجموعة من الزملاء الأكفاء، فعل إصدار صحيفة جديدة في بيروت، اسمها «السفير»، اتخذت لنفسها شعار: **صوت الذين لا صوت لهم**، وانتدبت نفسها لأن تكون «**جريدة لبنان في الوطن العربي، جريدة الوطن العربي في لبنان**».

كانت بيروت، آنذاك، العاصمة السياسية الأولى، وبالتالي العاصمة الإعلامية الأولى في الوطن العربي.

كانت بيروت حاضرة بذاتها، لأن أزمة النظام السياسي اللبناني كانت تقترب من ذروة التفجر، متسببة في انقسام شعبي حاد كان يسهل حرفه الى مهاوي الصراع الطائفي، خصوصاً وان الطائفية في لبنان استثمار مجز للخارج، عربياً كان أم أجنبياً.

كذلك فلقد كان الكل قد انتقل بصراعاته الى بيروت:

١ ـ كانت المقاومة الفلسطينية قد استقرت بجسمها متعدد القدرات والأطراف في بيروت وكانت قد دخلت في النسيج السياسي اللبناني، وكانت قيادة المقاومة الفلسطينية التي وفرت لها انتكاسة حرب تشرين، الفرصة لان تتبدى وكأنها التعويض المتبقي لمن يرغب في مواصلة النضال، ولو من باب التشهير بالأنظمة، مفترضاً أن المقاومة هي النقيض.

وكان مما يعزز هذا الوهم ان العنصر الفلسطيني أقصي ـ بقرار معلن ـ عن الحرب لأسباب مفهومة.

أما بالنسبة للصراعات السياسية من حول النظام في لبنان فكان يمكن أن يستفاد من المقاومة كعنصر ترجيح للطرف الذي يرى أنه لا يأخذ حقه من السلطة.

٢ ـ وكانت قاهرة أنور السادات التي ارتدت الى موقع دفاعي ضعيف بعد الثغرة في «سياسة ٩٩٪ من الورق في يد أميركا»، وهي أخطر من الثغرة العسكرية، تنسحب بقتال تراجعي، أوصلها في ما بعد، الى التحالف مع خصومها التاريخيين من أهل النظام اللبناني.

٣ ـ أما دمشق حافظ الأسد، التي باتت بعد الحرب وحيدة، فكانت تقاتل للوصول الى فك اشتباك مع العدو الإسرائيلي، ولم يكن من هو مؤهل لدور الوسيط غير «الأميركي» مع التغاضي عن كونه كان في الحرب طرفاً في الجبهة المعادية.

٤ ـ وأما بغداد التي شاركت، ولو متأخرة، في الحرب، ثم أقصيت عن نتائجها السياسية، فكانت تتقدم رافعة الشعارات التي تساقطت خلال الحرب مستعيدة مناخ العداء العقائدي مع دمشق، مع تعزيزه بتعظيم المساعدة المادية للمقاومة الفلسطينية وبعض التنظيمات الوطنية اللبناني كحليف تكتيكي، ومقررة التقدم للقيادة مستفيدة من سقوط الدور المصري.

(*) في الأصل ورقة عمل قدمت الى المؤتمر السنوي الرابع لمركز الخليج للدراسات، «دار الخليج»، الشارقة، ١١/٥/٢٠٠٤. وهو بعنوان «الصحافة العربية في عالم متغير».

(**) ناشر «السفير».

٥ ـ وأما طرابلس القذافي فكانت تعاني من عقدة حادة تسبب فيها تجاهل السادات لدورها في الحرب، برغم أنها قدمت للجيش المصري بعض أهم أسلحة العبور وحمايته، ومن ثم فقد تم تجاهلها تماماً خلال مفاوضات فك الاشتباك وبعدها.. وكان رد الفعل حملة ضارية أخذت القذافي الى اسناد مزدوج لسوريا وللمقاومة الفلسطينية قبل ان يصاب بنوبة يأس جديدة جعلته يندفع أبعد فأبعد عن العروبة والعرب جميعاً وجعلته في وقت لاحق يمد بالمساعدة الفريق ـ الضد في لبنان، ولومن باب النكاية..

٦ ـ على أن التطور الاهم الذي حملته الحرب فقد تمثل في أن السعودية التي تعودت أن تتحرك خلف الستار، وأن تهمس ولا ترفع صوتها بموقف محدد، قد تقدمت الصفوف شاهرة سلاح النفط، مستولدة حالة من الزخم الشعبي والسياسي، عبر إثباتها القدرة على استخدام هذا السلاح الاستراتيجي في معركة التحرر. ولقد كلف هذا القرار التاريخي الملك فيصل بن عبد العزيز حياته.. ثم كلف السعودية الارتداد الذي استولد كثيراً من المخاطر التي ترجها الآن، خصوصاً وقد تم، كما في كل القرارات الأخرى، في غياب الشعب، ومع استبعاد الاحتياج اليه في حماية القرار ومن اتخذه.

البدء.. مع النهايات!

كنا نفترض نحن تلك المجموعة من المغامرين الذين أولوني شرف قيادتهم لإصدار «**السفير**» بشعاراتها المعروفة: جريدة لبنان في الوطن العربي، جريدة الوطن العربي في لبنان، و«صوت الذين لا صوت لهم». أن لدينا من الوقت ما يكفي.. مع وعينا بأن ليس لدينا من المال ما يكفي لمغامرة مفتوحة. لم نكن قد استوعبنا تماماً اننا نبدأ مع النهايات:

١ ـ نهاية مستوى ممتاز من التضامن العربي

تمثل في اشتراك مصر وسوريا في اتخاذ القرار الشجاع بانتزاع المبادرة في المواجهة مع العدو الإسرائيلي، بدلاً من أن يكون العرب ـ مرة أخرى ـ في موقع المدافع المباغت بالتوقيت وبالسلاح.

وكان بعض العرب، السعودية تحديداً، على صلة باتخاذ القرار الاستثنائي، أما سائر العرب فلم يتأخروا عن التلبية والاندفاع للمشاركة/ ليبيا بسلاحها الطيران والصورايخ ـ الجزائر بطائراتها ـ المغرب بقوات رمزية ـ العراق بدبابات جاءت رأساً على جنازيرها الى جبهة الجولان.

٢ ـ نهاية الحركة الشعبية في لبنان

صدّرت «السفير» واحداً من أعدادها الأولى بمانشيت يعلن خبراً عظيماً: **٢٥ ألفاً في مسيرة الرغيف**.

كان الشارع ينبض بحركة زاخمة. كانت الأحزاب السياسية بيمينها واليسار تتحرك بمطالب الفئات الاجتماعية المختلفة، وكانت قد برزت ظاهرة المحرومين من أبناء المناطق النائية والذين هجرت أكثريتهم الأرض الزراعية التي لم تعد تطعمهم لتحتشد في أحزمة البؤس من حول بيروت... وما لبثت أن قامت حركة سياسية باسم هؤلاء فرزت الشيعة عن الكتلة السياسية العامة للحركة المطلبية، وأخذتهم الى المطالبة بحصتهم في النظام... وهكذا توزعت «مياه الخزان الوطني ـ القومي» في لبنان وتنامى التيار الجديد على حساب الأحزاب الوطنية والتقدمية التي كان الجنوب اللبناني بخاصة ـ مع امتداداته في العاصمة وضواحيها ـ يشكل رافدها الأساسي.

وكانت المقاومة الفلسطينية قد استقطبت بعض قوة الحركة الشعبية، مما أفقد الكثير من الأحزاب والحركات السياسية اللبنانية موضوعها المحلي وان كان قد زاد من قدراتها التي ليست لها..

٣ ـ نهاية مرحلة معينة من مراحل تجربة المقاومة الفلسطينية

كان وضع الانشقاق من حول النظام في لبنان والذي يتخذ فيه طابعاً طائفياً مغرياً للمقاومة كي تتطلع الى أن تكون سلطة، معززة بقوة حلفائها في الحركة الوطنية في لبنان الذين رأوا فيها حليفاً قوياً قد يمكنهم من إدخال تعديلات جذرية على حصص الطوائف في قمة السلطة.

صار لبنان معسكرين: الحركة الوطنية ومعها المقاومة الفلسطينية/ وقوى اليمين او أهل النظام ومعهم حماة هذا

النظام او المتخوفون من تغييره لما قد يحمله من انعكاسات على أوضاعهم.

وهكذا توغلت المقاومة الفلسطينية أكثر فأكثر في الوحل الطائفي في لبنان مما شغلها بهذا القدر او ذاك عن العدو الإسرائيلي، بينما لم ينشغل عنها لحظة، بل عمل للافادة من أخطائها في تلغيم الأرض اللبنانية التي تقف عليها.

٤ ـ ثم كان انفجار الحرب الأهلية بعد سنة فقط من صدور «السفير» إعلاناً بانتهاء العمل السياسي، واغلاق الشارع كمحرك أمام الحركة الشعبية بمطالبها جميعاً ـ من المشاركة السياسية في السلطة، ومن ثم في القرار الى تحصين الجامعة الوطنية الى الخبز الى حماية المقاومة الفلسطينية الى توفير فرص العمل، الى إنصاف المناطق المهملة او المنسية الخ..

أما وقد أقفل الشارع في بيروت فقد كان ذلك إعلاناً بانتهاء العمل السياسي/ بمعنى ان تكون الجماهير / الشعب/ محركاً او قوة اسناد او قوة اعتراض.

وكان يعني أيضاً تضاؤل الهامش الديمقراطي في لبنان.

وبالاستطراد فقد تحولت الصحف في لبنان الى مزيج من الأحزاب ـ الأطراف ـ الطوائف في الحرب بهذه النسبة او تلك ـ مما تسبب في تعطيل دورها كمؤسسات حوار ـ

صارت الصحف نشرات حربية/ تقدم توصيف المعارك بالأعداد المتزايدة للضحايا، مع غلبة تدريجية للمنطق الطائفي على المنطق السياسي. صارت المقاومة الفلسطينية حزب المسلمين والرافعة التي يحتاجونها لتعديل في النظام، واندفعت قوى المسيحية السياسية الى حماية نظام الامتيازات حتى لا تخسر موقعها الممتاز. وكانت تراهن، بعد، على الغرب حامياً ونصيراً.

انشطر الشعب / انشطر العرب/ انشطرت الحقيقة.

اتسعت أرض المعركة وتعددت أطرافها.

اختلط العنوان الداخلي اللبناني بالعنوان الفلسطيني، وكلاهما يختزل او يستوعب مختلف أنواع الصراعات السياسية/ باتت المواجهة الآن بالسلاح متعدد المصادر على الأرض اللبنانية وتحت شعارات القضية الفلسطينية.

جاء العالم كله الى لبنان / أميركا وفرنسا وسائر أوروبا/ الاتحاد السوفياتي ومعسكره الاشتراكي/ والعرب بيمينهم واليسار (ان جازت التسميات)

صار للسياسة وسائل تعبير أخرى غير الصحافة.

تحولت الصحف في الغالب الأعم الى نشرات حزبية او نشرات نعي.

ثم كان **الاجتياح الإسرائيلي** الذي يمكن استخلاص الكثير من الدروس منه:

١ ـ فراغ الشارع العربي.

٢ ـ سقوط المواقف الإعلانية للأنظمة العربي بالدعم المطلق للمقاومة الفلسطينية.

٣ ـ تهافت الأنظمة المرتبط معظمها بالسياسة الأميركية.

في البداية كانت النظرية ان الولايات المتحدة تملك الأوراق جميعاً ـ ثم تبين ان الأرزاق أيضاً في اليد الأميركية لينتهي الأمر بانكشاف ان اليد الاميركية تمسك بالأعناق جميعاً.

لم يخرج العامل الفلسطيني مهزوماً بالاجتياح فقط..

كان قبل ذلك قد فقد وهجه الشعبي فلما جاء الاجتياح لم يجد أحداً، لا من المقاومين ولا من الذين فتحوا لهم بيوتهم فاستضافوهم وقاموا لهم بدور الدليل والمؤكد للطبيعة القومية للمعركة.

كما انكشف ان الإسناد السياسي العربي اللفظي غالباً والمحدود دائماً، للمقاومة الفلسطينية لا ينفع في وقف دبابات شارون، وان الرعاية الأميركية لعملية السلام لا تنفع الا في إعادة وصل التيار الكهربائي في بيروت، وإعادة فتح المياه لساعات معدودات ليس إلا.

وامتدت بعد ذلك حروب عربية ـ عربية (سوريا ـ فلسطين/ سوريا ـ العراق / سوريا وبعض الأطراف اللبنانية) إضافة

الى الحرب الاسرائيلية ـ السورية التي انفتحت لها أرض لبنان (رئيسان للجمهورية على الدبابة الإسرائيلية. اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣، حرب الجبل التي تبدت في لحظة وكأنها اشتباك بالنار بين الحلف الاطلسي وحلف وارسو بقيادة اندروبوف الذي لم يعمر طويلاً... ثم عودة سوريا الى المسرح أقوى مما كانت في اي يوم بحيث انفردت بالساحة اللبنانية، خصوصاً بعد المحاولة الفاشلة التي قامت بها قيادة عرفات للعودة الى طرابلس.)

محاولات لاغتيال الصحافة في لبنان

خلال هذه الفترة كانت الصحافة في لبنان تنزف باستمرار، وتتراجع في مستوى أدائها المهني، وتخسر دورها المميز في السياسة، محلياً وعربياً.

مع بداية الحرب الأهلية أخذت الصحافة في لبنان تنزف كادراتها المهنية، فلما اجتاح شارون العاصمة بيروت كانت الصحافة بين اهدافه المباشرة، وكانت في أبأس حالاتها، مادياً ومعنوياً، انتشاراً وتأثيراً.

وعند أول محطة للتسوية، اواخر ١٩٧٦، التي رعتها جامعة الدول العربية، فانشأت قوات الردع العربية، واوفدتها الى لبنان، عوملت الصحافة وكأنها السبب في الحرب، ففرضت عليها الرقابة العسكرية... بل أن بعض من المؤسسات الصحافية قد اعتبرت «مراكز عدوة» فجرى التعامل معها عسكرياً، لإقفالها في تصفية متأخرة لخصومات سياسية بين أنظمة محتربة.

وما بين بدايات ١٩٧٥ واواخر ١٩٨٢ هاجر الكثير الكثير من الصحافيين اللبنانيين او العاملين في الصحف والمجلات اللبنانية او الفلسطينية، وقد كانت عديدة... كما هاجرت بعض الصحف بتحريض مباشر من أنظمة معترضة على إخضاع لبنان للنفوذ السوري.

وحين شن صدام حسين حربه على الثورة الإسلامية في إيران صارت للانقسام من حول لبنان أبعاد أخرى، اختلط فيها السياسي بالطائفي، والمحلي بالعربي بالدولي الخ..

وقد شهدت هذه الفترة محاولات اغتيال للعديد من الصحافيين، كنت واحداً منهم، كما شهدت عمليات نسف للصحف وقصف لمكاتبها ومطابعها،كانت «السفير» واحدة منها.

ملاحظة استدراكية

مع اعتزاز «**السفير**» بان العديد من كادراتها المهنية قد أسهم في إصدار او في تطوير العديد من الصحف والمجلات في بعض أقطار الجزيرة والخليج، كما في بعض صحف المغتربات، الا ان الوجه الآخر للمسألة يتمثل في أن تعويض هذه الكادرات لم يكن سهلاً.

كانت الصحافة اللبنانية، عموماً، وبينها «**السفير**» بالتأكيد، تتراجع مهنياً، وتفقد أسواقها العربية نتيجة عوامل كثيرة أولها ان المطار كان مقفلاً معظم فترة الحرب، لا يفتح أبوابه الا نادراً، ولم تكن وسائل الاتصال الحديثة قد تيسرت بعد... وشيئاً فشيئاً صارت صحفنا محلية / فضلاً عن كونها نشرات حربية/ او مطبوعات تفرغها الرقابة من اي مضمون.

صار استمرار الصحيفة هدفاً بحد ذاته.. وبات هدفاً بعيد المنال.

فقدت الصحافة اللبنانية الكثير من وهجها العربي، بل وفقدت ايضاً بعض إشعاع دورها الوطني، فقد بات بامكان الميليشيات الطائفية التي تحكمت لفترة طويلة بالمعابر، التي باتت حدوداً بين قوى النفوذ، وبين الطوائف والمذاهب أيضاً، أن تمنع وصول هذه الصحيفة او تلك الى المناطق الخاضعة لسيطرتها.

فقد لبنان وحدته. فقد دوره العربي. فقد أيضاً صحافته التي كانت على الدوام صحافة عربية. اعتمدت القوة مع الصحافة والصحافيين. وكانت تلك خطوة حاسمة على طريق الغاء السياسة ومؤسساتها وفي الطليعة منها الصحافة.

الاعلانات والمداخيل

لنبدأ من البداية.

الكتلة العظمى من الإعلانات في الصحف العربية أجنبية المصدر، بقدر ما هي البضائع التي يراد الترويج لها بضائع أجنبية، من المجوهرات الى المشروبات الروحية الى السكاير، الى المعامل والفبارك وصولاً الى أقلام الرصاص والابر والكوفيات والدشاديش وفساتين الموضة.

والإعلان سلعة تجارية لكنه قابل للاستعمال سياسياً.

أذكر انني غداة الصدور ذهبت الى نقابة المعلنين في لبنان لأطالب بحق «**السفير**» / كصحيفة أكدت نجاحها منذ عددها الأول في الإعلان.

وبعد طي صفحة المجاملات والتبريكات والتنويه بمهنية «السفير» باغتني النقيب بمطلب بسيط، قال لي: ائتني بقصاصة ورق تثبت كم توزعون في السعودية ولكم ما شئتم من الاعلانات.

كانت «**السفير**» ممنوعة في السعودية. فقلت مستفزاً : ولماذا السعودية بالذات؟ قال : لأن السعودية بلد نفطي القدرة الشرائية فيها مرتفعة والاعلان يتوجه الى من يقدر على شراء السلعة.

قلت : ولكن «**السفير**» توزع في بلدين نفطيين هما ليبيا والعراق.

قال : بل لا بد من السعودية.

وكان علينا، ولفترة طويلة أن نعتمد على الإعلان المحلي، ولم يأتنا من الإعلانات الأجنبية إلا من اضطر وكيله المحلي الى شراء مساحة في الصحيفة الناجحة، وغالباً من باب إظهار توازنه او تحسبه لاحتمالات الربح والخسارة بعد انتهاء الحرب.

الخلاصة: لا صحافة حيث لا سياسة

ها ان صحف كل قطر عربي تكاد تكون نسخاً متشابهة، مع استثناءات محدودة، لان مصدر الأخبار واحد (وهو في الغالب الأعم أجنبي)

لا مجازفة كبرى في القول: أن لا صحافة عربية اليوم.. فحيث لا سياسة أي لا ديمقراطية لا يمكن ان تقوم وتعيش الصحافة وتلعب دورها الديمقراطي الطبيعي.

هناك صحف محلية في كل بلد عربي تهتم بهذا القدر او ذاك بالأخبار العربية، لكنه اهتمام المتلقي وليس صانع الخبر او المساهم فيه.

هناك تعليقات عربية في صحف محلية تصدر هنا او هناك. لكن الخبر العربي مصدره أجنبي/ بدءاً بالخبر الفلسطيني وصولاً الى الخبر العراقي، حيث الأخبار تكتب بالدم على الأرض والجدران او في المعتقلات التي يمارس فيها جنود للاحتلال شذوذهم وينشرون رسالتهم الديمقراطية، وانتهاء بأخبار اجتماعات المجمع اللغوي العربي الخ..

إن الصحف العربية هي صحف الظاهر لا صحف الباطن

إنها صحف إعلام لا صحف الأخبار

إنها نشرات أكثر منها صحفاً،

بين المفارقات ان بعض الصحف العربية الآن تشتري خدمات بعض الصحف الأجنبية لتقدمها كأخبار او تحليلات او تعليقات على الأحداث العربية / فيفهم منها القارىء العربي أكثر بكثير مما تقدمه له الصحيفة مباشرة.

ان السياسة العربية أسرار لا يملكها الا الحاكم.

ان بعض الصحف العربية الغنية تقدم محاورات وأحاديث لمسؤولين أجانب أميركيين خاصة، أكثر بكثير مما تقدم من

مكاشفات مع الحكام العرب.

ممنوع على الصحافي العربي أن يناقش المسؤول العربي. المسؤول العربي لا يسأل. هو من يسأل / المسؤول لا يأتمن الصحافي العربي على سره. كأنما أخبار الدولة وسياساتها اسرار شخصية او عائلية لا يجوز ان تكشف إلا لاجنبي، بافتراض انه يعرفها أصلا.

محنة الصحافة: ملاحظات للنقاش

في السياسة

طالما استمرت البطالة السياسية فلا أمل بصحافة عربية في المستوى المطلوب والذي نقدر عليه كصحافيين.

والبطالة ناتجة عن غياب الديمقراطية التي ثبت أنها غير قابلة للشحن على متن الطائرات الاميركية او الدبابات الإسرائيلية، كما لا يمكن ان تنجبها أنظمة القمع الديني او السياسي.

في التمويل

لا مشكلة لصحف تمتلكها الدولة او أهل الدولة لكن هذه الصحف ممنوعة من ممارسة الصحافة.

خلال السنوات القليلة الماضية اندثرت الصحافة في بلدان عربية كانت صحافتها متقدمة.

المقارنة ظالمة: صحافة الخمسينات كانت أفضل من صحافة الثمانينات والتسعينات.

لقد أنهت السلطة العربية الأحزاب، بدءاً بالحزب الحاكم - وهي قد دمرت الاحزاب المعارضة لكي تلغي الوريث الشعبي ولو كاحتمال.

وهكذا تكاملت فصول الدراما: يختزل الحاكم الدولة والشعب في شخصه فإذا ما أسقط او توفاه الله وفاة طبيعية تنهار الدولة ويجد الشعب نفسه في صحراء السلطة لا مرجعية له إلا بعض أجهزة الأمن التي تعاديه أكثر مما يعاديها، وتقدر على قهره وإذلاله ولا يقدر على خلعها.

ينتبه الشعب، فجأة، وبعد طول غياب عن المسرح، أنه مجموعات من الأفراد، قد تربط بين بعضهم هنا العشيرة وهناك العائلة، وفي حالات اخرى المؤسسة المنحلة، الجيش مثلاً، ولكنه مع هذه المؤسسات جميعاً خارج الدولة. ثم ان الصراع العشائري لا يحقق الديمقراطية. ومع غياب الديمقراطية فلا حاجة الى صراع آراء وصراع برامج، وبالتالي فلا حاجة الى الصحافة.

لا طبقة وسطى، لا برجوازية وطنية، لا ديمقراطية..

هنا سيكون علينا مواجهة الوضع الاجتماعي في بلداننا العربية.

من السائد الآن ان لا طبقة وسطى في الوطن العربي.

لقد دمرت هذه الطبقة التي كانت تحت التكوين.

هناك السلطة والرعية: من اتصل بالسلطة اغتنى فاستغنى،

ومن لم تقبله السلطة ظل فقيراً جيلاً بعد جيل.

لا في البلدان محدودة المداخيل كمصر والسودان والمغرب ولبنان واليمن، ولا في البلدان الغنية، يمكن تمييز الطبقات.

هناك فئات مرتبطة بالسلطة غناها غير مشروع لانه يأتيها من استغلال السلطة، وليس في استثمار رؤوس الاموال في الصناعة مثلاً.

كانت هناك طبقة وسطى في بعض الأقطار العربية فدمرتها السلطة قبل ان يكتمل تكوينها.

لا بورجوازية وطنية في الوطن العربي/ لا تقاليد للعمل السياسي

لا احزاب حقيقية / لا نقابات حقيقية / لا مجتمع مدني حقيقياً

صحف الأغنياء لا يمكن أن تعبر عن الشعب.

لا مؤسسات صحافية عربية/ هناك صحف مملوكة من أصحاب السلطة او أصحابهم/ الاستثناءات قليلة جداً.

لا شركات مساهمة / لا مؤسسات جدية تتولى تمويل الصحف بمال شرعي ومشروع لتعبر عن مصالح محددة شرعية ومشروعة.

الصحافة والتلفزيون

لا يمكن أن يكون التلفزيون مؤسسة سياسية.

الأكثرية الساحقة الماحقة من محطات التلفزيون العربية ملك خالص للدولة او لأصحاب الدولة / بمعنى الملكية.

ان التلفزيون قد يعوض عن السياسة لكنه لا يرسم سياسة. وصحيح ما قاله استاذنا محمد حسنين هيكل: ان الفضائيات العربية قد تحولت من محرض الى معوض عن التحرك الشعبي.

ان تلفزيونات الداخل للسلطان و تلفزيونات الخارج للطامعين بأموال السلطان/ او للهاربين ببعض أموال السلطة التي جنوها في ظروف استثنائية.

تناقص عدد القراء

ان أجيالنا الجديدة لا تقرأ.

ولدت فوجدت الآباء قد انفضوا عن السياسية ورذلوها واعتبروها كما تصفها السلطة رجساً من عمل الشيطان فاجتنبوها.

ان أرقام توزيع الصحف العربية فضائحية

هذا يتطلب بحثاً آخر/ بالأرقام والدلالات/

ان صحف لبنان مجتمعة لا توزع الا بضع عشرات الألوف من النسخ ومع أن الانترنيت قد عوضنا- نسبياً- عن غيابنا عن الأسواق العربية القريبة او الأسواق البعيدة، عبر القارات، الا ان هذا التعويض على أهميته يبقى أقرب الى جوائز الترضية.

ما العمل؟!

الحل خارج قدراتنا، طالما استمرت السلطة اقوى من المجتمع، والحاكم أقوى من الشعب، وطالما غاب ما يسمى «المجتمع المدني» وبالتالي طالما استمر غياب الدولة بمفهومها الحديث.

المجتمع معتل، والدولة اداة قمع لا مؤسسات سياسية. لا أحزاب، لا نقابات، لا اتحادات مهنية. الجامعات مسورة برجال الامن، والأحزاب، حيث وجدت، لصاحبها الحزب الحاكم، والنقابات للمخابرات.

الصحف تعبير مباشر عن واقع مجتمعاتها. اذا لم يتغير هذا الواقع لن تكون لدينا صحافة تلعب دورها النهضوي المرتجى في بناء دولتنا الحديثة.

وطالما ظلت أنظمة الحاكم الفرد، ملكاً كان أم رئيساً، قائمة بالاستناد الى أجهزة القمع، عسكرية كانت أم دينية، لن نتعرف الى الديمقراطية، ولن نحظى بصحافة تكون واحدة من مؤسسات الديمقراطية الا اذا حضر الشعب وصارت كلمته هي العليا.

خاتمة

إن الصحف اللبنانية، وبوصفها طليعة مميزة للصحافة العربية، مهددة في وجودها وليس فقط في دورها السياسي، وانطلاقاً من نجاحها المهني.

وانطفاء الصحافة اللبنانية التي كانت منارة عربية خسارة فادحة للحركة السياسية العربية. لقد لعبت على امتداد عقود طويلة دور المنتدى الفكري العربي، لم تكن مجرد مساحات للأخبار الخاصة، بل كانت مساحة للحوار بين الافكار والآراء والاتجاهات المتعددة والمختلفة حول الحاضر العربي، والاهم حول المستقبل العربي.

في الماضي لعب المال العربي دوراً في تنشيط الصحافة اللبنانية. كان الجميع يحاول عرض أفكاره والترويج لسياساته وخوض صراعاته مع القوى المختلفة معه على صفحات الصحف والمجلات. ولم يكن يعيب الصحافة اللبنانية أن يتم صراع الآراء بين الاتجاهات السياسية المختلفة فوق صفحاتها. كانت تعتبر أن الأنظمة والأحزاب والقوى السياسية القريبة تحاول ان تتبدى «ديمقراطية» في طروحاتها عبر نشرها في الصحف في بيروت. وكان الجدل بين الاشتراكيات العربية وبين الاتجاهات المحافظة، بين العلمانيين وبين الاتجاهات الدينية، على تنوعها، يضيف الى قيمة بعض الصحف في لبنان فيضفي عليها طابعاً مرجعياً لمن يرصد الصراعات الفكرية بين الساعين الى غد أفضل عربي.

اليوم يلعب المال العربي في الصحافة اللبنانية دوراً متعارضاً مع الطموح الى الديمقراطية والإصلاح. انه يحاول قمع الحوار الذي تضج به جنبات الأرض العربية، ويحاول توجيهه بما يخدم السياسة الأميركية في المنطقة. انه يعزز الاعتقاد بأن ما تقرره لنا الإدارة الاميركية يكون، وأية مقاومة للقرار الاميركي هي مراهقة سياسية. انه يدعم موضوعياً الاحتلال الاميركي للعراق، ويدعم - ولو بشكل غير مباشر - الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، انه يسفه ويشكك في كل اشكال المقاومة الشعبية، وحتى الاعتراض على السياسة الاميركية في المنطقة... وفي هذا السياق فهو يصب الماء في طاحونة الخلافات الطائفية او العرقية داخل البلد الواحد، خدمة للاحتلال.

لا ديمقراطية مع الطائفية. لا ديمقراطية مع العنصرية. لا ديمقراطية مع السلفية. لا ديمقراطية مع الاحتلال الأجنبي.

الصحافة اللبنانية ضحية لانعدام الديمقراطية في الوطن العربي:

ويمكن أن نقول، بعد تسجيل السلبيات، كلمة إنصاف تستحقها هذه الصحافة الضعيفة الإمكانات القوية الإيمان بأمتها وبحقوق الإنسان في وطنه وفي الحرية والكرامة.

لقد لعبت الصحافة في لبنان بإيجابياتها وسلبياتها دوراً ريادياً في دنيا العرب، وبرغم كل القيود والسدود التي حدت من انتشارها وتوزيعها، فان تأثيرها كان - في خاتمة المطاف - إيجابياً... فهي قد أسهمت في نشر الوعي، وفي تعزيز الثقافة الديمقراطية، وفي توكيد حقوق الإنسان العربي على نظامه وفي تعزيز مقاومته للاحتلال الاجنبي.

لقد أفادت الصحافة في لبنان من خصوصياته وتنوع الآراء والتيارات فيه، التي يمكن النظر اليها كشهادة جدارة للأمة العربية في حرصها على أبنائها جميعاً، وكتوكيد على أهلية العروبة - كانتماء وهوية حضارية - بأن تحل مشكلات معقدة خلفها الليل الاستعماري الطويل، أبرزها مشكلة الأقليات الدينية والعرقية.

كذلك قدمت الصحافة في لبنان من دماء روادها زيتاً لقضية حرية الوطن وحرية المواطن في هذه الديار العربية الفسيحة التي تناوب عليها الاحتلال الأجنبي والطغيان الداخلي لاجيال طويلة.

وبالتأكيد فإن هذه الصحافة التي يتسع أمامها الهامش الديمقراطي بينما يضيق كثيراً أمام سائر الصحافة العربية، **تظل ضرورة قومية**، بتياراتها واتجاهاتها المختلفة، اليمينية منها واليسارية او الليبرالية،

إنها حزمة ضوء تشق ليل الرأي الحاكم، الواحد الفرد، وتنشر الوعي بحقوق الإنسان العربي في غد أفضل.

إنها صحافة عربية، وليست مجرد صحف محلية.. وبهذا المعنى فهي جديرة بالحياة، وهذه أيضاً عربية المصدر بالضرورة، سواء اتسمت بدافع الحرص على لبنان، او على الديمقراطية التي تحتاج بعد الى كثير من الرعاية لتسمق شجرتها وتطرح ثمارها الشهية..المرتجاة.